أين تذهب طيور المحيط؟

أماكن في القلب.. وناس!

إبراهيم عبد المجيد

الطبعة الأولى
٢٠٢٥م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع أحمد

المشرف العام على النشر
إيهاب الملاح

كتب ثقافية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عبد المجيد، إبراهيم .
أين تذهب طيـور المحيط: أماكن فى القلـب.. وناس!/ إبراهيم عبد المجيد.
– ط 01 – القاهرة: دار المعارف، 2024
224 ص، 23.5 سم
تدمك 3 9524 02 977 978
1 – الرحلات فى الأدب العربى.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 810.9031
رقم الإيداع: 30959/ 2024
رقم أمر التشغيل: 1/2024/93
رقم الكونجرس: 5 – 841993 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

الإهـداء

«إلى كل الذين تركتهم خلفي
وأنا أمضي إلى الأمام»..

انطباعات كاتب عربي عن بلاد
«البروسترويكا»
إلى موسكو بعد طول انتظار

قبل الرحلة

اليوم كان السابع عشر من شباط (فبراير) عام ١٩٩٠م، والرحلة سبقتها أيام من العناء. أن تكون مرشحًا للسفر إلى الاتحاد السوفيتي من قِبل وزارة الثقافة المصرية يعني إجراءات طويلة وظيفية مملة ومرهقة، لكني كنت أجري في الشوارع وبين المكاتب. روسيا. روسيا. الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي.

هذه فرصة لا تتاح للكتاب في مصر كثيرًا، خاصة لمن هم مثلي ليس لهم في العلاقات العامة باعٌ ولا ذراعٌ ولا في اتحاد الكتاب وضع أو عضوية فعالة، ولا يعملون في الصحافة، ولا يسلمون من حرب أنصاف الكتاب الذين اشتهروا خلسة، إذ توفر لهم ما مضى كله.

روسيا. روسيا. من تولستوي إلى ايتماتوف مرورًا بالكوكبة الذهبية الروسية والسوفيتية، ومرورًا بعمري، بقراءاتي الأولى لأدب الأمة الروسية، ونماذج شعبها الطيب البائس، وقراءاتي الهادرة في الماركسية، وكيف خيبت روسيا ظن ماركس، فتقدمت هي لتحقيق أفكاره، هي الإقطاعية لا إنكلترا البورجوازية، وقدمت للدنيا مفكرًا آخر من عندها أكثر قدرة وعقلًا، وتنظيمًا، وعملًا وإرادة هو فلاديمير ايلتش لينين وعربته الذهبية التي جرتها خيول من نوع تروتسكي وبوخارين وستالين، قبل أن تدخل الخيول في شجار عنيف معروف ومذكور في الكتب المسموح بها والمحرمة، التي تضعها حكومات العالم الثالث في فترينات المكتبات تعبيرًا عن حسن العلاقة مع القوة العظمى الثانية في العالم، ثم تعتقل من يشتريها قبل وبعد القراءة!

الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي. اليوتوبيا التي تحققت للبشرية في القرن العشرين بعد أن كانت حلم عصر التنوير، حلم المفكرين في إنجلترا وفرنسا وألمانيا والتي حين خرج العالم من الحرب العالمية الأولى بدأت أكبر عملية «حج» لمفكري الغرب إلى هذه اليوتوبيا الجديدة. عملية «حج» لعشرات الكتاب والمفكرين من العالم القديم والجديد، ويلز مثلًا وشو وجيد وادموند ويلسون وسوزان سونتاج.

لكني ذاهب الآن في حقبة البروسترويكا. ذهب أقطاب من اليسار المصري وعادوا يقولون لا خوف على الماركسية اللينينية وما يجري مجرد تصحيح لتجربة أكبر دولة شيوعية، مجرد تغيرات لن تلغي الثوابت أبدًا...

وأنا أريد أن أرى وأعرف، لكنني سأحاول أن أرى وأعرف من الناس العاديين في الشوارع، وليس من المسؤولين في الحزب، أي حزب. وإن كنت بالطبع لن أقابل كل الناس (٢٩٠ مليونًا) ولن أجول بين كل القوميات (١٣٠ قومية) شرقية وغربية، تتحدث لغات مختلفة إلا في المدن الروسية الكبرى حيث يكون للغة الروسية فاعلية كبيرة. أجل. تبتعد عن المدن الكبرى، عن عواصم القوميات، فتدخل مدينة بابل القديمة التي أغضبت عليها الآلهة من كثرة الثرثرة والضجيج بكل اللغات فأرسلت عليها الطوفان الشهير..

ذاهب أنا في حقبة البروسترويكا التي تحتفل بها كل إذاعات الغرب المرئية والمسموعة والتي تلح علينا بالاضطرابات في لاتفيا وأستونيا وليتوانيا، جمهوريات البلطيق، بحر العنبر، وبالاضطرابات في الجنوب، في جورجيا التي أنجبت ستالين وتشق الآن عصا الطاعة بقوة، وفي أذربيجان

التي تستند على إيران وطاجيستان بلد عبد الرحمن الجامي وداغستان بلد رسول حمزاتوف وغيرها وغيرها.

أفكار متقاطعة

كان المفروض أن يستقبلني في المطار أحد. أي أحد من اتحاد الكتاب السوفيتي. لكن لم يستقبلني أحد وصلتهم برقية تعلن أن وصولي سيكون في اليوم الثامن عشر، ومعي زميلي الشاعر محمد أبو دومة. لكنا وصلنا في اليوم السابع عشر، وعن طريق فيينا، لأن الطائرات المصرية لا تصل مباشرة إلى موسكو منذ ألغى السادات الرحلات المباشرة لشركة الطيران المصرية إلى هناك. وفي فيينا لم نر إلا فندق «نوفوتيل» الصغير الأنيق القريب من المطار ولن نري منها في العودة إلا نفس الفندق ومحطة مترو قريبة. «اسمع بني ولا تنس فيينا عاصمة النمسا» جملة أتذكرها كثيرا كان مدرس اللغة الإنجليزية زمان وأنا في المرحلة الإعدادية يقطع الدرس دائما ويهتف بها أكثر من مرة ودون أن نعرف السبب ولا نستطيع أن نضحك وتركنا المدرسة ولم نعرف لماذا كان يفعل ذلك. لم نسأله أبدا.

تذكرت هذه الجملة أكثر من مرة في فيينا وأنا أشرب الشاي بثلاثين شلنا وآكل طبق السلاطة بخمسين شلنا وزميلي الشاعر محمد أبو دومة يقول لي لا تظن أن ليالي الأنس في فيينا «كما قالت أسمهان». وأمام كل الفاترينات التي رأيتها في فيينا داهمني شعور بائس بأنني الابن الفقير الخائف للعالم الثالث أو الرابع أو الخامس إذا شئت. وازداد شوقي للذهاب إلى موسكو وفي العودة إلى القاهرة.

وعندما ركبت الطائرة الصغيرة من فيينا بدأ شلال من الأفكار المتقاطعة يهدر في رأسي. موسكو التي كانت بداية النهاية لحلم نابليون، ولأطماع هتلر، والكرملين الجميل الذي بناه القياصرة وكاد نابليون يهدمه وملأه ستالين بالرعب. موسكو التي خرجت منها تحليلات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي باعتبار الحكومات البورجوازية في الدول المستقلة بعد الحرب الثانية حكومات وطنية، وما كان من هذه الحكومات الوطنية من طحن للشيوعيين لم يسبق له مثيل. وخروشوف الذي دشن أول صفحة في نقد ستالين والذي دمر بيريا وزير داخلية ستالين الرهيب والذي جاء إلى مصر يفتتح مشروع السد العالي، أو يزوره والشيوعيون المصريون في جميع سجون مصر. موسكو التي ذكرها السادات بكل سوء وناضل الكتاب الوطنيون نيابة عنها، عن أنفسهم ضد كامب ديفيد وضد الذهاب إلى الصلح مع العدو منفردًا دون موسكو، وبلا أهل من العرب. الآن انتهى كل ذلك. عاد العرب إلى مصر وعادت مصر إليهم شكرا. وعاد السوفيت إلينا لكنهم أيضا عادوا إلى العالم في صورة أخرى. هل يمكن أن أرى هذه الصورة حقا. وهل رأيتها ؟

لقاء فلسطيني عابر - لقاء مصري

ثلاث ساعات في المطار. زحام خانق. حر شديد. أجل. بفعل التكييف القوي. ورثيت لزميلي الذي يرتدي البالطو. أنا دون بالطو. ولا أحب الهواء المكيف. ساخنا أو باردا. ولا أحد في انتظارنا ينقذنا من إجراءات الجمارك وطابور الدخول الطويل الذي أصابني بالضيق والتعب. خرجت من الطابور وتقدمت إلى الشرطي المنوط به التفتيش وإعطاء تأشيرة

الوصول، تحدثت بالإنكليزية. نحن وفد من الكتاب المصريين والمفروض أن يكون في انتظارنا أحد (لم أكن أعرف أمر البرقية الخاطئة بعد) ني جفريت إنجيليسكي «لا يتكلم الإنكليزية». هكذا يقول لم أصدقه. ارتفع صوتي غضبا. ارتفع صوته وغضبه. نهرني لا بد بالروسية الفخمة وأشار لي أن أعود إلى الطابور. هل ستتشاجر هنا في موسكو؟ سألني أبودومة. دعك عني. كنا متعبين تماما. عدت إلى الشرطي الشاب الصغير وعلا صوتي فعلا وصوته أيضا. لا أحد منا يفهم ما يقوله الآخر، غير أنه يدرك أني أريد أن أخرج من الطابور الطويل، وأنا أدرك أنه يرفض والواقفون صامتون والجو رمادي، فالملابس كلها قاتمة. وعدت إلى الطابور لكن كان دوري الحقيقي قد اقترب فأشار إلى بالتقدم وأنهى الموقف بسرعة وبلا تفتيش للحقائب لكن كانت ساعة قد مضت.

خرجنا إلى زحام أكثر. الآن يلتقي المسافرون والقادمون والمنتظرون والمودعون ولا أحد في استقبالنا ولا نعرف أين نذهب. المصريون هنا كثيرون. ومعي أرقام تليفونات لبعضهم وأرقام تليفونات لاتحاد الكتاب. أتصل أولًا باتحاد الكتاب ولا أحد يرد. قالت لي موظفة الاستعلامات إن اليوم السبت. لا أحد يعمل بعد الظهر. لم يكن معي أرقام تليفونات المنازل لأي من المستشرقين. لا إيغور يرماكوف ولا فاليرياكاربتشنكا ولا أولغا فلاسوفا. معي تليفونات منازل المصريين د. أبو بكر يوسف أكبر المترجمين من الروسية إلى العربية. وأحمد الخميسي وعزة الخميسي. لكن صديقي الشاعر أبو دومة فجأة اكتشف أننا أدباء كبار. وأنه كان يجب أن ينتظرنا أحد من السفارة المصرية. لابد أن نتصل بالسفارة المصرية. معي

أيضًا أرقام تليفوناتها. وبالذات رقم تليفون د. حسني إبراهيم المستشار الثقافي. لم نجد أحدا بالسفارة. سيكون ذلك سببا في حزن الدكتور حسني إبراهيم فيما بعد. وسيقابلنا وسيساعدنا كثيرا. لكن قبل العودة بأيام لأننا لم نبق في موسكو في مكان واحد. حاولت الاتصال بأي من المصريين لكن صديقي الشاعر يقاوم ويرفض. لا يريد أن يستقبله أحد إلا أعضاء من السفارة المصرية. لكني طبعا لم أنتظر. اتصلت بالدكتور أبو بكر يوسف شيخ المترجمين. وكان بداية انفراج الأزمة. كيف حقا لم يقابلكم أحد؟ انتظر نصف ساعة وكلمني. بعد نصف ساعة أخبرني أنه تحدث مع أولغا فلاسوفا في منزلها وعلم منها أن البرقية تعلن أن وصولنا غدا وليس اليوم. وأعطاني رقم تليفون بيتها. وقال أستطيع أن أكلمها حتى يجد لنا هو مخرجا. و اعتذر أنه لا يستطيع أن يأتي بنفسه. فهو لا يستطيع قيادة السيارة في هذه العاصفة الثلجية. فضلًا عن أن السيارة نفسها معطلة. لكنه لن يتركنا وقال لي مرة أخرى أن أنتظر ولا أغادر المطار حتى تنتهي المسألة.

– حضرتك مصري؟

– أجل وحضرتك؟

– فلسطيني. مهندس قادم من الجزائر. ألاحظ أنكما في أزمة.

كان يقف جوارنا منذ وقت طويل يحاول استخدام التليفون الوحيد لمكاتب الاستعلامات. وهو نفس التليفون الذي نحاول نحن استخدامه وسط زحام شديد. . وسألني:

– هل هذه أول زيارة لكما إلى الاتحاد السوفيتي؟

– نعم..

– أنا أيضا. وأحاول الاتصال بالسفارة الفلسطينية. هل من خدمة أؤديها لكما ؟

– نحن كاتبان مصريان. إذا كان هناك ملحق ثقافي ربما يكون قد سمع بنا. وإذا كان يتابع مجلة «الكرمل» فلابد أنه اصطدم باسمي. نحن نريد سيارة فقط تقلنا إلى أي فندق معروف نجد فيه مكانا ومعنا تكاليف الإقامة. فقط نريد تسهيل المهمة.

– هذا بسيط. سأتحدث أنا إليهم بذلك.

ولا أعرف وحتى الآن لا أعرف لماذا احتج زميلي الشاعر. عاد يقول إننا أديبان كبيران ولا بد أن يستقبلنا أحد من السفارة المصرية. وفي هذا الذي أريده عار كبير لنا ولمصر. وأنه يرفض تماما الذهاب عن أي طريق إلا سفارتنا التي يجب أن تحترمنا وتقدم لنا المساعدة. ووقفت حائرا ومندهشا من هذه الصرعة التي أصابت صديقي الشاعر. ماذا يريد بالضبط: استقبالا يليق بنا أم خروجا من المأزق ؟

واندفعت معه في نقاش عنيف. ضحكنا منه بعد ذلك كثيرا. ولم يفصح لي أبدا عن سر صرعته تلك. حتى ونحن نضحك بعد ذلك. ولم أستطع طبعا أن أخيب رجاءه وأقول إننا حتى لو كنا في مصر فلن نجد من يعرفنا خارج دائرة الكتاب الضيقة. لم أشأ أن أذكره بذلك. وكان المهندس الفلسطيني قد بدأ يتكلم تليفونيا بالسفارة. لكن يبدو أنه لم يفهم الأمر جيدا. لقد اعتذر عما حدث وتركنا وانصرف. وأنا أقف في غاية الدهشة أتأمل صديقي الشاعر الذي راح من جديد يتصل بالسفارة المصرية هو يعرف أنها مغلقة.

بعد ذلك اتصلت بالكاتب أحمد الخميسي فلم أجده. وبأخته عزة الخميسي فلم أجدها وتذكرت أن معي رقم تليفون المستعربة أولغا فلاسوفا فهاتفتها.

– إبراهيم. أنا آسفة جدا البرقية تعلن قدومكما غدا. وأنت لا تعرفني. سوف تراني غدًا وتدرك أني لا أستطيع القيادة في هذا الجو. هناك عاصفة ثلجية مفاجئة والحرارة عشر درجات تحت الصفر وسوف تعذرني لكن لا تترك المطار. أنا أحاول مع الدكتور أبو بكر أن نجد لكما مخرجا.

و لم أتأخر في الاتصال من جديد بالدكتور أبو بكر يوسف الذي قال لي ألا أتحرك من جديد وأنه وجد صديقا يعرفني وهو في الطريق إلى الآن. وتنفست.

– إبراهيم عبد المجيد في موسكو؟

– فاروق رضوان.

وعناق طويل. أطول من مظاهرات يناير ١٩٧٧م التي أصيب فيها فاروق برصاصة شجت بطنه ونشرت كل الصحف صورته فوق المتظاهرين. لم أر فاروق بعد ذلك إلا مرة بعد خروجه من السجن ومرة في الإسكندرية في الصيف ثم سافر إلى موسكو ليحصل على الدكتوراه في القانون ويعمل في الترجمة..

– أحضرت لك بالطو من باب الاحتياط. أعرف أنك لا تملك بالطو.

وحمدت الله أن صديقي أبو دومة لم يحتج. لقد بدا أنه يعرف فاروق أيضا وفاروق بدوره حدثه عن أمسية شعرية قديمة في السبعينيات كان أبو دومة

فيها نجما وكان لجيهان السادات عليه تعليق أنه شيوعي. امتلأ أبو دومة بالسرور.

فها هو واحد من مستمعي شعره. وقال إنه في تلك الليلة لم ينم في البيت وظل يمشي هائما في شوارع القاهرة خوفا من جيهان السادات التي لا يعرف لم حضرت الأمسية الشعرية. وبدأت رحلتنا.

وسط البياض المديد يقف مایاكوفسكي غاضبا

الثلج لأول مرة في حياتي. البياض الشاهق فوق كل شيء رغم ظلام الليل. الجليد متراكم على جانبي الشوارع الواسعة وحول الأشجار العارية سامقة الارتفاع سوداء الجذوع والسيقان والأغصان كأنما أحرقها برد الشتاء وأنا مبهور بالجو في الليل ولا تفارق عيناي الطريق الواسعة وفي الفضاء تتطاير هابطة ندف الثلج القطنية. يقول صديقي فاروق رضوان أن العاصفة فاجأت الجميع وإن الذين يعيشون في موسكو يعرفون أن شهر شباط (فبراير) هو أكثر شهور السنة تقلبا وأنا أتابع الجماعات القليلة من السكاري الذين يخرجون من بين الأشجار يترنحون في الطريق ويشيرون إلى السيارات وكادت سيارتنا تصطدم بواحد منهم وكنت أيضا أتأمل بدهشة العناق الطويل بين رجل وامرأة على جانب الطريق. أمضينا ليلة طيبة في منزل صديقنا الذي وصلنا إليه عن طريق طويلة دائرية حول موسكو في منطقة قريبة من جامعة موسكو. منطقة جديدة شوارعها غير مرصوفة غطاها الجليد لمسافة لا تقل عن ربع متر على الجانبين وحفرت

السيارات طريقها بالقوة فوقه. هيأت لنا زوجة صديقنا الألمانية الشرقية ضيافة منعشة أنستنا تعب الرحلة وساعات المطار الثلاث ولأن الذكريات كثيرة طال سهرنا وشاهدنا على شريط فيديو عبد الرحمن الأبنودي وهو يلقي قصيدته الطويلة الموت على الأسفلت وفيلما تسجيليا مجريا عن الانتفاضة الفلسطينية وفي الصباح بعد نوم قليل ويقظة مبكرة في الساعة السابعة تقريبا رأيت النهار الضبابي الرمادي لموسكو. الأرض البيضاء أكثر نصاعة والأطفال يخرجون مبكرين بالزحافات للتزحلق بين الأشجار وحاولت من منزل صديقي الاتصال بالقاهرة. كنت أريد بشغف أن أصف المشهد الصباحي الرائع لأحد لكن للأسف تعذر الاتصال.

فندق بيكين.. ولكن!

عرفنا بعد اتصال تليفوني بأولغا فلاسوفا أننا سننـزل بدءا من اليوم في فندق (بيكين) وهناك سيقابلنا المترجم المنوط به مرافقتنا. وأخذنا فاروق إلى الفندق الصغير الجميل الذي لم نبق فيه غير يومين فقط. الفندق يقع في وسط المدينة في ميدان مایاكوفسكي ويبدو من طرازه أنه كان أحد القصور القديمة قبل الثورة. أمام الفندق مباشرة تمثال ضخم لمایاكوفسكي غاضبا يريد أن ينطلق من فوق قاعدته، وأمام التمثال يمتد على الجانبين شارع غوركي الطويل الواسع وعلي يسار الفندق وخلف التمثال سينما موسكوفا وأمامه محطة مترو ومسرح. في فندق بيكين قابلنا المترجم – مستر فيتالي – طويل ذو شعر أصفر وادع الملامح خجول رحب بنا بوداعة لا تليق إلا بالشعب الروسي، وحين تحدث أدركنا أنه تعلم العربية في بلاد الشام وبالفعل كان يتحدث كأنه واحد من أهل الشام إذ أمضى هناك خمس

سنوات من حياته. لقد صحبنا إلى الغرفتين المحجوزتين لنا وسألنا في خجل شديد : ما رأيكما، هل هي غرف طيبة؟ ما رأيك أنت ؟ ليست طيبة بأي حال مستر فيتالي. ليس مهما أنها سيئة الفرش، ولكنها ضيقة جدا. إنك لا تستطيع أن تستقبل فيها صديقا واحدا.

فعلا، معكما حق سنحاول مع إدارة الفندق تغيير الغرف ولم يكن ذلك سهلا ،كان المستحيل بعينه، المناقشات حامية في الكرملين والوفود من جميع الجمهوريات. القيادات الحزبية. مجالس السوفييت لإقرار قوانين الملكية وتحديد أوضاع الجمهوريات المتمردة وكل الفنادق محجوزة وكل الغرف فضلا عن وجود أعداد كبيرة من رجال المال والأعمال الأمريكان واليهود خاصة يملاؤن موسكو وينتظرون قوانين الملكية الخاصة. لا مفر من البقاء في غرفنا يومين ثم نذهب في رحلة إلى كييف ونعود فنجد اتحاد الكتاب قد حل المشكلة حتى لو انتقلنا إلى فندق آخر. ولأن اليوم كان الأحد فلم يكن هناك برنامج من أي نوع ومن ثم طلبنا من مرافقنا الطيب أن يتركنا «سوف نتسكع في شوارع موسكو واذهب أنت إلى بيتك يا صديقي».

في الشوارع ليلا

لم يقل لي أحد إنه يمكن للإنسان في مثل هذا الصقيع أن يتناول الأيس كريم بشغف. خرجت من الفندق الصغير الجميل بعد العصر أتسكع في الشوارع. اتجهت إلى محطة المترو والمواجهة لتمثال مایاکوفسكي حيث ينزل إليها ويصعد منها أعداد كبيرة من البشر لم أتقدم أكثر من خطوات ووجدت نفسي مرتبكا لا أعرف ماذا يفعل الناس حين يركبون المترو، كنت وحدي حيث رفض زميلي الشاعر النزول خوفا من البرد بالليل. بعد

ذلك عرفت أن الذين يضعون قطعا من النقود في صناديق معلقة بالحائط إنما يفعلون ذلك للحصول على قطع صغيرة من فئة الخمس كوبيكات وأنهم بعد ذلك يضعون قطعة واحدة منها في صناديق أرضية فيسمح لهم بالمرور منها أوتوماتيكيا إلى السلالم الكهربية الجبارة التي تنقلك إلى رصيف المترو تحت الأرض في العمق البعيد المثير بحق لي على الأقل. وقد ركبت المترو بعد ذلك أكثر من مرة وعرفت أنه يمكن للفرد الواحد وبخمس كوبيكات فقط أن ينتقل بين جميع محطات المترو تحت الأرض ويقطع كل خطوط المترو التي تمتد لحوالي مائتي كيلو متر تحت موسكو ويجري توسيعها الآن أيضا. بالطبع لن يفعل هذا إلا مجنون واكتفيت بالابتسامة للفتيات والسيدات اللاتي يقفن بالمحطة حاملات زهور القرنفل الحمراء في أيديهن ينتظرن أحباءهن. تركت محطة المترو إلى الطريق. نظرت إلى تمثال مایاكوفسكي وعبرته بسرعة. سأعود إليه فيما بعد لأنظر إليه مليا ومشيت في شارع غوركي لأجد زحاما شديدا أمام محل صغير. طابور طويل وزحام من الفتيات والشبان والأطفال يأكلون الأيس كريم. يا إلهي في هذا البرد العاصف. كانت العاصفة لا تزال لليوم الثاني ترسل ندف الثلج من الفضاء إلى الأرض طائرة في خطوط هندسية متوازية مثيرة للعين بحق ووقفت أحاول أن أتذكر أين قرأت عن ذلك ولم أتذكر.

في اليوم التالي حين قابلت الشاعر والمستعرب أيغور يرماكوف قال لي أن تشرشل أصابته الدهشة نفسها حين زار موسكو لأول مرة بعد هجوم الألمان على الاتحاد السوفييتي وقال لستالين إن شعبا يأكل الأيس كريم في درجة حرارة تصل إلى أكثر من عشرين تحت الصفر لابد أن ينتصر في

الحرب. وأحسست بالبرد لأول مرة. وكان الليل قد غشي المدينة لكن الشوارع ذات الأرضية البيضاء تضيء أمام عيني رغم انغلاق المتاجر على طول امتداد الشارع وكل الشوارع. لم تكن بي رغبة في العودة إلى الفندق فوقفت أمام باب سينما موسكوفا مترددا ودفعت الباب ووقفت في الجو الساخن للمكيفات كانت هناك جماعات قليلة من الشباب والفتيات وكان مظهري مثيرا للجميع. البالطو وطول جسمي ربما لا يثيران أحدا في موسكو. كل الناس يرتدون البالطو والأجسام الروسية طويلة لكن ما كان فوق رأسي هو الذي كان مثيرا. لم تكن (شبكة) روسية إنما (لبدة) صعيدية اشتريتها من ميدان العتبة بالقاهرة. ورأيت الابتسامة على وجوه الجميع وفتحت لي الابتسامة الطريق للسلام ولكن مع فتاتين صغيرتين ربما لا تتجاوز الواحدة العشرين من العمر. فتاتان شديدتا الشبه ببعضهما لوجه كل منهما حمرة التفاح ولفم كل منها نفس الدقة والابتسامة الطفولية. أحسست بهما توأمين لهما نفس العينين الزرقاوين ونفس الجسم الصغير الدقيق وعلي رأس كل منهما نفس غطاء الرأس الأبيض وحول عنق كل منهما نفس الكوفية البيضاء. للحظة فكرت أنه ربما ليست هذه سينما فلم يكن على الجدران أي صور للفيلم المعروض إلا صورة كبيرة. أفيش لممثل لا أعرفه وممثلة لا أعرفها وكل شي مكتوب بالروسية التي لا أعرفها أيضا وسألتهما هل تتحدثان الإنكليزية. وسيتكرر ذلك كثيرا مع فتيات وشبان. نادرا ما وجدت أحدا من الناس العاديين يعرف لغة أخرى. قال لي شابان سأتحدث عنهما فيما بعد جاءا من إحدى جمهوريات البحر الأسود إلى

موسكو وقابلتهما عند أسوار الكرملين إن تعليم الإنكليزية أو غيرها في المدارس السوفيتية بائس جدا وأن ذلك ربما كان من آثار السياسة الستالينية فالستار الحديدي لم يكن يعني إخفاء الأسرار فقط إنما قطع العلاقة بين الشعوب السوفيتية وغيرها بقطع اللسان نفسه.

أجابت الفتاتان بالروسية «لا» أسهل كلمة في العالم هي كلمة «لا» تعرفها من حرف «الإن» الذي تبدأ به غالبا في كل اللغات. سألتهما بكلمات روسية قليلة «سينما» أجابتا«دا» أي نعم بالروسية القليلة التي أعرفها ولم تكفا عن الابتسام والنظر إلى اللبدة الصعيدي فوق رأسي قلت «يا إيجيبت» أنا مصري فظلتا تبتسمان سألتهما عن الفيلم هل هو روسي فقالتا أنه «فرانسوسكي» إذن هو فيلم فرنسي. ولم استطع أن أتقدم في الحديث وتعقد اللسان. أشرت بيدي معبرا عن رغبتي في رؤية الفيلم فأشارتا إلى الطريق إلى شباك التذاكر. قطعت تذكرة دخول وعدت إليهما فوجدتهما لا تكفان عن الابتسام. سألتهما ما إذا كانتا أختان فقالتا لا. سألتهما عن اسميهما فوجدت واحدة تسمى تانيا والأخرى تسمى تانيا أيضا. تشابه في الاسم والشكل والابتسامة الطفولية المبهجة وغير أختين ليكن. كانت الساعة السابعة والفيلم سيبدأ في الثامنة. أمامنا ساعة للحديث. درست منذ سبعة عشر عاما اللغة الروسية لمدة ستة أشهر حين كنت أعمل في مشروع الترسانة البحرية في الإسكندرية وكان فيها خبراء سوفييت وهاأنذا الآن أتذكر من حديثهما بعض الكلمات التي بدا أني نسيتها سألتهما ما إذا كانتا طالبتين فعرفت أنهما عاملتان وسألتهما عن البرسترويكا فقالتا «خرشوه» أي جيدة وهل هذا رأي الناس ممن هم أكبر سنا فقالتا إن هذا رأي أسرتيهما

أيضا وسألتهما رغم المشاكل التي نسمع عنها فقالتا «ني بروموليما» يعني لا مشاكل ولم تكفا عن الابتسام أبدا وبالطبع لا يمكن للمرء أن يفكر للحظة أن هناك توجيهات حزبية من أي نوع ليقول الناس ذلك. وسوف يقول غيرهما ذلك ولكن لم تكن اللغة حاجزا بيني وبينهما لوجود المترجم مرة ولوجود معرفة باللغة الإنكليزية ولو قليلة عند من أحدثه، ولكن هذا سيحدث فيما بعد وسأسمع لأول مرة أشياء مدهشة لم يخطر ببال أحد أنه يمكن أن يقولها أحد ! ومضى أكثر الوقت ونحن صامتون ولكنا حين دخلنا إلى السينما كان على أن انصرف بسرعة. أولا لأن رقم مقعدي جاء في الدور الأول وهما في الدور الثاني ولم يكن من الممكن تغيير المقاعد بسبب الزحام وثانيا لأن هذا الزحام من شباب وفتيات جاءوا اثنين اثنين ولا يمكن لأحد أن يفرط في مقعده لخاطري وثالثا لأن الفيلم مدبلج وناطق كله باللغة الروسية، ورابعا لأن السينما لم تكن جيدة كانت ضيقة وأشبه بسنيمات الدرجة الثالثة في مصر. خرجت إذن إلى الشارع مرة أخرى دون وداع لهما أو منهما. قابلني الهواء البارد فأنعشني لا أريد أن أعود إلى الفندق إلا متعبا للنوم. لا أريد أن أسجن نفسي في أي غرفة. مشيت متباطئا في شارع غوركي أتفرج على فاترينات المحال المغلقة وأنتقل من جانب إلى جانب لأزيد مسافة المشي وفجأة على اليسار وبعد مسافة ليست طويلة وجدت أضواء مشعشعة وزحاما وحركة ومحل طويل زجاجي الجدران مضيء بأضواء ساطعة وعلي بابه لافتة «ماكدونالد» هاهنا أمريكا. هذا هو مطعم ماكدونالد الذي افتتح مؤخرا في موسكو لبيع الهمبورغر وهذا هو الزحام الذي تراه في البداية وفي العادة على كل ما يأتي من أمريكا. حدث

هذا في مصر بعد عام ١٩٧٣م حين بدأت فترة الانفتاح، وانتشرت محال ويمبي وكنتاكي فرايدتشكين هذه المحال التي أصبحت الآن خالية وقذرة أيضا. لأمريكا لون وطعم ورائحة دائما، هذه حقيقة قاهرة للبشر حتى الآن على الأقل، وهاهو ماكدونالد يختار شارع غوركي الكبير ليس لأنه كبير ولأنه في قلب المدينة ولكن ربما لأن غوركي هو الذي زار أمريكا وعاد يكتب «الحضيض». كان الخارجون من المطعم أكثر من الداخلين. حاولت الدخول فأوقفني الشرطي وتحدث وأشار بيديه فعرفت أن المحل يغلق أبوابه لكني رأيت نظافة العاملين ونظافة المكان كله ولما سألت أولغا فلاسوفا في اليوم التالي قالت إن صاحب المطعم عقد بعد الافتتاح مؤتمرا صحافيا عالميا داخل المطعم وفجأة شاهد أحد الصحفيين صرصارا يمشي أمامه ورآه في نفس اللحظة صاحب المطعم أو مديره فقال للصحافي بخبث نادر : ها أنت ترى كل شيء في موسكو يأتي إليّ حتى الحشرات : هل سيحدث لماكدونالد ما حدث لويمبي وكنتاكي في مصر؟ هل لن تجد بعد ذلك في المدينة غير الصراصير فقط؟ ذلك أمر يحتاج إلى وقت لنعرف ... وعدت أمشي في شارع غوركي. مشيت كثيرا ولا يقابلني إلا عدد قليل من الناس وبين حين وآخر يمر جواري « ترولي باص» وجنود الحراسة يمشون على مهل في معاطفهم الرمادية وأحزمتهم العريضة وقفازاتهم الرمادية أيضا وعصيهم القصيرة يهزونها بانتظام. وعدت ماشيا إلى ميدان مایاكوفسكي وقلت لنفسي هذه فرصة لأن أراه الآن بعد أن انقطعت الحركة في الميدان أو كادت. واقتربت لأرى ملامح الغضب على وجهه وفي ثنيات

معطفه أمام الريح الوهمية وتذكرت الغضب الذي أودي به إلى الانتحار وتذكرت انتحار يسينين أيضا الذي قال إننا من بعيد نرى الأشياء أوضح والذي جن بايزادورا التي كانت مجنونة بالرقص وبالشعر وعمرها ضعف عمره والتي تزوجها لأنهما معا كانا خارج الزمن. كانا أسبق من الزمن من عنفهما وثورتهما. كانا يعيشان زمنا من الشعر والجنون. تذكرت الكسندر بلوك ثالث المستقبليين الثلاثة. المستقبليون قبل الثورة والرفاق بعد الثورة ومرض الكسندر بلوك العضال وبيروقراطية الحزب التي أخرت علاجه وحين قررت كان الوقت قد فات. وبيروقراطية الحزب التي احتج عليها مایاكوفسكي بالانتحار وقصيدته المستقبلية الجبارة «سحابة في سروال» والترجمة الرائعة لحسب الشيخ جعفر عن الروسية والترجمة المصرية المغامرة للشاعر المصري رفعت سلام وترجمتي المتواضعة التي لم يقرأها أحد لأني ترجمتها لنفسي فقط وأنا في سن الثامنة عشرة عن الإنكليزية. ترجمتها لنفسي لأشم حرائق الثورة التي تنبأ بها مایاكوفسكي والتي لم أرها أبدا. مسكين أنا وأبناء جيلي لم نشاهد إلا إنكسار الثورات. مسكين أنا وأبناء جيلي لم نتنبأ إلا بالهزائم. وأخطأت أول وأخر مرة في موسكو إذ وضعت يدي في جيب البالطو فطرت في الفضاء لأقع على ظهري فوق الجليد الذي تجمد فوق الأرض فصار مثل ألواح الزجاج به نتوءات كثيرة بارزة قوية كالصخر الناشف. نهضت متألما. آلمني ظهري وربما لولا البالطو لأصبت إصابة قوية ومضيت إلى الفندق ولم أنظر جيدا إلى مایاكوفسكي وفي الفندق القريب قابلني زميلي الشاعر أبو دومة الذي كنت نسيته يضحك بشدة وسعادة الأطفال وقد رآني من نافذة الفندق وأنا أقع وقال لي إنه كان خلفي أتوبيس

كبير كاد يدهمني لولا أنني قمت بسرعة. وأخذتني الدهشة، كيف رأي الأتوبيس؟ لقد كنت تركت الشارع وصعدت إلى المربع العالي الذي يحوط التمثال والذي لا يمكن أن يصعد إليه أي أتوبيس لكني وجدته مصرا بشدة على أنني كدت أموت تحت العجلات فقلت إذن الحمد لله لقد نجوت بفضله من موت محقق يا صديقي، وتركني لينام. أمضيت أنا بعض الوقت قبل النوم فرحا جذلا مندهشا من رؤى صديقي الشاعر الجميل.

على العرب أن يمولوا منذ الآن

مشروعات الترجمة إلى الروسية

إيغور يرماكوف شاعر ومستعرب معروف في الأوساط العربية. في غرفته الصغيرة في الدور الثاني بمبني اتحاد كتاب وأدباء موسكو كان لقاء سريع. مبني اتحاد الكتاب كبير. قديم. يتوسطه تمثال لتولستوي الشيخ.

إنه المبنى نفسه الذي وصفه تولستوي في «الحرب والسلام». والمبنى ذو طلاء أصفر. كثير من المباني المهمة في موسكو ذات طلاء أصفر لسبب أجهله. وحديقة المبنى التي يتوسطها تمثال تولستوي مغطاة بالجليد.

في غرفة يرماكوف كثير من الكتب العربية : روايات وأشعار ومجلات. وهناك صور أيضًا لمعين بسيسو ومحمود درويش وعبد الرحمن الخميسي. ويرماكوف رجل عملي سريع التفكير وسريع الكلام، ومندهش أيضًا تبرق عيناه بالاستغراب من كثير من الأوضاع العربية أو حتى الاسئلة العربية. أخبرني بأن إحدى قصصي القصيرة مترجمة إلى الروسية. وأن

هناك عددًا من المقالات مكتوبة عن أعمالي كتبها المستشرق ديمتري ميكولسكي الذي يتعذر الاتصال به لانفصاله عن زوجته. ليس له مكان ثابت. وتحدث بسرعة عن وضع الترجمة الآن. أصبح أصعب من ذي قبل. بعد «البروسترويكا» سيقل الدعم الذي تقدمه الدولة لهذه الأعمال. لماذا لا يتقدم العرب لدعم مشروعات الترجمة: سيتم قريبًا ترجمة مختارات من أعمال الكتاب الفلسطينيين والإسرائيليين معًا. كتاب إسرائيل والأرض المحتلة. الكتاب الذي ينادي بالسلام من الجهتين... الآن تناقش في الاتحاد السوفيتي قوانين الملكية الخاصة. الفنادق مليئة برجال المال والأعمال من أوروبا وأمريكا. ولا أحد من العرب. هل يريد العرب أن يفعل لهم الآخرون كل شيء؟ دائمًا ينتظر العرب حتى تضيع الفرصة ثم يحاكمون الجميع. مازوشية. ربما لا يجب أن يلوم العرب أحدًا على التواجد اليهودي في الاتحاد السوفيتي. الاتحاد السوفيتي الآن يبحث عن طريق جديد. ربما هو طريق ثالث بين الاشتراكية والرأسمالية. طريق يحافظ على المنجزات الاقتصادية ويفتح الطريق للديموقراطية. حركة الدعوة للديموقراطية لا تهدأ في الجمهوريات وليتوانيا تسعي للاستقلال – أعلنت فيما بعد – وسيشهد الاتحاد السوفيتي قيام الأحزاب لأول مرة. أين العرب وسط هذه التغيرات؟ ولماذا لا يفكر العرب في قيام مؤسسة عالمية للاستشراق تجتمع كل عام أو عامين لمناقشة قضايا الترجمة والاستشراق. إن شيخًا واحدًا من شيوخ النفط يستطيع أن يتبنى هذا المشروع. ثم إن هناك مشروعًا لإصدار طبعة من مجلة «الأدب» السوفيتية بالعربية، طبعة تحتوي على الإنتاج العربي والسوفيتي من الأدب معًا. هل من يساعد في تمويل المشروع؟ سؤال قال

لي أن أطرحه على العالم العربي. هل تعرف معنى ترجمة القرآن الكريم وبيعه في جمهوريات الاتحاد السوفيتي مستر إبراهيم؟ كان هذا آخر استفساراته وتركته لأستعد للسفر إلى كييف ومعي زميلي الشاعر محمد أبو دومة. سألني ما رأيك في هذا الكلام. أجبت أن المشكلة الدائمة أننا نحن الكتاب لن نكون أبدًا ملوكًا ولا حكامًا ولا رؤساء جمهوريات. سنظل نسمع مثل هذه الأسئلة ونظل حائرين لا نملك إلا أن نعيد ترديدها علها تصل آذان أحد. فهل تصل فعلًا؟

قطار النهار

الرحلة إلى كييف شابها بعض التوجس.. تشيرنوبيل والإشعاع. هل لا تزال هناك بقايا للإشعاع؟ التليفزيون المصري بث منذ أيام خبرًا عن حالات السرطان التي بدأت تظهر على جلد الجيل الجديد من الأبقار في ريف أوكرانيا. وكيف لا ينصاع الفلاحون لأوامر السلطة السوفيتية ويظلون يذبحون هذه الأبقار ويبيعون لحمها ويأكلونه. لكن هل كان الخوف يمنعني من الذهاب إلى كييف عاصمة روسيا القديمة، مدينة التلال السبعة والكنائس والكاتدرائيات الباهرة؟ لقد نسيت خوفي كله بمجرد أن دخلت محطة السكة الحديد في موسكو بالليل لأستقل قطار النوم إلى كييف.

في المحطة ظلام. وسواد المعاطف والليل والأرض الرمادية والصمت الجليل للمسافرين. لمبات صفراء صغيرة خافتة مخنوقة ورائحة السكة الحديد التي تصاحب عمري كله. ولدت لأب يعمل في السكة الحديد بالاسكندرية. طفت في الصحراء الغربية حتى السلوم على الحدود مع ليبيا.

أما الصحراء الشرقية فكنت أكتفي بحكاياته هو عن القطار الذي يصل إلى غزة. ومن قبل كان يصل إلى قلب فلسطين. ومات أبي وظلت رائحة السكة الحديد وحكاياته في روحي. وحين رحلت إلى القاهرة سكنت في منطقة إمبابة جوار خط سكة حديد الجنوب. كنت في طفولتي أعظم من يقفز إلى القطارات ومنها. ودائمًا لا تفارقني رائحة المازوت الساقط بين العوارض وفوقها وبين القضبان. لكنني الآن سأركب القطار الروسي أشهر القطارات في تاريخ الأدب. لكن هل أخدع نفسي إلى هذا الحد؟ سأركب الآن قطارا مكيفا جميلا أنا وأبو دومة وأولغا فلاسوفا.

في غرفة القطار الصغيرة الأنيقة ذات السريرين جلست أنا وأبو دومة، في العودة ستكون الغرفة ذات أربعة أسرة وسيكون معنا فاديم الذي أرجئ الحديث عنه. في القطار السوفيتي لا يوجد حجز مستقل للنساء وآخر للرجال وربما في أوروبا كلها. لم أسافر إلى أوروبا من قبل ولا أعرف.

لم يكن من الممكن النوم تلك الليلة ليس لأن الراديو يبث في غرفة القطار المناقشات الحامية في الكرملين حول الجمهوريات المتمردة. ولا لأننا لا نعرف كيف نطفئ هذا الراديو. لكن لأنه كان لا بد أن أخرج من الغرفة لأدخن سيجارة في نهاية العربة. وحين خرجت رأيت. ويا هول ما رأيت. ليل أبيض شديد البياض على جانبي القطار. التلال بيضاء والغابات منبسطة ترتفع هامات أشجارها السوداء السامقة فوق بساط أبيض لا ينتهي. بياض شاهق تكاد تسمع له صوتًا يدعو للسكينة والوداعة والأحلام. أنا مبهور بالشتاء الروسي. قلت لنفسي وأنا أتأمل أشجار الكستناء والميلاد العالية العارية. وأتذكر ليالي دوستويفسكي البيضاء فكيف إذن أنام؟ لكني

نمت ساعتين. من الخامسة صباحًا حتى السابعة. شبعت من بياض الدنيا وسكون القطار ومن الذكريات التي راحت تتري في ذهني. وقلت أنام ساعتين لأستطيع التجوال بين تلال كييف وكنائسها وأتفرج على وجوه فتياتها ونسائها اللاتي لم يخلق الله مثلهن في الوداعة والجمال الباهر لكننا لم نمض في كييف إلا ليلة واحدة لسوء الحظ. شاهدنا بالنهار متحف شهداء الحرب الثانية المفتوح في الهواء وتمثال «أم الأبطال» الضخم الشاهق الارتفاع ومتحف شيفيشنكو شاعر أوكرانيا العظيم ورسامها العبقري الذي كان «قنًا» اشتراه فنانو بطرسبرج «لينينجراد» وأعتقوه لكنه لم ينعم كثيرًا بالحرية في السادسة والعشرين دخل في صدام مع القيصر نيقولا الثاني. رسم له صورة كاريكاتورية شوهاء. فسجنه القيصر في سيبريا عشر سنوات ليعود شيخًا عجوزًا ولم يبلغ الأربعين بعد ويموت.

في كييف وفي مقر اتحاد الكتاب الأوكرانيين التقيت مع البروفيسور ميكيتينكو رئيس تحرير أكبر مجلة أدبية في أوكرانيا الذي راح يتحدث عن العلاقات القديمة بين أوكرانيا وروسيا القديمة والبلاد العربية وانا تحدثت عن المشاريع السوفيتية العظيمة في مصر والتي كان لي الحظ أن أعمل في أحدها في مطلع شبابي لألتقي بخبراء من أوكرانيا ومن لينغراد ومن أكثر من مكان في الجمهوريات السوفيتية. ثم حدثته عن الروس الذين هربوا إبان الحكم القيصري وجاءوا إلى مصر وأقاموا في الإسكندرية وأنشأوا أول وآخر جريدة في القطر المصري باللغة الروسية وعن الرسائل القديمة المتبادلة بين الشيخ محمد عبده وتولستوي الذي صور القوزاق على حقيقتهم كرجال أحرار. والذي كان مشروعه العالمي للسلام في رسائله إلى صديقه المصري وإلى غاندي أيضًا. وقلت له إن أولئك الروس

الهاربين أسموا جريدتهم «أسكرا» أي الشرارة وأن هذا الأسم أطلقه أحد الأحزاب الشيوعية المصرية المبكرة على نفسه. لكن الرجل وغيره لم يكن يريد الخوض في ذلك. وقلت له إننا نتحدث عن الآمال الكبيرة للشعوب. لا عن أحد بالذات. كان هناك حزن على الوجوه وكنت أفكر كيف استطاع هذا الشعب أن يعيش رغم كل ما مر به من ظلم وحروب ومؤامرات.

لقد كان في اللقاء أيضًا أكبر شاعر أوكراني الآن فاديم سكودا الذي لم يبلغ الخامسة والأربعين بعد والذي سيكون لنا معه حديث مستقل. وكانت المستعربة أولفا فلاسوفا تترجم الحديث بيننا لثلاث ساعات فأرهقت إرهاقًا كبيرًا. لقد وجدتهم في كييف يعرفون الكثير عن شعرائنا وأدباءنا الكلاسكيين. لكنهم يعرفون القليل عن الأجيال الجديدة والقليل جدًا فكانت فرصة لي ولأبي دومة أن نتحدث بأسهاب عن خريطة الرواية والشعر العربي الآن.

فاديم وفاديم

فاديم الأول هو فاديم سكودا واحد من أكبر شعراء اوكرانيا الآن. وفاديم الثاني هو طالب جامعي ولاعب كونغ فو ورفيق قطار الليل في العودة إلى موسكو. لقد أمضينا في كييف ليلة واحدة وعدنا في مساء اليوم التالي ولم نشبع بعد من المشي والجري في شوارعها المنحدرة حيث بنيت المدينة على تلال سبعة وبينها، ولا من تباشير خضرة الربيع حيث يذوب الجليد في كييف مبكرًا عن موسكو، ولا من السكون المشبع بالجلال داخل الكنائس التي لاتهدأ حولها الحركة. حركة الزائرين السواح وحركة الزائرين من أهل

المدينة الذين أتو بالشموع للزواج ولطلب الرحمة للموتى. يخيل اليك في كييف أو موسكو أن كل الناس تزور الكنائس الآن وحركة ترميم الكنائس واضحة في كل مكان. وفي موسكو يجمعون التبرعات لاعادة بناء كنيسة المسيح المخلص التي هدمها ستالين وأقام محلها حمام سباحة. والمثير – لي على الأقل – في الكنائس التي دخلتها كان وجه المسيح. ليس هو الوجه الشاحب في الأيقونات الأوربية ولا المصرية أيضًا، هنا وجه المسيح أكثر امتلاء وإشراقًا ونورًا. مسيح عليه مسحة من فلاحي الريف الأوكراني.

لم نشبع من تباشير الخضرة ولا ذوبان الجليد ولا صعود التلال ولا رؤية المتاحف ولا الحديث العفوي العابر مع بولا وأولا وغيرهما من الفتيات والسيدات في الفندق والطرقات من اللاتي يحلمن بزيارة أمريكا وكندا. ولا من الأحاديث السريعة المتوترة مع إيغور الذي استقبلنا عند وصولنا أو إيغور الثاني الذي جاء يوصلنا للقطار عند رحيلنا.

و لما كدت اسأل إيغور الثاني عن سر انتشار اسم إيغور تذكرت الملحمة الروسية القديمة عن حملة الأمير ايغور على الغزاة من قبائل القفجق وكيف قام بالحملة كلها لأنه فاته أن يشترك مع أمراء روسيا في الحملات السابقة فذهب وحده بدافع من تأنيب الضمير ليلاقي هزيمة كبيرة وتأسره القبائل وتصبح حملته تراجيديا يونانية بكل معني الكلمة. لقد كان الأمير إيغور من هنا، من أوكرانيا وكانت حملته في القرن الثاني عشر الميلادي لكن كلا من «الإيغورين» اللذين قابلناهما كانا على عجل لأنهما يعملان في الجمعيات الشعبية الكثيرة التي انفجرت في كل مكان تطالب بالديموقراطية.

كان فاديم الأول هو الشاعر فاديم سكودا كما قلت. أتى الينا في الفندق في الساعة الرابعة بعد الظهر يوم رحيلنا يحمل كيسًا من البلاستيك داخله زجاجة من الفودكا وشريط طويل من السجق وعدة أرغفة محشوة بلحم البقر وبطيخة صغيرة مملحة وقال إنهم في اوكرانيا يحبون أن يأكل الضيوف من عيشهم وملحهم.

اعتذر لنا عن ضيق الوقت الذي لم يعطنا الفرصة لنرى الريف الأوكراني وكرم فلاحي أوكرانيا وتكلم عن أحلامه الكبيرة في دراسة مقارنة بين الفولكلور الأوكراني والمصري خصوصًا. وكنت طول الحديث مبهورًا من دخوله علينا بالكيس البلاستيك البسيط وبالطعام البسيط والرغبة البسيطة الجميلة أن يقاسمنا الخبز والملح. لقد تعبت اولغا فلاسوفا من الترجمة بيننا لأننا اندفعنا انا وهو في حديث طويل من القلب بعد أن تركنا الشاعر أبو دومة ليشتري غطاء رأس «شبكة» روسية. لكن أولغا الرقيقة تحملت عناء الترجمة كلها لثلاث ساعات كاملة.

مما يبهر فاديم اسكودا أن تعداد جمهورية اوكرانيا حوالي اثنين وخمسين مليونًا وهو رقم قريب من تعداد جمهورية مصر. ومما يبهر فاديم اسكودا أن تاريخ المصريين يمتد للوراء لخمسة آلاف سنة وأكثر ومما يوافق عليه فاديم السلام في الشرق الأوسط. السلام الرديء أفضل من حرب بلا طائل. هكذا قال أكثر من شخص قابلته. ولأني كنت ألمح إحساسهم بأنهم ضحوا كثيرًا من أجلنا وغيرنا من شعوب العالم الثالث كنت أسكت بعد أن كنت أقول إنه لا أحد يكره السلام ولكن العدل هو المطلوب ولا معنى للسلام دون عودة الحقوق العربية وقيام الدولة الفلسطينية. وقلت

لفاديم « الثاني» في القطار وكنا أربعة في غرفة واحدة. أنا وأبو دومة وأولغا فلاسوفا وهو: إن النزوع إلى الديموقراطية في الاتحاد السوفيتي يكون خطيرًا إذا أدى إلى استقلال الجمهوريات المتمردة. أن الغرب يذكي هذا النزوع ليحدث التفكك المخيف للاتحاد السوفيتي. لكنه سكت ثم قال: لتذهب لاتفيا وليتوانيا وأستونيا وغيرها إلى الجحيم. إنها جمهوريات لا معني لها. إن شعوب الجمهوريات الجنوبية في الاتحاد السوفيتي تعيش في وضع أفضل من شعوب روسيا القديمة لأنها تحافظ على دخلها القومي وتأخذ نصف دخل روسيا أيضًا. لقد كلفتنا كوبا وأنغولا وغيرهما الكثير. هكذا قال أيضًا. وتأملته هو الصغير ذو العشرين عامًا تقريبًا. وبدا لي شديد الثقافة والذكاء. كان يتحدث معي بالإنكليزية مباشرة ومع أولغا فلاسوفا بالروسية. وهو الأوكراني. ومع أبو دومة بالمجرية – أبو دومة حاصل على دكتوراه في المجر، وتذكرت الشخصيات المضطربة شديدة الذكاء عند ديستويفسكي. رغم أنها ليست أوكرانية. وكان فاديم أيضًا مولعًا بالباراسيكولجي ولديه عناوين العرافات في موسكو وكييف. وختم فاديم الصغير الحديث بقوله لقد قتل ستالين ثلاثين مليونًا. وقتل النازي في الحرب عشرين مليونًا من الشعوب السوفيتية. إن أجمل الناس ماتوا بين ستالين والحرب ولم يبق إلا الصراصير ونحن أبناء الصراصير. كان قاسيًا في تعبيره لكنه كان ممتلئًا بالحزن والغضب.

***

نحن الآن في موسكو وفي فندق آخر، فندق روسيا الضخم الواقع في مركز المدينة أمام الكرملين ويتكون من اثني عشر طابقًا وفي كل طابق سبعمئة غرفة، يا إلهي! يقولون إنه احترق من قبل وعليك أن تتخيل كيف كان الحريق. للفندق أربع بوابات لو ضللت الطريق ودخلت من واحدة غير التي تأخذك لغرفتك لوجدت نفسك في متاهة بين الغرف والطوابق، ذلك حدث معي كثيرًا في مطعم الفندق الكبير، في جناحنا الشرقي ترقص بالمساء وتغني فرقة موسيقية ترتدي ثياب مادونا الأمريكية، وأمام الفندق زحام من سيارات التاكسي التي سمح لها بحرية العمل فتركت الشوارع وجاءت تبحث عن السياح.. إن ميزة هذا الفندق الوحيدة أنه قريب من الكرملين، فكنت في المساء وبعد كل عشاء أخرج إلى الميدان الأحمر لأتفرج مع المئات من السياح وأهل موسكو على تغيير حرس متحف لينين حيث يثوي جثمانه المحنط الذي لم يفسد بعد. . تغيير الحارسين يتم كل ساعة يقفان خلالها بلا حركة ولا نامة وهما في العادة شديدا الشبه ببعضهما في الوجه والجسم وبالطبع الملابس والسلاح. لقد ظننت في البداية أنهما تمثالان من الشمع. كانت مشكلتي أمام الكرملين هي التصوير. لقد انتهت بطارية الفلاش معي ولم أجد في موسكو كلها بطارية فلاش، ثم انتهى الفيلم أيضًا فأصابني الغيظ. إن أجمل الصور أمام الكرملين هي تلك التي تأخذها بالليل وليس بالنهار حيث تسقط الأضواء المعلقة أعلى محل ((غوم)) الضخم على جدران الكرملين وقبابه الحمراء فتصبح قطعة ساحرة من الجمال. هذا هو الكرملين الذي أراد نابليون هدمه والحمد لله أنه لم يفعل. هذا هو الكرملين الذي بناه القياصرة وحاول ستالين أن يبني

ما هو أعظم منه فبنى سبع عمارات شهيرة في موسكو على الطراز نفسه يقولون الآن إنه بناها بالمعتقلين السياسيين وإنها جاءت شديدة الإتقان لأن أي خطأ كان كفيلًا بأن يجعل الحرس يلقون بصاحبة من أعلى. طبعًا لم يفسر لنا أحد ماذا كان يحدث حين يتم الخطأ في الأدوار الأولى!

أمام الكرملين أكثر من مصور يعلق لافتة أنه مقابل اثني عشر روبلًا يصورك ويرسل اليك الصورة في بلدك أينما كنت في العالم وكعادتي أشك في هذه الأشياء حاولت أن يصورني ويعطيني الصورة في اليوم التالي لكنه طلب مئة دولار. كذا. وقلت له سأعود مرة أخرى ومعي كاميرا لا ينقصها شيء ومن يدري قد يحدث ذلك حقًا.

الدهشة مستمرة

بدأ الجليد يذوب، انتهت العاصفة الثلجية وارتفعت الحرارة فوق الصفر ومشت مياة جداول صغيرة على جانبي الشوارع وأمضينا يومًا في ضاحية ((زاجورسك))، حيث الكنائس العتيقة ووفود السياح والأعراس ويوما آخر في متحف بوشكين بقلب العاصمة. نماذج الرسوم والمنحوتات من كل بلاد العالم شيء رائع حقًا ولكنها لم تدهشني كما أدهشني القسم المصري الخاص بالعصر القبطي كيف وصلت هذه اللوحات والأيقونات إلى موسكو! لابد أن مثلها أضعافًا في المتاحف الأخرى. كيف لا نعرف الكثير عن أولئك الفنانين المصريين القدامى من العصر القبطي. وفي نفس اليوم الأحد، الخامس والعشرين من شباط (فبراير) كانت مظاهرة ضخمة منظمة قريبة من المتحف. مظاهرة تضم ربع مليون مواطن سوفيتي أغلبهم من موسكو. لم يكن من السهل أن نترك المظاهرة دون أن نطل عليها بعض

الوقت. لقد سبق وتم الإعلان عن هذه المظاهرة من قبل. وحين ذهبنا وجدنا الميدان الكبير محاطًا بقوات الأمن من كل الأزقة، واحتاج المرور أن نتحدث إلى أحد الضباط الذي لم يسمح لنا بالعبور لكننا اقتربنا بقدر الإمكان. كان أعلى الأصوات يعيد تقيم الثورة البلشفية كلها، وأوجز ثورة تشرين الأول (أكتوبر) في أنها انقلاب بلشفي بعد أن كان القيصر نيقولا الثاني تنازل عن الحكم في شباط (فبراير) من عام ١٩١٧م وبشكل ديموقراطي لقد وعد البلاشفة الشعب بوعود خيالية براقة.

الأرض لمن يزرعها والمصانع للعمال ثم لم يحدث ذلك أبدا. .. هل كان أحد في الدنيا يحلم بأن يسمع في قلب موسكو ذلك؟ لقد أمضينا اليوم نتحدث أنا وزميلي الشاعر محمود أبودومة في ما نسمعه ونراه كل يوم، وحين تغدينا في نادي اتحاد الأدباء في اليوم التالي ا لتقينا مع الشاعر شوكت نيازي رئيس اتحاد الأدباء في طاجكستان الذي جاء يرانا ويعتذر عن عدم قدرته على اصطحابنا إلى طاجكستان بسبب الاضطرابات هناك لكننا حين ذهبنا لإلقاء محاضرة نظمتها لنا عزة الخميسي مع اتحاد الكتاب في جامعة باتريس لومومبا عرفنا أننا أول أديبين مصريين يدخلان هذه الجامعة منذ إنشائها. لم نصدق. كنا نظن أن كثيرًا من المصريين تعلموا في هذه الجامعة خاصة أيام الناصرية. قيل لنا لم يحدث ذلك، كل من أتى إلى الاتحاد السوفيتي كان يوفد إلى جامعة موسكو أو غيرها في إحدى الجمهوريات لكن باتريس لومومبا لم يدرس فيها أحد. لم يدرس أحد في جامعة الشعوب. ظلت بالنسبة إلى مصر في كل العهود مكانًا لتخريج الكوادر الشيوعية. مكان مخيف ،ولذلك حتى لا يوجد بها كتب أدبية مصرية.

لا روايات ولا أشعار لأحد. طيب. إذا كان هذا حدث مع الحكومات كيف لم يقدم أي أديب من الذين زارو موسكو كثيرًا كتبًا لهذه الجامعة؟

ما علينا من أسف. لنبدأ المحاضرة، كانت لقسم اللغات الشرقية، طلاب من السوفيت الذين سيصبحون فيما بعد مستعربين. ودار حوار طويل حول الرواية والشعر. والرواية والشعر الفلسطيني، وأيضًا كامب ديفيد والانتفاضة الفلسطينية. لكنني ظللت مندهشًا من أننا أول أديبين عربيين يدخلان هذه الجامعة.

وزالت الدهشة بالليل حين عزمنا نيقولاي تشير كاشن. واحد من أبرز الروائيين السوفييت الآن. رواياته كلها تدور في عالم البحار وعادة ما تنزع إلى التسجيل، فهو يتابع الكوارث البحرية ويحولها إلى مواقف إنسانية، مواقف للتحدي والإرادة الإنسانية كان كرمه فائق الحد على بساطته. اعتذر لنا بلباقة عن صغر حجم البيت السوفييتي ونحن نتناول العشاء في ركن من المطبخ معه وزوجته وصديقه وصديق لهما يعملان بالسينما، مخرج وزوجته من طشقند لقد غنت لنا ابنته نيقولاي الصغيرة أغنية مدرسية بالإنجليزية، وشعت ابتسامات زوجته في المكان شعورًا بالبهجة، وقرأ علينا نيقولاي بعض آيات القرآن الكريم فقلد كان ظابطًا بحريًا وطاف بكثير من البلاد العربية، الموانئ العربية ويحب الإسكندرية وبورسعيد لقد جاء إلى الإسكندرية ضمن القوات البحرية التي جاءت تحرس الشواطئ المصرية خلال حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣م.

وهو يعد نفسه لكتابة رواية عن الأسطول السوفييتي التي غرقت إحدى قطعه الكبيرة أمام شواطئ بورسعيد عام ١٩١٦م وهو أيضًا سمى ابنه ذي الثماني سنوات باسم عربي هو «سعيد» وهو مشغول بعمل سيناريو

مع صديقه المخرج الذي معنا على العشاء عن أحد جنرالات البحرية السوفييتية الذي قاد تمردًا بحريًا ضد بريجنييف عام ١٩٧٥م وتم إعدامه. للأسف نسيت اسم هذا الظابط الجسور الآن وضاعت مني المفكرة التي بها اسمه، قلت له وللمخرج الشاب أتمنى أن يكون لفيلمكما من الشهرة ماكان ولايزال إيزنشتين المدرعة بوتو مكين. ذلك كان عن مدرعة مشهورة في ثورة مشهورة عام ١٩٠٥م وهذا عن مدرعة مغمورة وضابط لم يسمع به أحد ولكن الظروف اختلفت الآن.

وقد يكون لفيلمكما نفس الشهرة وانتهت الليلة بقصائد من الشعر لصديقي محمد أبو دومة وعزف على الجيتار لنيقولاي تشيركاشن وكانت ليلة نادرة.

في صباح اليوم التالي التقينا بمعهد الاستشراق مع المستشرقة الكبيرة فاليريا كيربتشكا ورفيقاتها من المستشرقات. فاليريا تعرف الكثير عن الأدب العربي عامة والمصري خاصة ولها كتاب مميز عن القصة والرواية المصرية، وزميلاتها من الجيل الجديد يتابعن حركة الشعر الحداثي الجديد وواحدة منهن تعد كتابًا عن الرواية في سوريا ولبنان. والتقينا أيضًا بكونستانتين تشو جونوف رئيس تحرير مجلة الآداب الأجنبية التي ترجمت مؤخرًا رواية نجيب محفوظ (أسعد الله مساءك) والذي أبدى رغبة طيبة في تلقي الأعمال الأدبية المصرية الجديدة، ورحنا ننتقل من مجلة إلى مجلة ومن مكان إلى مكان محاطين دائمًا بود نادر حتى كانت الليلة الأخيرة.

اللقاء الأخير

في ليلتنا الأخيرة بموسكو أحسست أن زيارتنا كانت قصيرة، وخرجت أنا وأبو دومة لنلقي نظرة أخيرة على الكرملين.

كانت الساعة الحادية عشر ليلًا ونحن لا ندري. لم يكن هناك أعداد كبيرة من السياح كانت هناك نسمة باردة كأنما العاصفة التي استقبلتنا ستعود وتودعنا، لكننا لاحظنا أن هناك شابين في العقد الثاني من عمريهما ينظران إلينا ويبتسمان وليس صعبًا أن تتعرف على أحد في موسكو. يكفي أن تبتسم فيبادلك الابتسام وتتحدث فتجد قلبه مفتوحًا للحديث معك رجلًا كان أم امرأة شابًا أو فتاة. بسرعة تحدثنا معهما كان أحدهما يتحدث الإنجليزية بصعوبة لكن بوضوح وقواعد سليمة أسمه أصلان هكذا... طلبت منه أن يعيد الاسم فضحكت تذكرت صديقي الكاتب إبراهيم أصلان وكذلك حدث لأبو دومة فانطلقنا نضحك ماذا كان يحدث لو كان إبراهيم أصلان معنا كانت تكون مصادفة جميلة، سألته هل أنت من موسكو كنت أخمن أنه من بعيد وقال إنه ليس من موسكو وإنما من إحدى جمهوريات البحر الأسود الصغيرة. قلت هذا سر اسمك. أن أصلان هي في الأصل أرسلان التركية هكذا قال لي إبراهيم أصلان يومًا نقلا عن يحيى حقي. قال الشاب ربما فالأتراك احتلوا بلادهم يومًا ما وجمهوريتهم نصفها مسلمون ونصفها مسيحيون، وهو مسيحي وزميله مسلم واسمه آلان وضحكنا وكان آلان لا يعرف الحديث بالإنجليزية فبدا خجلًا وزميله يترجم لنا حديثه قال أصلان إنه يقوم بدراسة مقارنة بين أسلوب همنغواي وتورجنيف ولما عرف أننا

أدباء فرح كثيرًا وفرحنا نحن أيضًا.

دعوانا إلى سهرة معهما في الفندق. كان ينزلان في نفس فندق روسيا، والغريب أنهما كانا ينزلان في نفس الطابق الذي نزلنا نحن فيه.

في غرفتهما لم نتحدث في الأدب قالا لنا إنهما في بلادهم يحترمون الأكبر سنًا ويقدمون له أجمل ما عندهم كرمًا وتقديرًا ولكنهما الآن في موسكو ليس لديهما غير الفودكا والبيبسي كولا وأنهما يأسفان جدًا لأنه لا يوجد شيء آخر لقد بدوا لنا مثل كل من قابلناهم يتحدثان بطيبة مذهلة، وتحدثا ولكن عن أحوال الناس. لم يختلف حديثهما عن كل ما سمعناه في الطرقات أو القطارات أو المظاهرة. الاختلاف كان في آلان وحده لقد صمم أن يتحدث بالروسية التي لا نعرف منها إلا كلمات قليلة وقال إننا سنفهم ما يقول رغم فارق اللغة، كان يتحدث بحماس وانفعال وقوة وكنا نفهم ما يقول ونفاجئه بفهمنا حين نعيد ما قاله بالإنجليزية فيترجمه له أصلان فيصفق طربًا إذ إننا فهمنا بالضبط، كانت مشكلة آلان أنه يبحث عن ديانة، أنه مسلم ولكنه يحتاج إلى وقت طويل حتى يزيح التراب التي سببته سبعون سنة من الحكم البلشفي.

«باريس لأول مرة»

مكان قديم في القلب

ما الذي تشكله باريس لكاتب مثلي لم يرها من قبل. بل لم ير من أوروبا كلها إلا موسكو وكييف وفيينا بسرعة، أو طياري بلغه المرحوم حسين فوزي؟

باريس قراءة متراكمة. حقا، لكنها أيضا حلم مراوغ. ليس فينا، معشر الكتاب، من لم يحلم بباريس، وليس مهما بعد ذلك أن يحبها أو يكرهها. وفي مصر نعرف باريس منذ الطفولة الباكرة.

«اتجهت السفن سرا من ميناء طولون على البحر المتوسط لتصل إلى الإسكندرية في غفلة من الأسطول البريطاني الذي كان يبحث عنها لتدميرها، واستولت الحملة الفرنسية على الإسكندرية بعد مقاومة من أهلها ومحافظها محمد كريم، ثم اتجهت الحملة إلى القاهرة فهزم نابليون وجنوده المماليك وفر مراد بك إلى الجنوب وإبراهيم بك إلى الشام ودخل نابليون القاهرة زاعما أنه جاء لتأديب المماليك والحقيقة أنه جاء يقطع طريق إنجلترا إلى الشرق وطامعا في تكوين إمبراطورية فرنسية».

تلاحقنا منذ الطفولة الأسئلة عن أسباب الحملة الفرنسية ونتائج الحملة الفرنسية وثورات المصريين وفضل شامبليون في اكتشاف أسرار اللغة الهيروغليفية. . ما أعجب فرنسا هذه في الوجدان المصري. ننسي أن الحملة الفرنسية كانت أول مظهر من مظاهر الاستعمار في العصر الحديث، ونذكر دائما أنها كانت بداية اليقظة القومية والوطنية وأنها فاجأتنا نحن المتخلفين في ظلام العصور العثمانية بالعلوم الحديثة التي لا تزال تدهشنا. وما أعجب فرنسا هذه، فنعرف كيف احتلت المغرب العربي وقسوة

الاستعمار الفرنسي – رقم المليون شهيد الجزائري فيه من قسوة الاستعمار قدر ما فيه من استبسال الجزائريين – لكننا ننسي دائما دورها الاستعماري، ولا ننسى أبدا كتاب رفاعة الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، وأثره الفكري والسياسي على النخبة المصرية، ولا ننسى رفاعة نفسه الذي لولا ذهابه إلى فرنسا ما ساهم المساهمة الكبرى في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي ولا ننسى نهضة محمد على الذى اتكأ بقوة على الفرنسيين «الكولونيل سيف – السان سيمونين – البعثات إلخ «ولا ننسى مفكرينا الكبار وأدبائنا من نوع طه حسين وحسين هيكل وتوفيق الحكيم ... وما أعجب فرنسا هذه دائما. يفتننا في مشروع قناة السويس غرام إسماعيل باشا بأوجيني وننسى ظلم شركة قناة السويس نفسها وتعسفها وتحكيم نابليون الثالث الظالم وما جلبته القناة على مصر من وبال. . وهكذا يظل هذا اللغز غير مفهوم، مستعصيًا على الحل، في أمر باريس وفرنسا منذ ظهور الفرنسيس على مسرح العصر الحديث حتى حرب الخليج، رغم أننا خسرنا الرهان على باريس.

بهذا الإحساس ذهبت إلى باريس. إحساس لم أسع إليه. بل فطنت إليه بعد عودتي. ولكم أدهشني ذلك. وأدركت أنه لا معنى لمحاولة فهم ذلك اللغز. باريس مدينة لها في القلب مكان وكفي.. ورغم كل ما قرأته عن باريس أو رأيته في السينما فحين تتاح الفرصة لرؤيتها يبدو الأمر كأنما كان حلما بعيدا وتحقق. حلما جميلا، ولا يهم إذا خاب سعيك فيها أو طاب. هكذا تلقيت الدعوة الكريمة من معهد العالم العربي لقضاء أسبوع في باريس في شهر مايو من هذا العام ١٩٩٢م، بالضبط في الفترة من الثامن

عشر حتى الخامس والعشرين من الشهر المذكور، وللاشتراك في ندوة عن الرواية المصرية مع عدد من ألمع كتاب الرواية المصريين هم شيخنا إدوار الخراط وصنع الله إبراهيم وبهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم وإبراهيم أصلان.. لقد كان جميلا بحق من «بدر الدين عرودكي «و» فاروق مردم بك أن لا يحملانا أكثر من الاشتراك في ندوة واحدة، فأتيح لنا من الوقت قدر طيب نستطيع فيه المشي في باريس. كنت مشتاقا لرؤية عدد من الشباب الكتاب، ربطت الصداقة بيني وبينهم عن بعد، أو عبر لقاءات سابقة في بغداد والقاهرة، شربل داغر والحبيب السالمي وعيسى مخلوف وخميس خياطي وكاظم جهاد والشاب الوديع جميل حتمل، لقد بدا لي بعد حرب الخليج أنني لن أرى أحدا ممن عرفت أبدا بعد ذلك.

هكذا شملني إحساس عارم. ولما قابلتهم في اليوم التالي لوصولي، أحسست كما لو كنت أراهم كل يوم. شعور غريب حقا. مشاعر كثيرة اكتشف أنها كانت كاذبة وتسببت فيها حرب الخليج. على أي حال الكذب في هذه الحالة كذب المشاعر، أمر طيب فليس أجمل أن تري أصدقاءك فتشعر أنهم لم يكونوا بعيدين عنك. لذلك تركت لجسدي أن يحقق مطالبه. ولم تكن غير المشي في باريس. لم أعد قادرا منذ اليوم الثاني لوصولي على الجلوس في مكان واحد أكثر من دقائق. تركت جسدي ونفسي للشوارع تسلمني للشوارع.

عن المشي

كان الدكتور ثروت عكاشة معنا على الطائرة نفسها التي أقلعت من القاهرة ظهر يوم الإثنين الثامن عشر من مايو. كان مدعوا مثلنا من معهد

العالم العربي لكن كشخصية ثقافية بارزة تشارك في افتتاح معرض الكتاب الذي سيقام لمدة أسبوع. كنت أعرف ذلك وكنت قررت أن أذهب إليه بالدرجة الأولى حيث يجلس لأقدم إليه روايتي الجديدة «البلدة الأخرى» وأقدم إليه نفسي. وقلت إنه سيكون لدي أربع ساعات كاملة هي تقريبا زمن الرحلة من القاهرة إلى باريس وهي فرصة طيبة للحديث مع مثقف وفنان كبير مثل الدكتور ثروت عكاشة. لكن الذي حدث أني لم أفعل ذلك؟ لماذا حقا لم أفعل ذلك وأنا من عشاق كتابات الرجل الأدبية والفنية ومن العارفين تماما بفضله على الثقافة المصرية أيام كان وزيرا مسؤولا. مولع أنا بتضييع الفرص مولع بذلك بالمعنى العميق للكلمة. لم يكن هناك في رحلة كهذه أجمل من فرصة اللقاء بثروت عكاشة لكن هذا ما جرى. والغريب أني لا أشعر بأي ألم على ضياع الفرص، كما لا أفرح حين أغتنمها تتساوى لدى الذاكرة والنسيان ميت يمشي في حي، أو حي يمشي ميت. هكذا أشعر حين أنسى ما قررت أن أتذكره بشدة. ما الذي فعل بي هذا؟ وهل كل الذين ولدوا مثلي في النصف الثاني من الأربعينيات يتساوون معي في هذه الحال؟

لكن أعود لأحدثك عن المشي الذي انتفض له جسدي بعد هبوط الطائرة إلى أرض مطار أورلي. لن أحدثك عن دهشتي البالغة وأنا أرى أرض فرنسا الخضراء كلها من الطائرة لن أعيب على بلدي أنها صحراء. هكذا خلقها الله ولن أعيب على أهلها أنهم يتركونها صحراء. هكذا خلقهم الله أيضا!

بعد نصف ساعة من خروجنا من المطار وصلنا إلى فندق صغير لا بأس به هو فندق رويال كاردينال الذي يحمل رقم واحد «بشارع المدارس» ري ديزيكول هو إذن فندق لا يمكن أن ينسى برقمه واسمه وموقعه. نزلت أنا بالغرفة رقم «٣٨» وأصلان بالغرفة رقم «٤٠» ونزل إدوار الخراط بفندق آخر قريب منا لم أستطع أن أحفظ اسمه، ونزل صنع الله إبراهيم الذي كان قد سبقنا بيوم في فندق بعيد جدا. ولم يبق إلا بهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم اللذان سينزلان معنا في نفس الفندق كما قيل لنا.

يحدث في مثل هذه الحالات أن الإنسان يجب أن يرتاح قليلا، ويغير ثيابه بعد أن يأخذ حماما ساخنا. وماكدت أشرع في ذلك حتى سمعت طرقا على بابا الحجرة. فتحت لأجد أمامي جميل عطية إبراهيم. لقد وصل قبلنا إذن وعرفنا أنه ينزل في الغرفة رقم «٢٤» يحدث في مثل هذه الحالات أيضا أن يفرح الإنسان باللقاء وتستطيع أن تضيف إلى ذلك أن الفرح بلقاء جميل عطية إبراهيم يكون مضاعفا. يتميز جميل بين الأدباء المصريين بالبساطة المذهلة والصدق النادر وكان أول سؤال بادرني بي هو هل معك سجائر كليوباترا؟.. هكذا قبل أن نجلس.

بعد دقائق كنا، جميل وأنا وأصلان، نترك الفندق، يصحبنا جميل إلى الحي اللاتيني القريب جدا كما عرفنا منه. لقد بدأنا المشي أو خيل إلى ذلك لكن الذي حدث أننا لم نمش كثيرا. انتهى المشي بسرعة تلك الليلة. كنت أنا سارحا في عدد السنين التي مرت منذ قرأت رواية سهيل إدريس «الحي اللاتيني» ربع قرن وربما ثلاثون عاما. لا أقل من ربع قرن على أي حال. وقال لي جميل إن الحي اللاتيني يسمى الآن بالحي العربي لكثرة الطلاب

العرب بالسوربون وجامعة باريس لم أحاول التحقق من هذه المعلومة التي سمعناها من كل شخص تقريبا. ما معنى أن يحاول الإنسان التحقق من معلومة لا تفيد. لقد انتهى الزمن الذي كان فيه المثقفون يذهبون إلى باريس ويعودون لبعث الهمة والنهضة في شعوبنا العربية. الآن يعودون ليسوفوا على الشعوب ويرشدوا الحكام لأسهل الطرق لتضليل الشعوب، ويكرهون الشعوب. وما كدنا ندخل شارع سان ميشيل ونقترب من المقاهي والمطاعم التي يحفل بها الحي اللاتيني حتى فاجأني جميل برغبته الثانية وهي أن يأكل طعمية فلافل – مصرية. كان سؤاله الأول في الفندق عن السجائر كليوباترا، والثاني الآن عن الأكلة المصرية الشعبية الشهيرة. لقد قرر جميل أن يدعونا إلى الفلافل على حسابه، جميل قادم من جنيف حيث يعيش ويعمل بالأمم المتحدة مع بهاء طاهر. وهو قادم إلى باريس يرى مصر فينا. أدركت ذلك. وتركته يصحبنا إلى مطعم مصري، لكنه نظيف طبعا وفكرت في جميل عطية إبراهيم الذي حين يزور القاهرة لا أراه إلا جالسا على مقهى زهرة البستان يدخن الجوزة المصرية الشهيرة، الشيشة، والذي قال لي يوما، ولا زال يقول، إن الحياة في سويسرا تشبه الحياة في أجزخانة وهذا أمر ممل جدا. أدركت عمق رغبته أن يرى مصر فينا، وتوقعت أنه لنا يصحبنا بعد ذلك في جولات باريسية. وهذا ما حدث بالضبط. اكتفى جميل بالمسافة القليلة من الفندق إلى معهد العالم العربي كل يوم. ليلتقي معنا بالليل بعد عودتنا من المشي الذي لم نبدأه بعد. لقد انتهى المشي بسرعة تلك الليلة وقال جميل إنه يعرف باريس جيدا وإنه لن يمشي بعد ذلك أكثر من سبع دقائق كل يوم قال ذلك ضاحكا وكنا

نقف أمام وتحت تمثال سان ميشيل نتفرج على النافورات المائية والقديس الجميل المعلق عاليا وجماعات السواح ونقرأ اللافتة السفلية عن بطولات الفرنسيين في مواجهة النازية وعدنا إلى الفندق نسأل عن بهاء طاهر الذي لم يصل بعد من جنيف.

كان مفاجئًا لنا مساء اليوم الأول أن يستمر النهار لحوالي العاشرة مساء. لم أكن أحب مادة الجغرافيا لذلك نسيت أي معلومات ممكنة عن طول النهار وقصر الليل في ربيع وصيف فرنسا. أذهلني النهار الأبيض الرائق. قال جميل إنه يحدث في بعض بلدان الشمال الأوروبي أن يستمر النهار حتى الساعة الثانية عشر مساء. يحدث ذلك في هلسنكي في الصيف مثلا. ولا أعرف ما الذي جعلني أتذكر شهر رمضان والصيام وقلت إذن يمكن تعذيب أي شخص بإجباره على الصيام في هلسنكي. لكن جميل ضحك وهو يقول لقد كانت هذه مشكلة للجالية العربية في هلسنكي فعلا لكنهم، العرب استطاعوا استصدار فتوي تبيح لهم الإفطار على مواقيت تركيا....

لم نذهب إلى اللوفر

كان ذلك عجيبا بالنسبة لي. لم يحدث ذلك عمدا. لكنه الوقت القليل الذي لدينا أخذت منا كنيسة نوتردام نهارا كاملا. تلكأنا قبل الوصول إليها عند السوربون، وأخذنا بعض صور جوار مونتيني في شارع المدارس وأخرى جوار تمثال كورني خلف السوربون ثم قطعنا سان ميشيل وتلكأنا كالعادة كلما مشينا في هذا الشارع أمام وأسفل سان ميشيل نفسه، الملاك الحارس الجميل ذي التقاطيع الأبولونية الذي عرفه المصريون بشدة بعد الانفتاح الاقتصادي على ١٩٧٣م باسم «سان مايكل» ماركة البلوفرات

الصوفية التي كانت تستورد بكثرة ذلك الوقت. وعبرنا الضفة الأخرى لنهر السين لنقف في الباحة المزدحمة بالسياح الألمان وبالحمام أيضا أمام «نوتردام دي باري» وعلي الفور فكرت أنه لا أحد من جيلي من أبناء المدن المصرية لا يعرف كنيسة نوتردام من الفيلم الجميل المأخوذ عن رواية فيكتور هوجو «أحدب نوتردام» الفيلم الذي مثله أنتوني كوين وجينا لولو بيريجيدا، وهو الفيلم الثاني في تاريخ السينما العالمية عن هذه الرواية جذبني أمام الكنيسة تمثال على جانب الباحة الواسعة يقف منفردا تكاد تخفيه الأشجار العالية، تمثال قديم شاحب صامت لفارس عجوز على حصان ضامر. اقتربت لأقرأ وأعرف أنه تمثال شارلمان العظيم. يا الله ذلك الذي راسل الخليفة هارون الرشيد والذي أرسل إليه الرشيد مزولة كانت أعجوبة بالنسبة للفرنسيين ذلك العصر. هذا رجل من عصور الظلام أدرك القيمة العلمية للعرب. لكنه بدا لي متعبا من طول التاريخ الذي مر به وعليه في هذا المكان تحت المطر والريح وزرق الحمام والنظرات اللامبالية للسياح الذين تستدرجهم الكنيسة العظيمة بسرعة وتبتلعهم..

كان إدوار الخراط هو دليلنا في هذه الرحلة، وفي غيرها بالنهار، وكان دليلنا في الليل الشاعر المصري المقيم بباريس منذ سنوات «محمد سيف» وهو شاعر عامية من نوع خاص جدا، قليل الشعر، مكين في ذاكرة الشعراء، ومعه الباحث الشاب أنور مغيث الذي يجهز الدكتوراه على يد الفيلسوف والباحث الاقتصادي الشهير جورج لابيكا حول «الرؤية المصرية للماركسية منذ القرن التاسع عشر». إنها رسالة دكتوراه شديدة الأهمية استطاع فيها الباحث أن يصل لوثائق نادرة من القرن التاسع عشر

وأوائل القرن العشرين تترجم للماركسية في مصر، وسوف تناقش رسالته مع مطلع العام الدراسي القادم. أي في خريف هذا العام.

وأخذ منا متحف بومبيدو نهارًا آخر، وأخذ متحف الانطباعيين نهارًا ثالثا، الحقيقة أخذ نهارين لأننا في المرة الأولى فوجئنا بإضراب موظفي المتحف فرحنا نتسكع حول برج إيفيل ثم في رحلة «الباتو» الشهيرة بنهر السين..

كان كثيرا مما رأيته من لوحات سبق أن رأيته في مصر في كتب أو موسوعات من الفن التشكيلي لكن الأمر يختلف عندما تقف أمام اللوحات الأصلية.

فضلا عن الاختلاف بين الأصل الذي تراه مباشرة والصورة المطبوعة في كتاب، وهو اختلاف موجود مهما بلغت دقة المطابع. فضلا عن ذلك تشعر بما لا يمكن أن تشعر به وأنت ترى اللوحات في كتب أو دوائر معارف. تشعر أن الفنانين أصحاب اللوحات الحقيقية التي أمامك أحياء، وهم الذين نظموا لك هذا المعرض لترى إنتاجهم الجديد وتشعر بالقداسة السحرية، وتمضي اليوم كله في رحاب موسيقي سرمدية. تدخل متحف الانطباعيين الأورسيه، في محطة السكك الحديد الشهيرة، وتمضي وقتا رائعا بين فنون النصف الثاني من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين، فنون النحت والتصوير بكل أدواته، وبصفة خاصة المدرسة التأثيرية، مونيه ومانيه وديجا ورينوار، وما بعد التأثيرية، فان جوخ وجوجان وماتيس وتخرج ملفوفا بأوتار الكمان العذب الحزين اللامع. للمدرسة التأثيرية سحر على نفسي قديم، منذ أدركت أهمية الفنون

التشكيلية للكاتب، أي كاتب، لقد كان أول كتاب قرأته في الفن عن أولئك التأثيريين العظام الذين قلبوا مقاييس الفنون التشخيصية وظلوا مجهولين طويلا. إن وقفة سريعة أمام لوحة مونيه الشهيرة الأفطار على العشب تجعلك تدرك حجم القلق والرعب الذي بثته هذه اللوحة في الكلاسيكيين وأنصار الفن الطبيعي. . لذلك، وللمتعة الموسيقية الرائعة التي نهلت منها في الأورسيه، صدقت ما قاله أكثر من شخص أن يوما تقضيه في الأورسيه أفضل من يوم تقضيه في اللوفر. يحتاج اللوفر إلى وقت طويل بينما تستطيع أن تستوعب «الأورسيه» في وقت قياسي رائع.

الأماسي

لم يعجبني البيجال. ليس لأي موقف ديني أو أخلاقي. البلاد ليست بلادي والناس ليسوا أهلي. لم يدهشني أن أرى صورًا ضخمة للعاهرات على جوانب مداخل الملاهي الليلية ولا محلات الجنس. وكما توقعت إلى حد كبير لا تجد في مثل هذه الأماكن إلا نماذج من الضائعين. بالضبط كما تدخل سينما تعرض أفلاما جنسية في باريس. لن تجد فيها إلا نماذج من الشيوخ أو الضائعين، وما أبسط أن تتخيل شكل المحرومين من الإشباع الجنسي في باريس ! لذلك لم أندهش وأنا أرى العاهرات على غير ما نراهن في السينما، بل نماذج متهالكة من النساء، ولم أندهش وأنا أرى رجال الملاهي من القبضايات والقوادين الواقفين حول المناضد في أحط الملاهي الليلية العربية. هناك وحدة بين بائعي ومبتاعي الجنس في كل العالم، وهناك تشابه كبير يسم حتى الوجوه والحركات. بالليل العميق، حوالي الثالثة صباحًا، وأنا أقف مع إدوار الخراط وأصلان وأنور مغيث في البيجال نبحث عن

تاكسي يعود بنا إلى الفنادق رأيت باصا كبيرا ينزل منه رجلان أشبه برجال البوليس راحا يدفعا بعض السكارى الجالسين في الزوايا وعلى الأرصفة. سألت أنور مغيث هل يجمعون المتسولين؟ قال إنه جيش الخلاص. وهي فرق خاصة تتبع الكنيسة تجمع هؤلاء الضائعين في الليل وتذهب بهم إلى الكنائس لتقدم إليهم وجبة ساخنة ثم ينامون بقية الليل ومع طلوع النهار تطلقهم في الطرقات من جديد.

علي أن الأماسي لم تكن كلها في البيجال ولا «السان دي ني» كان هناك أكثر من لقاء مع بعض المصريين المقيمين في باريس، وكان هناك سهر بعد أن ينتصف الليل، وينتهي الكلام مع جميل عطية إبراهيم وإبراهيم أصلان وكان هذا السهر أمام التليفزيون. نوع من حب الاستطلاع. كنت أعرف أني لن أستقبل شيئا ذا قيمة لسبب بسيط جدا هو أن ما أعرفه من كلمات فرنسية لا يكفي أبدا لفهم ما يحدث أو يقال أمامي، وكنت أعرف أن هناك دبلجة بالفرنسية لكل شيء أجنبي يبث في التليفزيون وأنه لا فرصة في رؤية أو سماع شيء بالإنجليزية.

لكن أصبحت لي كل مساء جلسة لثلاث ساعات تقريبا بعد الثانية عشرة أمام التليفزيون الذي لدهشتي الشديدة وجدته يبث أحيانا بعض مباريات كرة قدم، وغالبا يبث ندوات فكرية جادة، وفي إحدى قنوات أغاني لا تنقطع أكثر من نصفها أمريكي لكن أمسكت بثلاث سهرات درامية قصيرة وممتعة. كانت الأولى بعنوان passion أي عاطفة أو انفعال أو هوي إذا شئت. أدهشني إنها حوار طويل بين شاب وفتاة لا يتغير مكانهما، شقة الفتاة الصغيرة، يتحركان باستمرار في مساحة ضيقة بها،

والمسألة أنه عاشق ولهان يريد تجسيد حبه لها وهي تصده مرة باللين ومرة بعنف وفي النهار تعطيه قبله صغيرة باردة لا معني لها ويخرج مندهشا لكنه غير مبال. لقد اقتنع أنه لا سبيل لتجسيد حبه مع هذه الفتاة. بدا لي أن السهرة في الأصل مسرحية من فصل واحد تستمر لحوالي الساعة. الذي أدهشني هو أن يحدث أمامك في التليفزيون هذا النوع من التمثيل الشبه مسرحي دون تغير في المناظر ولا الحركة ومع ذلك لا تشعر بالملل.

في ليلة أخرى رأيت سهرة بعنوان L'annee Noir أي السنة السوداء. كانت الحلقة الثالثة، وبالطبع لم أر الحلقتين السابقتين وكانت الحلقة مكرسة لفترة صعود الفاشستية في إيطاليا. رأيت هذه الحلقة بعد الساعة الثانية صباحا ولا أعرف حتى الآن لأي طائفة من المشاهدين يبث التليفزيون الفرنسي هذه الحلقات الجادة.

علي أن السهرة الثالثة والأخيرة التي رأيتها في التليفزيون هي التي أدهشتني أكثر. وأنا لا أذكر عنوانها ولا أسماء الممثلين فيها، لكنها كانت عن رجل بغل حقيقي جسدا وعقلا يعيش في الريف ويعمل جزارا ومعه أمه العجوز وامرأة رائعة الجمال تكتشف أنها محظية يعاملها بكل قسوة ممكنة وهي لا تملك إلا جسدها الجميل تقدمه له كلما غضب وكلما ضربها وأهانها، وحين تحمل منه يأبى إلا أن تجهض حملها لكنها لا تفعل وتنجب ولدا لا يعترف بأبوته له، ولا يكف عن إيذائها. وهناك بعيدا جدا، في نهاية العمر، بعد أن يشيب شعر رأسه وشعر رأسها يوافق ويتزوجها في الكنيسة وتخرج متعلقة في ذارعه غير مصدقة وتندفع في بكاء عنيف مرير وهي تقبل يديه. أي قسوة ممكنة أكثر من ذلك. ولم أصدق نفسي وأنا أرى

هذه المعاملة المنحطة لامرأة رائعة الأنوثة والجمال. لم أصدق أنه يمكن أن يلحق بالنساء كل هذا الضياع. أدهشني أن توجد مثل هذه المعاملة للمرأة تجسدها الدراما الفرنسية بعد كل ما سمعناه عن المرأة الفرنسية وقرأناه ثم رأيناه أيضا إذ تصادف مع وجودنا نوبة حر مفاجئة خلعت فيها نساء وفتيات باريس ما طال وسمك من الثياب وارتدين ما قصر وخف وشف وانطلقن في الشوارع.

لم يعجب فندقنا بهاء طاهر الذي جاءنا في اليوم التالي لوصولنا ومعه زوجته السويسرية. رأى الحجرة ضيقة بحق! قابلناه على مقهي النجمة الذهبية المقابل للفندق في صباح اليوم التالي لوصولنا وكان يحمل معه الحقائب استعدادا للبحث عن فندق آخر قريب، لكن ليومين فقط. وماذا ستفعل بعد ذلك ؟ سأبحث عن فندق آخر. وحمل وزوجته الحقيبتين وتركانا إلى الفندق. أدركت أن الوقت الذي سيمضيه معنا بهاء طاهر سيكون قصيرا. فهو سيبدد جزءا منه في البحث عن الفنادق، ثم إنه الوحيد الذي معه زوجته، ثم إنه أيضا مثل جميل. جاء إلى باريس أكثر من مرة، لكنه يختلف عن جميل في حبه للمشي، لكن فقط إلى الحي اللاتيني أو الشانزليزيه إذن سأظل أنا ومعي إبراهيم أصلان فقط نقطع شوارع باريس يصحبنا مرة ادوار الخراط الذي تجده في الأسفار شابا في العشرين من عمره ومرة صديقنا المصري أنور مغيث. . لكننا في حاجة إلى أن نستمع قليلا إلى بهاء طاهر، وكثيرا إلى جميل عطية إبراهيم وهذا ما سأفعله الآن.

أحاديث النجمة الذهبية

صار لنا لقاء يومي كل صباح على مقهى «النجمة الذهبية» «L'etoile d'or» المواجه لفندقنا تماما. في هذا اللقاء يتمدد الحديث بين الأدب والسياسة والفكاهة أيضا. وكان طبيعيا أن يتحدث بهاء طاهر وجميل عطية إبراهيم على المقهي أكثر مما أتحدث أنا أو أصلان أو إدوار الخراط.

تحدث بهاء عن المحاولات التي جرت في سويسرا من أجل عدم توزيع ودخول جريدة القدس إلى البلاد من قبل دولة عربية، والمحاولات التي بذلها زملاؤه من العرب المستنيرين بالأمم المتحدة لوصول القدس إليهم وكيف فشلت محاولة تلك الدولة، بالطبع كان مدهشا لنا عدم دخول القدس إلى باريس وإغلاق المجلات الفلسطينية أثناء حرب الخليل لكن هذا من سمات فرنسا العجيبة كأنما فرنسا تعرف أننا ننسى بسرعة ولا نتذكر منها إلا وجهها الحسن وتحدث بهاء عن الانهيارات النفسية الرهيبة في أوروبا عموما، وعن الجنس المحرم والاغتصابات العائلية في محيط العائلة الواحدة وظاهرة صعود بعض الجانحين في المساء إلى العربات الأخيرة بالمترو بجنيف فإذا تصادف أن تواجد بها فرد واحد هاجموه في المترو نفسه. ونزوع المعالجين النفسيين إلى التعامل مع هذه الحالات بشكل معلن فتفاجأ مثلا على محطة المترو بشاب يقدم إليك ورقة مطبوعة تتصورها منشورا فإذا بها حكايته مع والده الذي كان قد اغتصبه في طفولته وما صار إليه الآن. هكذا بوضوح كأنما المعالج النفسي الذي رسم له هذه الخطة يعيد تأهيله مع العلاقات الاجتماعية السوية وتخليصه من أي شعور بالنقص أو الألم أو الرهبة.

ولما رأى جميل عطية دهشتي من نظافة الشوارع ونظام المرور والمشي والهدوء قال لي إن باريس لا تعتبر مدينة نظيفة بالقياس إلى جنيف.

سويسرا أجزاخانة والكلام لجميل طبعا لا مكان فيها لسيارة موديل العام الفائت أو تصدر صوتا من أي نوع. لقد جاء صديق لي من ألمانيا ليعيش في سويسرا فمنعوا سيارته من الحركة داخل جنيف لأنها مزعجة، ولم يكن مضى على شرائها أكثر من عامين، وحاول أن يهديها لي أشحنها إلى مصر فرفضت وشكرته ولم يجد أمامه غير مقبرة السيارات يضعها فيها. في سويسرا جماعات الحفاظ على البيئة في غاية النشاط، وأنا مثلا – والكلام لجميل – لا يمكن أن أشتري شيئا في كيس بلاستيك. زوجتي ترميه فورا. والعلاقة بين الشعب والحكومة في غاية الغرابة. الحكومة تقيم استفتاءات على قوانين جديدة أو مشاريع جديدة. والسويسريون دائما يقولون «لا» حتى في آخر استفتاء وكان حول تخفيض ساعات العمل قال السويسريون « لا » وهناك جماعات مختلفة لمناصرة العالم الثالث منها جماعة ترفض أن تشتري أي بضاعة مستوردة من العالم الثالث بسعر رخيص. تصر على شرائها بسعر مرتفع باعتبار أن الدول الأوروبية تستغل العالم الثالث، ويتجمع فارق السعر عند هذه الجماعات وترسله في شكل مساعدات لبعض الدول الفقيرة. لكن الذي يغيظك في سويسرا وأوروبا عمومًا هو الرطوبة. كل شيء نظيف حقا لكن يمكن أن يتعفن بسرعة. يمكن أن ترتدي القميص ثلاثة أيام ولا يتسخ لكنه يتعفن عليك من عند الياقة مثلا.. وتشم رائحة العفن. أن اللوفة التي تستحم بها لا بد بعد الحمام أن تعرضها للهواء وإلا يصيبها العفن. ومن أهم العادات التي عانيت في تعلمها عند حضوري أول مرة إلى جنيف أن أقوم بتنشيف شعري جيدا بعد الاستحمام. في بلادنا، مصر، يحلو للإنسان أن يترك شعره مبلولا بعض

الشيء بعد الاستحمام. هناك في سويسرا، كنت أفعل ذلك وأنزل الشارع فإذا شعري يتحول إلى سلك من الجليد يتجمد الماء حول الشعر. احتجت وقتا حتى أقلع عن عادتي المصرية وتعلمت مثلا أن لا أحك أنفي تحت الجليد في الجو البارد لأنها ببساطة يمكن أن تخرج في يدك فتجد نفسك بلا أنف. الأطفال هنا يتعلمون منذ الصغر بعض العادات المرتبطة بالجليد.

وهكذا راح جميل يعلمنا كثيرا من العادات الواجبة في البرد وتحت الجليد، وكان الجو حارا على غير العادة في باريس ومدهشا!

الندوة

كانت هناك ندوة مقررة لنا نحن الكتاب المصريين، سبقتها ندوة بالفرنسية شارك فيها من المستشرقين إيف جونزاليس وريشار جاكمون وآن مينكوفسكي. في ندوتنا امتنع صنع الله عن الكلام بلباقة تاركا الفرصة لزملائه، وتلعثم كالعادة إبراهيم أصلان، وأخذ إدوار – كالعادة أيضا – المسألة بجدية بالغة فتجاوز الوقت الذي خصصه بدر الدين عرودكي لكل منا، وراح إدوار يتحدث عن تجربته في البنية الروائية ولواعجه الخاصة وشطحاته وغير ذلك مما يقدر إدوار على قوله من عميق المعاني. بالطبع تحدثت أنا، ولأنه كان مطلوبا من كل منا أن يتحدث عن تجربته، فحددت تجربتي كما أراها أقرب إلى برهان زينون الإيلي على عدم الحركة. وزينون الإيلي هو أحد الفلاسفة اليونانيين القدامي، أو الحكماء السبعة كما كانوا يسمون. أولئك الذين سبقوا سقراط وأفلاطون وأرسطو والذين قالوا بآراء مختلفة في أصل العالم. لزينون الإيلي هذا برهان على بطلان الزمان وآخر على انعدام الحركة. يقول عن الأخير إن السهم حين تطلقه من

القوس لا ينطلق إلى هدفه ولا يصل إليه أبدا لأنه كي يصل إلى الهدف لا بد أن يقطع المسافة كلها وكي يقطع المسافة لا بد أن يقطع نصف المسافة، وكي يقطع نصف المسافة لابد أن يقطع نصف النصف، وكي يقطع نصف النصف لا بد أن يقطع نصف نصف النصف، وهكذا إلى مالا نهاية لأنه لا يوجد نصف إلا وله نصف. وهكذا لن يتحرك السهم من مكانة لأنه لا نهاية لأنصاف الأجزاء. وقلت إن حالي مثل حال هذا السهم الذي تراه يتحرك أمامك بحق لكنه لا يصل إلى هدفه، وهذا هو حال جيلي، جيل ثورة يوليو، وحال أمتنا العربية حتى الآن ولا أظن أن ما كتبته من روايات يبتعد عن هذا الإحساس.

كان بهاء طاهر – كعادته أيضا – محاضرا من الطراز الأول تحدث عن تجربته ممزوجة بتجربة جيل الستينيات ثم تابع الكتاب التالين لذلك حتى وقتنا الراهن، وعندما تحدث جميل عطية إبراهيم توقف عند نظرة الغرب إلى الشرق وكيف لا يحب الغرب أن يرى من الشرق إلا نفسه، وهذا هو ما يحدد ما يمكن ترجمته من أدب عربي وما لا يمكن ترجمته ثم قدم وصفة للحاضرين لمن يشاء كتابة رواية تترجم بسرعة وتنازل عن حقوقه في هذه الوصفة فقال : تبدأ الرواية بفتنة طائفية بين المسلمين والأقباط، ثم يتم اختطاف فتاة تقام لها طقوس الختان، ثم يتزوج البطل البطلة ويذهبان معا لزيارة إسرائيل تدعيما للسلام العالمي!!

وبهذا الحديث الساخر، وببساطة جميل عطية إبراهيم المذهلة حاز إعجاب ورضا الجمهور فتوجهت كل الأسئلة تقريبا إليه ونحن تركناه يجيب عنها وقلت أنا له بعد الندوة لم نكن ندري أن معنا محمد حسنين

هيكل اليوم. لكن الملاحظة الخطيرة في الأسئلة المقدمة أنها كانت في مجملها إدانة لمصر، أو بمعنى أدق، للدولة المصرية، والمثقفين المصريين، وبالطبع من حق كل إنسان أن يهاجم أفكار من يشاء في أي وقت يشاء لكني لاحظت في الندوة أن الهجوم كان أحيانا لمجرد الرغبة في الهجوم فمن الأسئلة التي أدهشتني جدا سؤال لأحد السائلين – في صيغة لوم وإدانة – عن الحاج مدبولي أشهر بائع وموزع وناشر كتب في مصر، وكيف أنه لا يعرض كتب الأدباء العرب. السؤال مدهش فهو يتعلق بموزع وبائع كتب ليس معنا في الندوة والسؤال غير حقيقي لأن أهم ما يوفره هذا الناشر بالذات هو الكتب العربية قبل المصرية ونحن من زمان نذهب اليه لنجد عنده الكتب العربية التي لا نجدها عند غيره.. ومن الأسئلة التي أدانتنا بشدة لا أعرف لماذا هو أن أحدا في مصر لم يترجم حتى الآن كتاب «الزمن الأصفر» لديفيد جروسمان الإسرائيلي الذي تنبأ بالانتفاضة الفلسطينية. كان هذا السؤال من شاب سوري وهو بالطبع لم يعرف أن مجلة الكرمل سبق وقدمت هذا الكتاب، لكنه لم يسأل نفسه لماذا يكون عدم ترجمة الكتاب في مصر أمرا يستوجب اللوم ؟ ولماذا لا يترجم في مكان آخر مثلا؟

وهكذا بدا أن هناك قصدية في الأسئلة حتى إن أحد الشباب من المغرب قام يديننا لأننا لا نكتب عن الريف المصري، نحن الموجودين بالذات وبالطبع وضح له أن هناك كتابًا في مصر غيرنا يفعلون ذلك وبالطبع كان يعرف لكنه توصل إلى طريقة لإدانتنا والسلام.

أما أغرب الإدانات فكانت تعليقا على حديث جميل عطية إبراهيم عن روايته النزول إلى البحر وكيف أنها تدور بين سكان المقابر في القاهرة. لقد وقف نفس الشاب المغربي فيما أذكر وقال إن ذلك أمر مشين جدا وأنه سافر

مرة إلى القاهرة وفوجئ بقائد الطائرة وهم فوق القاهرة، يعلن لهم أنهم يطيرون الآن فوق سكان المقابر في مصر وطبعا هذا اختراع من صاحب السؤال لكن هكذا كانت نبرة الإدانة عالية، أمر محير جدا هذا النزوع إلى الإدانة. لا أحد يعرفنا فيفصل بيننا وبين أولي الأمر، ولا أحد يريد أن يعترف أن الأفكار السلفية تسحبنا جميعا من أنوفنا إلى الخسران، وأن دور مصر الآن مهما علا صوتها ليس هو المؤثر الحقيقي في هذا الخسران إنما الفاعلون هناك في جزيرة العرب.. وغير جزيرة العرب أيضا.

فضيلة الصمت

أصابتني باريس بالصمت. اكتشفت بعد عودتي أني انزعج لأدني صوت يصدر قريبا مني. بعد أيام صرت أنا مزعجا لمن حولي، في البيت أو العمل، لأني رحت أطلب من الجميع الهدوء وعدم ارتفاع الصوت أثناء الكلام. اندهش الجميع لحالي، وأنا نفسي تساءلت ماذا جرى لي ولماذا لم أعد قادرا على الاستماع لأي ضجة؟ اكتشفت أني لم أسمع طوال أسبوع كامل أي صوت غير صوت المصريين الذين كانوا معي عندما نتحدث، وأنني لم أسمع أحدا يتحدث في الطريق أو الفندق ولم أستمع لموسيقى صاخبة أو هادئة تصدر من أي مكان ولا صوت للجالسين بالمقاهي ولا صوت سارينات السيارات ووجدت أن ذلك أمر غير مقبول. طلبت من زوجتي رفع صوت الراديو ومن أولادي الجري في البيت وإحداث الضجة ومن الموظفين في العمل التحدث بصوت عال وفي وقت واحد. لا بد أن أعود لحالتي الأولى وبسرعة. وهاأنا عدت إليها. رجعت قادرا على احتمال الضجيج..

أدباء مصريون في فرنسا

لم ينقطع الاتصال بين مصر وفرنسا منذ تلك اللحظة التاريخية القصيرة أثناء الحملة الفرنسية. بل وبدا في كل وقت انه اتصال أبدي برغم ما يبدو فيه أحيانًا من أوقات ظلام. كانت نهضة محمد على بالبلاد في جانبها الاكبر فرنسية، سواء بالبعثات التي أرسلها أو بالسان سيمونيين الذين وفدوا على مصر بأحلامهم في البناء والعمران، أو بالجيش العظيم الذي وضع أصوله ورعاه سليمان باشا الفرنساوي! درس التاريخ يقول – بعد وفاة محمد على وإبراهيم – أن فرديناند ديلسبس قد خدع الخديو سعيد وحصل منه على امتيازات كبيرة لحفر قناة السويس، وأن القناة كانت وبالًا على مصر، ونفس التاريخ يقول إن القناة كانت ولا تزال نعمة اقتصادية ومحورًا من محاور الوطنية المصرية.

إن أكبر النقط المظلمة في تاريخ العلاقة مع فرنسا هي العدوان الثلاثي (١٩٥٦م) وتمويلها للمفاعل الذري الإسرائيلي في وقت مبكر. لكن ذلك العدوان الذي لم يمتد شهورًا سرعان ما يختفي أمام ذكرى وأعمال رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك ومصطفي كامل ومحمد عبده والأفغاني ورواد التنوير بعد ثورة ١٩١٩، طه حسين ومحمد حسين هيكل والسنهوري باشا وتوفيق الحكيم إلى يوسف شاهين في زماننا. أما إسرائيل فلم تعد عدوًا !!.

باختصار كان احتلال مصر إنجليزيًا منذ الربع الأخير للقرن الماضي حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، وطوال هذه الفترة بالتحديد كان الأثر الحضاري، المادي والمعنوي، في مصر فرنسيًا خالصًا.

إن المثقفين المصريين منذ رفاعة الطهطاوي لم ينقلوا الروح الفرنسية في الثقافة فقط، بل منهم من عمل على نقلها إلى الحضارة المادية أيضًا، إلى البناء، مثل على باشا مبارك، فمعظم ميادين القاهرة الحديثة قد صممت على شكل ميادين باريسية. كما أن شارعي محمد على وكلوت بك هما نموذجان لشارع ريفولي في باريس – الريفولي لا يزال قويًا جميلًا بديعًا بالليل والنهار بينما تحول كلوت بك إلى خرائب تامة، ومحمد على في طريقه للأنهيار – يكفي في النهاية أن أقول لك إن الذي بنى قناطر محمد على هم المهندسون السان سيمونيين الفرنسيون. وفي عهد عبد الناصر بني مبني الإذاعة والتليفزيون مهندسون فرنسيون أيضًا في منطقة ماسبيرو، ذلك الاسم الفرنسي الذي لعله أكبر الأسماء الأجنبية في عالم الآثار المصرية.

فرنسا إذن تحتل مساحة كبيرة في بنية العقل المصري الحديث. من منا لا يطرب قلبه حين يسمع اسم باريس التي أسماها طه حسين ببلد الجن والملائكة !! الرحلة إلى فرنسا إذن ليست شيئًا عاديًا. والذين سيقومون بالرحلة هذه المرة جماعة من الأدباء يزورونها لأول مرة أو لثاني مرة على أحسن تقدير.

الجميلات الأجنبيات

صفة أطلقها أحد شعراء القرن الماضي على الأعمال الأجنبية التي يتابعها القارىء الفرنسي، المقصود بها إذن أعمال الكتاب وليس الكتاب أنفسهم، وهي صفة مثيرة قمينة بلفت الانتباه وإثارة الذهن، وفيها معنى الفتنة والغواية والخيانة أيضًا. فيها كل ما يغري على المعرفة. هذه الصفة أصبحت عنوانًا على برنامج ثقافي كبير تنفذه وزارة الثقافة الفرنسية «إدارة الكتاب

والإدارة الفرانكوفونية» كل عام ومنذ سنوات، بالتحديد منذ عام ١٩٨٧ حيث كانت البرازيل الدولة الأولي التي ابتدأ بها البرنامج، وتبعتها ألمانيا الديموقراطية – ذلك الوقت – فالدانمارك والأرجنتين وأسبانيا والصين والبرتغال وفنلندا والمجر وأيرلندا واليونان وأستراليا وبولونيا والمكسيك والنمسا وشيلي وأفريقيا الجنوبية وتركيا وإسرائيل!....إلخ

وهكذا كما ترى غالبية هذه الدول ليست معروفة للقارئ الفرنسي كما أن البرنامج قد يتكرر أكثر من مرة في العام الواحد لأكثر من دولة، ومصر هي الدولة الثالثة والعشرون في البرنامج الذي بدأ منذ سبع سنوات. خصص البرنامج هذا العام -١٩٩٤- لمصر إذن، وتم الترتيب له منذ عامين هكذا عرفنا. ومنذ منتصف عام ١٩٩٤م وأخبار البرنامج تخرج من (المركز العلمي الفرنسي) قسم الترجمة، من القاهرة إلى الصحف. وفي هذا المركز يشرف المستشرق الكبير ريشار جاكمون على ترجمة عيون الأدب والفكر الفرنسي إلى اللغة العربية ويختار ويدعم أيضًا ترجمة الأعمال المصرية إلى الفرنسية وحين يتم التأريخ الدقيق للعلاقات الثقافية المصرية الفرنسية سيقال إنه كما افتتح هذا القرن – العشرون – بأعمال الأثريين الفرنسيين الكبار، فإنه سينتهي بعمل ثقافي كبير للمستشرق ريشار جاكمون ألا وهو دعم ترجمة مائة كتاب فرنسي من أحدث الإصدارات في شتى المجالات إلى اللغة العربية، تجاوزت الترجمة الستين كتابًا حتى الآن وخلال خمس سنوات، إلى جانب اختياره لبعض النصوص المصرية والعربية لترجمتها إلى الفرنسية. فهو نفسه قد ترجم لمجيد طوبيا ونبيل نعوم وصنع الله إبراهيم، وهو الذي اختار روايتي «البلدة الأخرى» للترجمة وخصص لها منحة

للمستشرقة كاترين تسييه وفعل نفس الشيء مع رواية بهاء طاهر «خالتي صفية والدير» وأثار اختيار الأسماء بعض اللغط بين الكتّاب، وهذا طبيعي جدًا في بلد مثل مصر يزخر بالمبدعين. لقد استقرت الأسماء على اثني عشر كاتبًا هم : إدوار الخراط – إبراهيم عبد المجيد – إبراهيم أصلان – بهاء طاهر – لطيفة الزيات – سلوى بكر – نبيل نعوم – محمد البساطي – جمال الغيطاني – أحمد عبد المعطي حجازي – محمد عفيفي مطر – عبد المنعم رمضان. وكان نصيب كتّاب القصة والرواية هو الأعظم (تسعة كتّاب أمام ثلاثة شعراء) مما يؤكد على ثقل الإبداع القصصي – هذه حقيقة لا تشين الشعر والشعراء – ولا شك إنه لا يزال في مصر أسماء من كتاب القصة، فضلًا عن الشعراء، لها أهميتها، ولها إنجازها الفائق. إذن الأدباء الذين تم اختيارهم ليس المقصود بهم الأفضل وانما هم ممثلون لحالة الأدب العربي في مصر لا أكثر.

قبل السفر – يوم الوصول

في أكتوبر ١٩٩٤م وصلت القاهرة المستشرقة «أن منكوفسكي» مستشارة وزارة الثقافة الفرنسية وهي المعروفة جدًا في الأوساط العربية الأدبية ومعها ميشيل مريام أحد المشرفين على البرنامج من قبل وزارة الثقافة الفرنسية والتقيا بالكتّاب المختارين للسفر. في لقائي معهما أطلعاني على تفاصيل البرنامج، وفعلا ذلك بالطبع مع الجميع، عرفنا أنه سيتم طبع كتيب أنيق للتعريف بنا يكتب فيه عدد من خيرة النقاد المصريين والفرنسيين، كما أننا سننتقل من باريس إلى أكثر من مدينة فرنسية.

بعد هذه اللقاءات وصل المخرج التونسي الذي سيقوم على إخراج الفيلم التسجيلي، أمضي في مصر حوالي أسبوعين انتقل فيها مع الكتاب إلى قراهم ومدنهم خارج القاهرة. اصطحبته أنا إلى الإسكندرية حيث ولدت وعشت طفولتي وصباي ومطلع شبابي والتي عنها ما زلت أكتب، لم أكتب عن القاهرة بعد غير قصة قصيرة يتيمة برغم أنه قد مضى على وجودي بالقاهرة عشرون سنة، في الإسكندرية تعرضنا لمواقف تستحق التسجيل أجملها كلها في دهشة الجماهير من أمرنا، وغضبها أكثر من مرة، حيث كنا نقوم بالتصوير في أمكنة مفتوحة وشعبية. كانت محطة «السي إن إن» الأمريكية قبل ذلك بأسابيع قد أذاعت حفل ختان الفتاة المصرية، وكان ضمن طاقم التصوير فتى وفتاة فرنسيان، وهكذا تصور الجميع أننا جواسيس، فساقونا إلى أقسام البوليس أكثر من مرة، وفي كل مرة كان البوليس هو الذي يساعدنا على الانتهاء من التصوير!! انتهى المخرج من تصوير ما يريد، وعاد إلى باريس حيث يعمل ويعيش، وقبل السفر بأسبوعين سافر المستشرق ريشار جاكمون أيضًا إلى باريس ليكون وسط الاستعدادات وفي استقبالنا بعد ذلك. كانت الرحلة من القاهرة إلى أي مكان آخر، بالنسبة لي على الأقل، ولجيلي الذي يحب هذا الوطن إلى درجة الرغبة في الفرار! حقيقة، وطن يحتضر بين يديك وتحبه وتعجز عن شفائه ،حقيقة وطن تحبه ولا يبادلك الحب إلا بعدم الاكتراث، وطن تفر منه وتأخذه معك، تحمله على ظهرك أينما هربت، أجل ما معنى أن تكون مشهورًا في أي مكان في العالم بينما أنت غريب في الوطن؟ ثم إن الشهرة في أي مكان في العالم ليست سهلة. العالم الآن قد تم تقسيمه إلى دول سائدة

ودول بائدة. وللدول البائدة خط أحمر لا تتجاوزه. تريد أن تدخل إلى العالم الواسع. لا بد لك أن تعمل وفق قوانين العالم الواسع. وأول تلك القوانين أن تتخلى عن الوطن ! فهل يمكن؟ على أن الرحلة كانت سهلة لأننا ذاهبون إلى باريس، بعد الاستقبال في المطار، وفي الفندق، تسلمنا أوراقنا التي كان أبرزها الكتيب عنا نحن الكتّاب. أي زحام هذا الذي قابلناه في الأوبرا. كانت المصادفة قد جعلت اليونسكو تقيم في نفس الليلة أمسية شعرية لمحمود درويش بمناسبة صدور ديوانه الجديد ولفوزه بجائزة اليونسكو للإبداع. انقسمت باريس بيننا وبين درويش. ذهب معظم الأخوة العرب إلى درويش. وجاءنا العدد الأكبر من الفرنسيين. اضطرت إدارة الأوبرا إلى تغيير القاعة التي خصصت من قبل لافتتاح البرنامج. كانت قاعة صغيرة يشغلها ثلاثمائة مقعد، القاعة الجديدة تسع خمسمائة مقعد. وظل أكثر من مائتي شخص بالأبواب لم يستطيعوا الدخول فانصرفوا، وأظلمت القاعة وبدأ تشغيل الفيلم التسجيلي الذي كان المخرج التونسي « مصطفي حسناوي « قد جاء لمصر من قبل لتصويره. استغرق الفيلم نصف ساعة. وبرغم قصر الفيلم فلقد بدا واضحًا اهتمام المخرج بتأكيد الفروق الأدبية والشخصية بيننا وهذا وحده يكفي ليحسب للفيلم.

كان ممن قابلناهم ليلة الافتتاح المفكر الكبير سيد ياسين رئيس مركز الدراسات السياسية بجريدة الأهرام. وجدت ابتسامة كبيرة على وجهه وسعادة حقيقية. انتقلت هذه السعادة إلينا.

مشهد الجمهور الغفير يخيف الكتّاب أمثالي. نحن كتاب القصة والرواية مساكين مع الجمهور. لقد تعودنا على الحكاية، والحكاية غالبًا تكون في

ركن صغير لعدد قليل من الأولاد أو الأحفاد أو الأصدقاء. ليس لكتاب القصة طاقة على الجمهور الواسع. ذلك أمر ينجح فيه الشعراء. معظم الأسئلة أو كلها. كانت سياسية ذلك اليوم، تبتعد وتقترب من الإرهاب الفكري والديني وغير ذلك من الظواهر السلبية في مجتمعاتنا العربية. انبري للأجابة عن الأسئلة حجازي ومطر ولطيفة الزيات والغيطاني وبهاء طاهر، ولما جاء سؤال يتيم عن السينما أخذته أنا، لكني بدأت أفكر بالأسئلة السابقة وأدرك الفكرة العامة السائدة عن العرب في أوروبا اليوم، وهذا أمر يستحق الوقوف عنده بعض الوقت.

السؤال المحلّق

«تسليمة نسرين» الطبيبة البنغلادشية الهاربة إلى فرنسا هي بطلة الشرق الإسلامي بلا منازع الآن. فهي المرأة التي كتبت عن ظلم المسلمين لغير المسلمين في بلادها وعن ظلم المسلمين للمرأة المسلمة فخرجت المظاهرات تطالب برأسها بعد صدور فتوى من أحد الشيوخ باستحلال إهراق دمها. السؤال في كل الندوات وبأكثر من صيغة وفي كل الأحوال تلمس في السؤال تطابقًا في الرؤية بين الإسلام والإرهاب.

وهكذا ببساطة تستطيع أن تعرف وضع العرب في أوروبا، خاصة في وسائل الإعلام. كل الذين اجابوا عن السؤال منا أشاروا إلى مشاكل الواقع الاجتماعية والسياسية التي أدت إلى إفراز هذه الحركات المتطرفة، وكيف أن الإسلام هو الجواد الباقي في الساحة السياسية فركبته هذه الحركات التي لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي، لكن السؤال دائمًا يعود بصيغة أخرى حتى اضطررت أكثر من مرة إلى أن أتحدث عن دور الغرب

في تغذية هذه الحركات المتطرفة، وقلت بالحرف الواحد إن إسرائيل مثلًا رفضت كل مشروعات السلام العادلة فكان طبيعيًا جدًا أن تظهر «حماس»، كرد متطرف على العنصرية الاسرائيلية، وأن الولايات المتحدة الامريكية تؤوي معظم قيادات التطرف من الجزائر، كما تؤوي مفتي الجهاد عمر عبد الرحمن، وفي لقاء مع وزير الثقافة الفرنسي جاك توبو وجه اليه بهاء طاهر سؤالًا مباشرًا عن الطريقة التي تعامل بها تسليمة نسرين كبطلة ضد التخلف الإسلامي وهل هي الطريقة الصحيحة في مثل هذه الأمور، وهل يؤدي ذلك إلى تعضيد مفكري الاستنارة في بلاد الشرق أم يزعزع من مواقفهم ؟ الواضح أنه يضر بهم لأن موضوع تسليمة نسرين لم يكن يستحق كل هذا العداء الواضح للإسلام أو المسلمين. كان رد الوزير أن هذا الكلام فيه جانب كبير من الصحة، لكن هكذا تطور الأمر من إنقاذ كاتبة إلى ما تراه، وأن كل مثقف حقيقي يعرف سماحة الإسلام. لقد كان لقاء الوزير كله تقريبًا مكرسًا للحديث عن الفرانكوفونية وكيف أنها في أحد جوانبها الكبيرة مواجهة للغزو الأمريكي الثقافي - بالمناسبة الأفلام الأمريكية تملأ السينمات الفرنسية والمسلسلات الأمريكية تملأ التليفزيون الفرنسي - ونحن بدورنا سألناه تدعيم الجوانب الثقافية في مصر خاصة السينما والفنون حيث يقوم ريشار جاكمون بتدعيم الوجود الفكري والأدبي بمشروعه الكبير لترجمة المائة كتاب من عيون الفكر والأدب الفرنسي، والحقيقة أننا طلبنا تدعيم الوجود الفني الفرنسي ليس من باب مواجهة الغزو الأمريكي، ولا من باب فرانكفوني، ولكن لما للثقافة الفنية الفرنسية من تقاليد وجرأة على التجديد وأثر دائم على مثقفينا وفنانينا. على

أن السؤال عن التطرف والأرهاب كان – كما قلت – يعود بصور أخرى في ندوة عن حرية التعبير، أما أن الدول العربية تصادر حرية التعبير فهذا أمر لا مناقشة فيه، فأخبار الكتب المصادرة والأفلام الممنوعة تصل هناك قبل أي شيء آخر. وموقف مجلس الشعب المصري من بعض دواوين الشعر معروف هناك، والقضية التي رفعها أحد المحامين للتفريق بين الدكتور نصر حامد أبو زيد وزوجته، والقضية الجديدة التي رفعها أحد المحامين في مصر ضد فيلم المهاجر ليوسف شاهين، هذه وتلك وغيرها أمور معروفة في الأوساط الثقافية الفرنسية، القريبة من هموم الشرق. هناك تسليم بتدخل جهاز الدولة في كل البلاد العربية في حرية الكاتب، رغم أننا أوضحنا بعض الحقائق المتعلقة بمصادرة الكتب في مصر، وكيف أن جميعها حتى الآن، ومنذ عام ١٩٨٠م لم يصدر بها أي قرار إداري أو حكم محكمة، انما هي اجتهادات لبعض المسئولين من الأزهر الشريف، يلبيها بعض المسئولين عن النشر دون أي قرار مكتوب. عند هذه النقطة ينتقل السؤال إلى مدي ما تثيره الحركات الأسلامية المتطرفة من ضغوط على المثقف لتقييد حريته في التعبير، وهو سؤال له وجاهته خاصة أن عددًا من المثقفين المصريين ترتعش الأقلام في أيديهم الآن بعد مسلسل الاغتيالات في الجزائر، وبعد العدوان الآثيم على نجيب محفوظ. لقد أوضحنا الموقف الشجاع لغالبية المثقفين المصريين أمام ارهاب، لكن المثير في الأسئلة كلها أنها كانت توجه الينا وفيها روح الأدانة لنا كأننا المسئولون عما آلت اليه الحال. ربما هذا الإحساس الذي تحمله الأسئلة هو ما حمل بهاء طاهر في إحدي الندوات إلى أن يتحدث عن حقوق الإنسان الضائعة ليس في البلاد

العربية وحدها ولكن في الغرب أيضًا، أن الجنود الصرب مثلًا أضاعوا كل مظاهر حقوق الإنسان لشعب البوسنة، وفي الندوة نفسها التي حملت عنوان حرية التعبير، والتي حضرها جيل كيبيل، وهو من جيل المستعربين الجدد، وله كتاب عن اغتيال السادات اسمه «النبي والفرعون» كما حضرها جاك لاكوتير مندوب اللوموند في مصر في الخمسينيات والستينيات وصاحب كتاب عنها أيضًا في ذلك الوقت. في تلك الندوة قلت إنه بالإضافة إلى دور أمريكا المؤسف في تغذية الحركات الإسلامية، فإنها تساهم بشكل أو بآخر في تقييد حرية التعبير للشعب العربي. إن لعبة التوازنات السياسية، هي التي جعلتها تبقي على صدام حسين بعد حرب الخليج، وهي تعرف مدى إهداره حرية وحقوق شعب العراق. الحقيقة أن العالم تحكمه المصالح وليس هناك مكان واحد به حقوق المواطنة كاملة، إنما هي تفاوت في نسب الحقوق. كم نظامًا ديمقراطيًا تسانده الولايات المتحدة الأمريكية ؟

لم نكن نريد في إجاباتنا أن نزايد على الجمهور السائل، ولا أن نخفي الحقائق، أو نجمل صورة مجتمعاتنا، بقدر ما كنا نريد أن نوضح أن بعض النظم الغربية ليست بريئة مائة في المائة مما يحدث في الشرق الاستبدادي!

لقد حققت مبيعات تسليمة نسرين حوالي نصف المليون نسخة في فرنسا وحدها والمدهش أنها صارت سجينة للإعلام الغربي أكثر مما هي سجينة للفتوي الغبية بقتلها، ولقد صرحت أخيرًا أنها تريد أن تغير بعض آيات القرآن الكريم، وهكذا انزلقت السيدة تسليمة نسرين تحت ضغط الأعلام، فبعد أن كانت كاتبة تنادي بالمساواة بين الناس في كل الأديان وفي الدين الواحد صارت تناطح الدين نفسه، وهذه هي المأساة. وهكذا

يستمر التطرف موجودًا، بنفس الدرجة التي يساعد بها الفساد السياسي والاجتماعي في البلاد الإسلامية على وجوده. وهكذا بدا لي أنه لا نهاية لهذه الحلقة الجهنمية. الفساد السياسي في الأرض الإسلامية ينتج التطرف.

ترجمة الأدب العربي

هناك إجماع بين المتخصصين على أن الترجمات الفرنسية للآداب العربية هي أفضل وأهم الترجمات الأوربية. أولًا لدقتها، ثانيًا لوجود قارئ لها أكبر بكثير مما هو في اللغات الأخرى. ولا شك أن نصيب الأدب المصري من الترجمة الفرنسية لا بأس به حتى الآن ويزداد يومًا بعد يوم سواء من حيث عدد الكتاب أو من عدد النسخ المطبوعة أو المبيعة حيث تحقق بعض الكتب أكثر من طبعة للكتاب الواحد وهذا أمر جديد ومشجع.

لا شك أن لفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أثرًا كبيرًا في تسليط الضوء أكثر على الآداب العربية وليس نرجسية من أي نوع القول بإن في الرواية العربية الآن كشوفات وإنجازات لا تقل، إن لم تتفوق أحيانًا عن الرواية الأوربية والعالمية عمومًا، وفي الشعر العربي لدينا أصوات ذات حس إنساني رائع يمكن أن يقرأها القارئ الأوربي بنفس المتعة التي يقرأ بها شعراءه. المسألة أن الترجمة من العربية عملية شاقة ومكلفة، ودور النشر في أوربا دور خاصة يهمها في النهاية أن تربح. دور النشر الأوربية ليست ملك الدولة، ليست كما كان يحدث في الاتحاد السوفيتي زمان، والحمد لله أنها ليست كذلك وإلا لاختارت كما كان الاتحاد السوفيتي يختار !! ففي عام ١٩٩٤ هذا أصدرت دار نشر فرنسية هي «أكت سود» كتبًا لكل من صنع الله ابراهيم، محمود درويش، نبيل نعوم، وإبراهيم عبد المجيد، كما نشرت دار «سوي» لجمال الغيطاني كتابًا جديدًا.

لكن هناك من يضع بعض التحفظات على مسألة الترجمة، ويقول إن دور النشر، أو المستشرقين عمومًا، يختارون ما يرونه ملائمًا للفكرة السائدة في الغرب عن الشرق المستبد المستحل للنساء إلخ. .. والسؤال هو إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحاول نحن دعم عملية الترجمة بالأموال العربية وهي كثيرة ؟ لماذا لا ننظر للأمر من زاوية أخرى أكثر حقيقية أيضًا وهي أن المستعرب الذي يقوم بالترجمة إنما يقوم بعمل صعب حيث يعرف سلفًا أن العائد المادي من المبيعات لن يكون مجزيًا فهو إذن يخاطر بوقته وقوته أيضًا. هذا المستعرب الذي يضحي بالوقت والجهد يحتاج إلى دعم المنظمات الثقافية (اليونسكو العربية مثلًا). إن الترجمة إلى الفرنسية هي أوسع وأدق الترجمات للأدب العربي حتى الآن لأن الدولة الفرنسية تدعم عادة أو في الأغلب هذه الترجمات دعمًا ماليًا. ثم إنه مع افتراض صحة وجهة النظر القائلة بأن الأختيار يتم وفقًا لمنظور الغرب إلى الشرق ألا يؤدي ذلك إلى ترجمات أخرى فيما بعد تخرج عن هذا المنظور؟ أضف إلى ذلك أن قبيلة الكتاب لم تكتب أبدًا للترجمة حتى الآن. لم تكن سلوى بكر أو حنان الشيخ تعرف وهي تكتب أنها ستترجم إلى الإنجليزية أو الألمانية وكذلك محمود درويش والغيطاني وصنع الله إبراهيم والمخزنجي وغيرهم. إنني مضطر إلى هذا الكلام لأن اللغط فيه كثير. وكثيرًا ما يخلط البعض الأوراق فيبدو الكاتب كأنما كتب أعماله من أجل أن تترجم إلى لغات أخرى. إن كتابة من هذا النوع لا تترجم. المشكلة أننا نحن العرب وحكوماتنا الرشيدة لا نلتفت إلى أهمية الترجمة، إن تأمين أجر المترجم فقط من قبل (اليونسكو العربية) سيشجع دور النشر الأوربية على الدخول الواسع إلى أدبنا العربي

لكن حكوماتنا الرشيدة تتصور أن قراءة أوربا لآدابنا ستعطيها فكرة سيئة عنا – كأن هناك فكرة طيبة – لا يفهم أحد أن قراءة رواية أو ديوان شعر يتيح الفرصة للآخر أن يعرف «العربي» كحالة إنسانية حقيقية أكثر مما يعرفه كحالة إرهابية أو سياحية أو كحالة إرهابية أو سياحية كما هو حادث الآن.

خارج باريس

في المدن الفرنسية كانت هناك ندوات مختلفة لنا. في بوردو ومونبلييه كانت هناك أكثر من ندوة لأصلان والغيطاني قال أصلان عنها إنها كانت بعيدة عن الأسئلة السياسية داخلة أكثر في الأسئلة الأدبية، وحدثني جمال الغيطاني عن أهم الأسئلة التي وجهت إليه، ومنها سؤال عن الزمن كما يفهم من أعماله التي تتأسس على التراث، وحديثه عن رؤيته للزمن في حالة صيرورة دائمة ينتقل في نفس اللحظة إلى الماضي، إلى التاريخ.

وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى – بعد سؤال عن العامية والفصحي –. وسؤال كبير عن اللغة العربية الفصحى في تجلياتها المختلفة بين المشرق العربي والمغرب العربي، بل وبين مصر وأقطار العرب الأخري، المغربية على الخصوص. والسؤال وجيه يغري بالبحث وقد يوقع في الضلال، ومن إجابة الغيطاني أشار إلى أن هناك نصًا كبيرًا مهيمنًا هو القرآن الكريم، هذا النص يتجاوز القسمة القطرية أو الجغرافية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن محاولة إعادة ما جرى للغة اللاتينية على اللغة العربية الفصحى لن تنجح بسبب النص الأكبر الموجود من جهة ومن ناحية أخرى فإن ما جرى للغة اللاتينية لم يكن جيدًا في كل الأحوال، وبالتأكيد

كان حال الآداب والثقافة الأوربية سيكون أفضل لو ظلت اللغة اللاتينية لغة أغلب الشعوب الأوربية. على الأقل كان ذلك سيوفر المجهود الكبير في الترجمة الذي يحدث الآن من لغة إلى أخرى. على أي حال هذا السؤال المهم يتردد على استحياء الآن لكنه يمكن أن يتردد فيما بعد بقوة بسبب التغيرات الشديدة التي تشهدها اللغة العربية في المغرب الأقصى بالذات أو المؤثرات الأجنبية التي تتسلل اليها وذلك يدعو العلماء والمترجمين في الوطن العربي إلى محاولة الوصول إلى نص واحد ومصطلح واحد وأعتقد أن هذه هي القضية الغائبة عن المجامع اللغوية العربية منذ نشأتها.

إلى «أكس أن بروفانس» و«مارسيليا» سافرت سلوى بكر وبهاء طاهر ولحقت بهما في ليون، وسلوي بكر على طول الرحلة مفعمة بالحيوية والصراحة، حيوية في استقبال أسئلة الجمهور وصراحة في الإجابة إلى حد مثير، وهي الآن في أوربا كاتبة معروفة ترجمت لها أعمال كثيرة إلى الإنجليزية والألمانية وفي الطريق ترجمة فرنسية لروايتها «العربة الذهبية لا تصعد إلى السماء».

قبل ليون كنت ذهبت مع محمد عفيفي مطر إلى بلدة صغيرة تسمى «بلوا» إلى الغرب من باريس على مبعدة حوالي ثلثمائة كيلومتر حيث أقيمت لنا ندوة بإحدى المكتبات. قبل الندوة زرنا «قصر بلوا» وهو أربعة قصور ملكية بنيت في أربعة عصور متعاقبة منذ العصر الإقطاعي «القرن الثالث عشر» حتى بداية العصور الحديثة «القرن السابع عشر» نلمس فيها أربعة طرز معمارية : الفن القوطي، ثم المزيج من الفن القوطي وبدايات عصر النهضة، ثم روح عصر النهضة ثم المرحلة الكلاسيكية التي شملت القرن

السابع عشر. هذا القصر هو أكبر قصور المدينة الصغيرة التي تمتلئ بقصور الأمراء والملوك قبل الثورة الفرنسية. لقد احتل جنود الثورة الفرنسية جوانب هذا القصر وجعلوا من جناح الملة كاترين دي ميدتش مكانًا للنوم وللخيل، ولما لاحظت أن جدران الجناح الخشبية لا تزال سليمة النقش حدثتني السيدة التي تشرح لنا معالم القصر بأن أحد الأمراء أدرك خطر الثورة على هذا المكان فقام بدهان هذه الجدران الخشبية ذات النقوش الدقيقة بالجبس، وفي القرن التاسع عشر وفي زيارة لبلزاك الكاتب المشهور للقصر اكتشف هذه الحقيقة وهو يمر على الحوائط بالمصادفة وقاموا بإزالة الجص لتظهر هذه النقوش البديعة.

في «بلوا» الصغيرة هذه التي تحمل اسمها من كلمة لا تينية تعني «الذئب» تحدث عفيفي مطر باستفاضة عن تقصير الغرب في معرفة وفهم الشرق وعن النظرة المتعالية للغربي إلى الشرق وضرورة أن تتغير، وتحدثت عن الإسكندرية وعن روايتي البلدة الأخرى. دائمًا كان هناك حديث عن روايتي لأن الندوات كانت في المكتبات حيث تباع الرواية وأقوم بالتوقيع على النسخ المبيعة للجمهور. كانت هذه أول مرة في حياتي أفعل فيها ذلك. كنت كثيرًا ما أرتبك لأني أوقع لناس لم آلفهم من قبل وعلى في كل الأحوال كتابة كلمة رقيقة، وهي في أوربا مسألة طبيعية لترويج الكتاب. على أي حال في المرة الثالثة صار الأمر سهلًا وأذكر أني وقعت على حوالي عشرين نسخة في مكتبة كرونيك في ضاحية كريتاي خارج باريس وحدها.

في ليون لم يكن الأمر على ما يرام برغم أن ليون أقدم علاقة بالشرق من باريس وغيرها! بدا مستقبلونا ينفذون البرنامج على مضض. كانت

سلوى بكر وبهاء طاهر قد سبقاني إليها. وجدت سلوى مصابة بعد أن انزلقت على ظهرها أمام الفندق بطريقة جعلتها عاجزة عن حمل متاعها بالإضافة إلى الفندق المخيف الذي كان في الأصل ديرًا. كان تعليق «لوك باربوليسكو» الذي صحبني ليتحدث عني ويترجم حديثي أن هذه مدينة دخلناها بالليل وتركناها في الصباح الباكر فهذه رحلة غامضة وأمر صعب على النفس، وكان محقًا، لكن خفف عنا الجمهور الذي احتشد لنا والأسئلة التي وجهت لنا ولي شخصيًا عن اللغة والأسلوب في روايتي. شخصان فقط لم يغادرا باريس هما أحمد عبد المعطي حجازي ومحمد البساطي، كانت لهما ندوة في بروكسل في بلجيكا مع الأدباء البلجيكيين الذين يكتبون بالفرنسية ولكن منظمي المهرجان نسوا الحصول على فيزا لدخول بلجيكا لأي منهما وكان تعليق البساطي : الحمد لله أنها ألغيت لأن معلوماتي عن الأدب البلجيكي المكتوب بالفرنسية قليلة وبهذا الكلام عن البساطي ننتقل لآخر محطاتنا، نلقي نظرة على باريس وسلوكنا فيها.

موجز عن التجوال

لقد سبق لي زيارة باريس منذ عامين بدعوة كريمة من معهد العالم العربي لندوة عن الرواية المصرية، لكن لا يعني هذا أني أعرف باريس، وأني لن أندهش في زيارتي الثانية دهشتي الأولى، لكن حالي بالتأكيد يختلف عن حال البساطي ومطر وعبد المنعم رمضان الذين يزورونها لأول مرة. جمال الغيطاني وأحمد عبد المعطي حجازي هما أكثرنا معرفة بباريس (أقام فيها حجازي خمسة عشر عامًا وزارها الغيطاني خمس عشرة مرة !) كان طبيعيًا أن ننقسم صباح وصولنا ثلاثة أقسام. أنا وأصلان والبساطي مع

الغيطاني، ومطر ورمضان مع حجازي ود. لطيفة الزيات مع د. سامية محرز أما سلوى بكر فذهبت في مهب الريح. لسلوى صداقات عديدة فهي لم تتوقف عن الحركة مع ضيوفها أو استقبالهم بدءًا من مترجمات أوربيات إلى زوجات الملحقين العسكريين والسياسيين والثقافيين إلخ.

كانت كل يوم تحمل في يدها دعوي لنا إلى غداء أو عشاء في بيت سفير أو ملحق من مصر أو البلاد العربية وكلها لم نلبها لازدحام البرنامج باستثناء سهرة قصيرة في بيت الملحق العسكري المصري. في جولتنا الأولى، أسلمنا، نحن القصاصين، قيادنا إلى جمال الغيطاني الذي قطع بنا جولة كبيرة من المون برناس حيث نسكن إلى السان جيرمان وأزقته المليئة بالجاليرهات الفنية إلى السان ميشيل حيث الكتب والمكتبات إلى المون برناس مرة أخرى مخترقين حدائق اللوكسمبرج الجميلة. خرجنا في العاشرة صباحًا من الفندق وعدنا في الرابعة عصرًا بلا تعب مع أننا لم نركب أي مواصلة. في باريس يتحفز جسمك للمشي والحركة، يرفض النوم. يرفض التعب. هواء باريس يفتح مسام الجسم، والجسم نفسه يصبح طيعًا للعقل والروح. وأمام كنيسة سان جيرمان لابد أن تدخل إلى مقهى «دايجون» هذه سياحة باريسية ففي هذا المقهى كان يجلس سارتر وسيمون دي بوفوار وهيمنجواي وغيرهم، وقد وضع صاحب المقهي أسماءهم على أماكنهم. هذه عادة باريسية ذكية وجميلة. في الفندق الذي نزلنا فيه أيضًا، فندق «راسباي» وضع صاحب الفندق أسماء أكثر الفنانين والأدباء الذين نزلوا بالغرف يومًا ما. وإذا كان الفنان تشكيليًا تجد في الغرفة لوحة له غالبًا أصلية يكون قد أهداها إلى الفندق. على مقاعد الكتاب المشاهير نفسها كان يجلس كتاب آخرون. كان

أحدهم لا يكف عن الحركة وهو جالس يكتب بسرعة فائقة بحيث يرعبك إذا فكرت في الجلوس جواره أو النظر اليه. ابتسمت حين رأيته لأنه ذكرني بصورة الفنان كما كانت تقدمه أفلامنا القديمة.

برغم ازدحام البرنامج وجدنا يومًا لزيارة اللوفر، لم أزره في زيارتي السابقة لباريس. ذهبت أنا والبساطي وعفيفي مطر. يوم واحد لا يكفي لزيارة متحف اللوفر لذلك قررنا أن نركز على جناح أو جناحين، وفي وقت واحد قررت أنا والبساطي أن نركز على فنون عصر النهضة لكن عفيفي أضاف ضرورة زيارة الجناح الإسلامي. خفنا أن نقول إنه في مصر يزخر المتحف الإسلامي بما هو أكثر من اللوفر، فعفيفي كان سيتهمنا ضاحكًا بالعمالة للغرب مع أنه يعرف أننا لم نعد ندرك مع تقدم العمر والأهوال الغرب من الشرق !. وافقنا فقط لقطع شهوة عفيفي في الملاحاة والحوار أمضينا وقتًا ممتعًا مع رسوم عصر النهضة ونحتها. كان عفيفي مطر يدور متبتلًا في إعجاب حول تمثال «العبد ثائرًا» لميكائيل أنجلو، ويتأمل التمثال من أعلي ومن أسفل، والبساطي يتأمل عفيفي في دهشة ويبتسم. الحقيقة أن تمثال أنجلو فائق الروعة يكاد ينطلق من مكانه تحررًا ويكاد يصرخ صرخة الحرية لكن البساطي يحب التصوير أكثر مما يحب النحت ولا يصدق أن مطر يحب النحت ! أمام الموناليزا كانت وقفتنا الكبرى، مثل كل زوار اللوفر. ما الموناليزا؟ سؤال حلق فوقي وفي جنبات روحي وأنا أقف متبتلًا أمامها. طفل صغير يتيم يغتصب نظرة حب منك! من الطفل الصغير اليتيم ؟ هو أنا، أنا المشاهد. الموناليزا تجعلك تشعر بفداحة الظلم الواقع على الإنسان في العالم، باغتراب الإنسان ووحدته وعزلته. يا للبساطة المتناهية. يا للسخرية

العجيبة. ما معنى أن توجد في هذا الكون الفسيح، وتشعر بعد كل هذه المعارك الدامية للإنسان بالعدم ؟ هذا ما أشاعته في روحي الموناليزا وليس جمالها ولا ابتسامتها التي تدور معك ولا كونها كانت حبيبة ليوناردو دافنشي، ولا كونها لوحة لم تكتمل، ولا كون دافنشي كان مخترعًا أكثر منه رسامًا. أمام أي لوحة تجد تفسيرًا. أمام الجورنيكا أشهر لوحات بيكاسو – موجودة في أسبانيا – تجد تفسيرًا. هذه الصرخة التي تشمل كل شيء. هذا الفزع من الفاشية. لكن الموناليزا تحملك إلى الأثير، إلى السديم الأبيض، إلى اللحظة التي سبقت خلق الإنسان، إلى البرزخ بين الجنة والأرض. يا للموناليزا.

ولم يكن بالطبع يمكن لنا مفارقة اللوفر دون تحقيق رغبة عفيفي في مشاهدة القسم الإسلامي الذي من فرط تعبنا ضللنا طريقنا إليه لم يفلح اتباعنا للإرشادات ولم تفلح أسئلتنا لموظفي اللوفر. بدا أن هناك رغبة قدرية لتعكير صفو شاعرنا الكبير. في النهاية اضطررنا للخروج، وقبل آخر باب سيفضي بنا إلى الخارج وجدنا ما يشير إلى القسم الإسلامي مباشرة وبسهولة ضحكنا ودخلنا، لكن عفيفي لم يعجب بمعروضات القسم. رآها فقيرة وليست كما توقع.

ولا أحب أن أنهي هذا الحديث دون الإشارة إلى روح الدعابة التي شملت بعضنا في لقائه مع الجمهور، شاركني في ذلك الشاعر عبد المنعم رمضان وكان ذلك مفاجأة لنا. وفي إحدى الندوات المهمة جدًا، ندوة حرية التعبير التي أشرت إليها من قبل، وكان قد حضرها السفير المصري والملحق الثقافي المصري وعدد كبير من الجالية العربية لمحت مخرجة سينمائية مصرية

تسجيلية معروفة بصلاتها بإسرائيل تعيش في باريس منذ سنوات وليس لها من عمل منذ سنوات غير تشويه السلطة المصرية في علاقتها بالمثقفين. في هذه الندوة التي شاركتني فيها الدكتورة لطيفة الزيات وبهاء طاهر تعمدت تخفيف التوتر القائم وقلت إننا في مصر لا نتأخر عن إصدار أي بيان لمناصرة أي مثقف يتم الاعتداء عليه في أي مكان. إننا نصدر البيانات إلى درجة أن هناك عددًا من أصدقائنا صار يتولى مهمة إصدار البيانات وتوقيعها فور الاتصال بالتليفون. وقلت إنني في شبابي كنت أخرج في كل مظاهرة ضد أمريكا وتوقفت أخيرًا لأن أمريكا انتصرت على الدنيا كلها ويخيل لي أن خروجي في المظاهرات كان سبب هذا الانتصار! وتحدث بهاء طاهر عن رقابة الإعلام على المسلسلات التليفزيونية لأنها تصدر وتوزع إلى دول بالخليج لديها محاذير كثيرة تصل إلى حد منع تصوير رجل وزوجته في غرفة النوم. فقلت أنا إنه يمكن تصوير رجل وزوجته في غرفة النوم بشرط أن يكون معهما محرم ! باختصار خرجنا بالدعابة من الندوة الصعبة، ولم نكذب ولم نغازل المستمعين. . لكن لاحظنا أن الترجمة لا تستطيع نقل روح الدعابة المصرية. لم يشعر بها إلا من زاروا مصر أو يعرفون شيئًا من العربية مثل جاك لاكوتير الذي كان تعليقه أنه من زمان لم يزر مصر، وأنه يشعر تلك الليلة كما لو كان يجلس بين أصدقائه في مقهى مصري حميم. بالطبع هناك مواقف وفصول طريفة لا تهم القارئ كثيرًا لكن لاحظت أن وجوهًا بعينها من الجمهور كانت تتابعنا في كل ندواتنا، وكانت تحيطنا بالألفة والمحبة. كانت في معظمها وجوه نساء مصريات وعربيات اشتاقت للوجوه المصرية وللروح المصرية. وكان لافتًا للنظر أن معظم الكتاب

العرب المقيمين في باريس لم يهتموا كثيرًا بالاتصال بنا أو متابعتنا إلا في الليلة الأخيرة حين أقام معهد العالم العربي ندوة كبيرة لنا حضرها عدد كبير من الكتاب والشعراء منهم محمود درويش وهدى بركات وكاظم جهاد وآخرون. لقد أدار هذه الندوة الناقد المعروف فاروق مردم بك. وكانت الندوة لمدة ساعتين احتجت عليهما بعض الحاضرات من الجمهور وطالبت أن تمتد الندوة لأربع ساعات لكن ذلك لم يكن ممكنًا. بعدها أدخلنا المعهد بهمة بهجت بدر الدين عردوكي إلى جو عربي عريق بعشاء غزير امتد إلى منتصف الليل.

بعد أن بدا ابتعادنا كثيرًا عن الأجواء العربية من فرط كثافة البرنامج المعد لنا ومن فرط كثافة الوجود اليهودي الفرنسي في الندوات، خاصة اليهود ذوي الأصول العربية، المصرية على وجه الخصوص الذين كثيرًا ما تحدث بعضهم عن الحنين إلى مصر لكنهم بوجه عام لم يتحدثوا عن إسرائيل، إذا ببرنامج إذاعي فرنسي موجه عنوانه «شالوم» يحاول الاتصال بنا لكن لا أحد وافق على الحديث فيه. مذيعة في برنامج بانوراما فرنسية الإذاعي سألتني صراحة بعد ما أثنت على روايتي «البلدة الأخرى» ما إذا كنت أحب أن أزور إسرائيل؟ قلت: لا. أذاعت البرنامج وتحدثت حديثًا جميلًا عن الرواية وعني ثم قالت: لكنه مع الأسف لا يريد زيارة إسرائيل. كانت ليلتنا الأخيرة عربية صرفًا إذن. كما كانت ليلتنا الأولى فرنسية تمامًا، وهكذا حلت فينا المسرة في الذهاب والإياب.

أسئلة المغرب

في يناير ١٩٩٥م دعيت لحضور المؤتمر التاسع عشر لاتحاد الكتاب والأدباء العرب الذي تقرر انعقاده في «المغرب» أتتني الدعوة الكريمة مع عدد من زملائي الكتاب المصريين قلت أخيرا جاءت «المغرب» الجميلة التي طال اشتياقي إليها وكنت أظنها أبعد من المنى كنت عائدًا لتوي من باريس بعد حضور برنامج «الجميلات الأجنبيات» الذي خصص نهاية العام الماضي للأدب المصري. وكنت عائدا ممتلئا بالزهو والثقة بالنفس، وكان السؤال الأول ماذا يمكن أن أرى في المغرب يسعدني أكثر مما رأيت في فرنسا. . وكانت الإجابة الأولى هي «الألفة» فهناك لغة مشتركة في حالة المغرب تفتح لي الطريق في أي وقت.. ولكن هذا السؤال سرعان ما اختفى. ليس مهما لي أن تكون المغرب أجمل من فرنسا، أو أكثر إبهارا لروحي، لكن المهم هو أن أرى المغرب بعرامة الرغبة نفسها التي رأيت بها فرنسا. أن أصل إلى المغرب بالشوق القديم المعطر الجارف. أن أترك مشاعري الأولى تتحرك. . غابت النشوة التي خلفتها زيارتي لباريس وفرنسا، واتفتحت أبواب الروح لانتشاء جديد عصري أيضا، وقديم، عربي، أجنبي وبربري، وفي كل الأحوال، غرائبي، احتاج مني هذا إلى وقت من الصمت، وعدم الكتابة، لأنه أثار من الأسئلة أكثر مما أثار من الإجابات. وهي أسئلة أربكتني لبعض الوقت، وغمضت علىَّ أكثر الوقت، وليس عندي إجابات عليها كلها. وأود، فقط الآن أن أنقل إليك بعضا من هذه الأسئلة، وبعضا من الإجابات، ولك أن ترى الإجابات مقنعة أو غير مقنعة، بل لك أن ترفض الأسئلة من الأساس، لكن لا بد لك أن تكون على ثقة من أن ما أنقله إليك من مشاعر، صادق حتى النهاية.

المدينة البيضاء

هي الدار البيضاء، كازابلانكا بالأسبانية، أو كازا بالإيجاز المغربي، واسمها القديم، البربري «الأنفا»، وهو اسم يطلق الآن على أكثر أحيائها ثراء، أقول ثراء ولا أقول جمالا، لأنك قد تجد الجمال أيضا في الأحياء الشعبية والأسواق. فلكل جماله، وفي المغرب يتوزع الجمال، الذي تبهرك ظواهره الأولى، الأشجار، نظافة الشوارع، اختفاء رجل الشرطة، هو موجود طبعا لكن بشكل سري أو بشكل لا يبدو فيه قذى في العيون اختفاء رجل المرور، وبالتالي اختفاء أمراض الصدر عند طائفة الجنود والضباط المساكين الذين يقفون في إشارات المرور، نظافة السيارات، ندرة المشاة إلا في أماكن التجمعات الشعبية والأسواق مثل ساحة مراكش، حالة من الصمت تجلل المدينة، والمدينة بيضاء كلها، تقع على المحيط الأطلسي الذي يمتد أمامها فسيحا، ومن ثم يتسع الفضاء فوقها وحولها، يتسع الصمت المشبع بالجلال. والدار البيضاء ليست مدينة صغيرة، إنها أكبر المدن الأفريقية بعد القاهرة من ناحية تعداد السكان والمساحة أيضا. وهي المدينة الصناعية الأولى في المغرب، لكنك لا تشعر بأي درجة من درجات التلوث في الفضاء، حتى في أكثر الأماكن ازدحاما. أعني الأسواق.

لقد نزلنا في فندق بمنطقة «عين دياب» على المحيط مباشرة، والمنطقة أرستقراطية من الطراز الأول. علق عليها أحد الموجودين بأنها أشبه ببفرلي هيلز بهوليوود. لم اندهش لأني لم يسبق لي رؤية بيفرلي هيلز. أدهشني أنه لا توجد على المحيط العمارات العالية التي توجد على كورنيش الإسكندرية أو نيل القاهرة. لذلك يطير الهواء حرًا وينسكب نظيفًا يغسل بيوت المدينة

كلها. لذلك ينعم البعيد بالهواء نفسه الذي ينعم به القريب من المحيط قسمة عادلة لما خلقه الله للناس جميعا. الطريق، وحرم المحيط، مسافة عريضة كبيرة، وبعدها لا ترتفع البيوت عن دور واحد أو دورين أو ثلاثة على الأكثر، قال لي صديقي الذي رافقني في معظم جولاتي بالمدينة، لقد نجح أهل الدار البيضاء في الحفاظ على ما تركه الاستعمار الفرنسي من نظافة ونظام. قلت له قضينا على الاستعمار، نحن وهم لكننا بعد أن قضينا على الاستعمار وطردنا جيوشه من بلادنا قضينا أيضا على أي مظهر جميل خلفه، انظر إلى القاهرة إبان الاحتلال الإنجليزي والقاهرة الآن، أو انظر إلى الإسكندرية التي كانت عروس البحر المتوسط، صارت مدينة لا تطاق. قال صديقي إنه النظام العسكري، النظم العسكرية مثل الرعي الجائر لا يبقي على الخضرة..

كنت أعرف أننا نظلم كثيرا ثورة يوليو، ولما قلت لا بد أن الحرب التي شنت علينا منذ الثورة، من قبل الدوائر الاستعمارية، هي سبب هذا الرعي الجائر، قال صديقي سعيد الكفراوي وماذا تقول عن العشرين سنة التي مضت بعد حرب أكتوبر، عشرين سنة من السلام خربت فيها الزمم والنفوس وقام فيها الأغنياء – كدت أكتب الأغبياء – الجدد بتدمير كل مظهر جميل. قلت هؤلاء ليسوا ثوار يوليو. قال هم الذين أتوا بهم : قلت على العكس. هؤلاء الذين اغتالوا الثورة أشاح بيده وقال هه «حتكابر خلينا نمشي» ومشينا. كنا في الطريق إلى جامع الحسن الثاني. المسافة بين الجامع وبين الفندق تستغرق أكثر من الساعة مشيا وكنا نمشيها كل يوم بلا أي تعب على كورنيش المحيط. ولم أجد تفسيرا لهذه القدرة على المشي

بلا تعب إلا نقاء الجو وكثرة الأوكسجين. أي قلة التلوث أو انعدامه وفي كل مرة أصل فيها إلى الجامع مرتاحا أشعر بصحة كلام صديقي، إلى حد كبير وأسكت.

الجامع الكبير

هو أكبر جوامع المسلمين الآن، ومما يبهرك هو أنه تم بأيدي الصناع المغاربة، ويقال إن المهندس الفرنسي الذي قام بتصميم الجامع وفنائه الداخلي والخارجي، يقال أنه قد نظر في جميع تصميمات الجوامع الشهيرة في العالم الإسلامي، من جامع السلطان حسن في مصر حتى أيا صوفيا بتركيا ليأتي بمسجد مختلف وقد كان. ففي مسجد الحسن الثاني اجتمعت الحرف التقليدية مع القدرات الهائلة التي تقدمها التكنولوجيا الحديثة لنظريات البناء. ولم أندهش حين عرفت أن هذا المسجد الكبير قد تكلف مليار دولار، أو مليارين في بعض الأقوال. وإن كنت لا أصدق هذا الرقم، والأقرب أن يقال مليار فرنك فرنسي أو حتى مليارين ولم يضايقني أن الشعب المغربي كله، بجميع طوائفه، قد ساهم في بناء المسجد سواء كان ذلك قسرا في معظم الأحوال كما يقال، أو طواعية، ففي النهاية نحن أمام جامع فائق الروعة المعمارية، ومكان عبادة، وأثر سيبقى حاملا اسم الملك الحسن وفي الوقت نفسه معلما، لعله أهم المعالم، في الدار البيضاء. في هذه المرة لم أسأل صديقي عن دلالة هذا البذخ في بناء المسجد، ولا الطريقة التي تم بها توفير الأموال، لأنه ببساطة شديدة، لم يقل لنا أحد حتى الآن أنه لم يكن في بناء الأهرام شيء من الإجبار. على جدار المسجد من الخارج لوحة رخامية تعلن أنه تم بأيدي مغربية كنوع من الفخر، وهو فخر بلا

شك، وبالخارج والداخل معا لوحة رخامية ضخمة عليها نسب الملك الحسن الثاني الذي يعود به إلى الحسن بن على بن أبي طالب رضي الله عنهما. والسؤال الذي قفز إلى ذهني هو محاولة بعض الملوك أو الرؤساء وصل نسبهم إلى آل البيت. بالتأكيد لا يشك أحد في نسب الملك الحسن الثاني، ولا نسب الملك حسين ملك الأردن أيضا، لكن لماذا حاول الملك فاروق عمل ذلك في مصر من قبل؟ ولماذا؟

فعله صدام حسين في العراق وصار رسميا؟ إن السحر التاريخي، والقيمة الدينية الجاذبة لأهل بيت الرسول شيء له أثره الأكيد في نفوس الشعب العربي، ولكن بشرط أن يكون حقيقيا كما هو في المغرب والأردن. لعل ذلك يفسر حب غالبية الشعب للملك، في المغرب أو الأردن، ولعل ما يفسر هذا الحب أكثر هو نجاح الملوك في النأي شعوبهم عن المغامرات السياسية والعسكرية. أليس مدهشًا أن يكون دخل الفرد في المغرب أعلي من دخل الفرد في مصر، بل أليس مدهشا أن يكون دخل الفرد في الأردن أعلي من دخله في مصر. لن أحدثك عن المملكة العربية السعودية لأنك تعرف مصادر الدخل هناك وقلة عدد السكان لكن لعلك فهمت ما أخفيته عنك. أقصد لماذا نجح الملوك في جعل بلادهم نظيفة ومظاهر الفقر فيها أقل؟ لقد شاهدت في طريقي إلى المسجد منطقة كبيرة على شاطئ المحيط مباشرة من البيوت الفقيرة محاطة بسور يحجبها تماما مثل السور الذي يحجب منطقة بولاق الدكرور عندنا، لكن لا أحد فكر في طرد هؤلاء الفقراء من على الشاطئ الجميل، ولا نقلهم بعيدا عن المدينة، تركوا في المكان الجميل، لم يفكر أحد في بناء عمارات وفيلات استثمارية مكانهم! على

الأقل حتى زياراتي هذه قال لي صديق أخر إن الملوك كانوا دائما على علاقة وثيقة بالغرب الذي جاهد ليحتفظ لبلادهم بنظافتها ومستوى معيشة أفضل حتى تعرف النظم الجمهورية التي ركبت حصان الثورية إلى أين انتهت، ويزداد فيها الندم !. الغرب الذي حافظ على هذه النظم هو نفسه الذي استدرج عبد الناصر إلى حرب ١٩٦٧م وهو الذي استدرج صدام حسين إلى فخ الكويت وهو الذي ترك الحبل على الغارب للعقيد معمر القذافي فعاد الليبيون إلى الحياة على لبن الماعز والغنم. ووجدت نفسي أسأله إلى هذا الحد كان تخطيط الغرب؟

ونحن ألم نخطئ في شيء قط؟ لم يرد صديقي. وترك السؤال معلقًا. وتركني أمشي في الشوارع الشعبية أتفرج على المنتجات الزراعية المغربية فأجدها أفضل وأشهى من منتجاتنا نحن أهل الزراعة وأهل النيل، وفي الطريق إلى مراكش حوالي خمسمائة كيلومتر، لم تنقطع الخضرة، لكن لذلك حديث سيتأخر قليلا، ونحن نقتحم الصحراء ونتحدث عن التصحر الذي يهاجم وادي النيل. لا تقل لي إن المغرب بلد قليل السكان – حوالي ثلاثين مليون لأني سأقول لك إن المغرب رقعة أرض صغيرة، وثرواتها أقل من ثروات مصر، لا تقل لي إن المغرب تقع على البحر المتوسط والمحيط لأني سأقول لك إن مصر تقع على البحر المتوسط والبحر الأحمر وبها خمس بحيرات كبيرة نجتهد طول الوقت في ردمها وتخريبها دون خوف من الله الذي خلق من الماء كل شيء حي. لقد وجدت وجودي في المسجد الكبير فرصة للصلاة والدعاء على المفسدين في الأرض. والدعاء للصالحين من أبناء الوطن. هذا هو ما بقي لي. . لم أعد قادرا على مقاومة المفسدين،

ولا العمل مع الصالحين. يخيل لي أني كلما اشتركت في مقاومة شيء ازداد شراسة ونجاحا من فرط ما قاومنا وما حدث من كوارث. أذكر أنني أثناء حرب الخليج جاءني أحد الشباب وقال لي إن الطلاب في الجامعة يقومون بمظاهرة ضخمة لكن قوات الأمن تمنعهم من الخروج إلى الشارع. . سألته ماذا يريد مني قال أن أنهض لأشارك مع الطلاب، هذا واجب على الأدباء والفنانين. ابتسمت وقلت له الحقيقة المرة إنني لا أستطيع أن أفعل ما يريد لأني ولطوال ربع قرن أشارك في كل مظاهرة ضد الأعمال الأمريكية أي ضد أميركا، وكانت النتيجة في النهاية أن أميركا أصبحت القوة الأولى في العالم. قلت له ربما لو امتنعت أنا بالذات عن الخروج في مظاهرة ضد أميركا انهزمت أميركا وتقهقرت وظل الشاب ينظر لي مبهوتا ثم ضحك مع الضاحكين ممن كانوا يجلسون معي. قلت له بعد ذلك أنا الآن من حزب التوقيع على البيانات. إنني أساهم في التوقيع على أي بيان ضد الباطل ومع الحق، ويستطيع أي شخص يحرر بيانًا من هذا النوع أن يضع اسمي دون أن يستشيرني، وهذا يحدث كثيرا. على أني لا أريد أيها القارئ أن أصيبك بالسأم الذي أصاب جيلي. دعنا مع دهشة الأسئلة المغربية.

الجامعة. ترمومتر المستقبل

أجل، لو أن لدى أي دولة من الدول، أجهزة قياس رأي دقيقة تستطيع دراسة آراء طلاب الجامعة، لعرفنا شكل المجتمع في المستقبل، أو عرفنا الكثير عن توجهاته. طلاب الجامعة هم مثقفو الطبقة الوسطى وصناع الرأي العام في المستقبل وقادته، خصوصًا في دول تتسع فيها مساحة العلم والمتعلمين مثل مصر والجزائر والمغرب وسوريا والعراق وتونس.

وفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك في الدار البيضاء كانت ندوات المؤتمر التي شغلت ثلاثة أيام في الصباح والمساء حضرت معظمها. لم يشغلني كثافة الحضور الطلابي فالطلاب عادة ما يأتون برغبة أساتذتهم، أو حبًا في الاستطلاع خاصة أن المتحدثين في الندوات من أكثر من عشر دول عربية. ولقد استمتعت واستفدت كثيرًا أنا شخصيا من الأبحاث التي القيت في المؤتمر خاصة أبحاث د.محمد برادة وعبد الفتاح كليطو وبنعيس بوحمالة ومحمد لطفي اليوسفي – الثلاثة الأول من المغرب والأخير من تونس وتستطيع أن تضم لهم سعيد يقطين وحميد الحمداني الذي أسعدني الحظ بسماعهما أيضا، وطراد الكبيسي من العراق – من زمان لم نسمع شيئا من العراق لذلك جاء صوت طراد محملا بالجدة النقدية باعثا على الحنين إلى العراق وأصدقائي هناك – ولن استطرد في الحديث عن المساهمات النقدية للضيوف لأني كما قلت لك لن أتحدث عن المؤتمر كثيرا هذا برغم أن حديثي عن الأبحاث والنقاد سقط سهوا من المطبعة في المقال الذي نشرته من قبل عن المؤتمر في مصر في جريدة أخبار الأدب لكن سعادتي كانت غامرة بالتعرف على «عبد الرحمن الأهدل» من اليمن. كل يمني يحمل خصائص الأمة اليمنية، في الوداعة والذكاء، وعبد الرحمن الأهدل لخص لي ذلك بامتياز. لم يسعدني الحظ بسماع أحمد اليبوري من المغرب ولا صديقي عبد القادر الشاوي الذي لا أعرف لماذا كان فاروق عبد القادر مُصرًّا أن يسألني أمامه أقصد أمام عبد القادر ما إذا كنت أعرفه أم لا. . ولم يسعدني الحظ بسماع بقية المشاركين في المؤتمر لكن قراءة عامة للأبحاث وعناوينها تكفي للاطلاع على مدى الجدية لكن الجدية الحقيقية كانت في جماهير الطلاب

التي حضرت وحرصت على حضور الندوات باستثناء يوم الجمعة. . يوم الجمعة ؟! لماذا ؟ لأنه يوم عمل في المغرب، التي لا تزال تتعطل في الآحاد. مثلنا في مصر قبل الثورة عام ١٩٥٢.. وأن يقاطع الطلاب المحاضرات يوم الجمعة، ويكون حضورهم نادرًا أمر يستحق التأمل. والإجابة بسيطة هي أن التيار الأصولي يسري ببطء بين طلاب الجامعة. كان يمكن لهم حضور الندوات بعد الزوال. لكنهم لا يفعلون ذلك أيضا يوم الجمعة. التيار الأصولي يسري حثيثا في الحقيقة. لقد ألقيت كلمتي، مشاركتي المتواضعة في الأبحاث في يوم كان فيه الدكتور محمد برادة وبنعيس بوحمالة وسعيد السريحي من السعودية. لقد كان يوما نقديا حافلا وعامرا. كان اليوم التالي مباشرة. وكان يوم الجمعة، وتأخرت الندوة إلى ما بعد الزوال.. إلى المساء حتى صار الحضور كبيرا، وألغيت الندوة التالية لها. وكان من نتيجة هذه الندوة أنني أمضيت اليوم الثالث كله، ومعظم الأيام بعد ذلك بين الطلاب. في الجامعة أو في الفندق أو في الأمسيات الشعرية لا يكفون عن توجيه الأسئلة لي من كل نوع. أول ما لاحظته هو ارتفاع مستوى الأسئلة، وأن اللغة الفرنسية التي يجيدها جميع الطلاب تفتح لهم أفاقا كبيرة من المعرفة الإنسانية. وتساءلت في نفسي لماذا حقا ألغيت اللغة الإنجليزية من المدارس الابتدائية عندنا؟ لماذا اعتبرناها لغة استعمارية فأصبحنا حتى ندرسها بلا اهتمام ؟ ألم يكن ذلك خطأ كبيرا. الآن هناك محاولة لاستدراك الأمر ستعود اللغة الإنجليزية إلى المدارس الابتدائية وسيحتاج الأمر إلى وقت حتى يكون لدينا كوادر التدريس المناسبة والحقيقية. المهم أن تعود. لقد أهملنا اللغة الإنجليزية دفاعا عن اللغة العربية لكن نظمنا التعليمية

أضاعت اللغتين معا، إن اللغة الفرنسية في المغرب تستشري وتفتئت على العربية هذا حقيقي، لكن أرجو أن لا يكون الحل إلغاء الفرنسية بل التقدم في العربية. والمغرب يحتاج إلى ذلك حقيقة. لم يفتنني إذن معرفة الطلاب بالفرنسية ولم أكره ذلك لكن الذي أثارني هو أن كثيرا من الأسئلة كانت عن الحل الإسلامي لمشاكلنا العربية، ألا يكون أفضل من الحلول المطروحة أو التي سبق طرحها في العالم العربي؟! قطاع كبير من الطلاب يسأل في ذلك برومانسية حقيقية، بجموح الشباب وعفويته وبلا عنف. لذلك اندهشت كثيرا من العنف في الحوار الذي قوبلت به مداخلة محمد لطفي اليوسفي « فتنة المتخيل وسلطان القدامى» لكنه كشف لي عن الوجه الآخر المستتر للظاهرة. أن التيار الأصولي كامن يكتسب أنصارا ولا يتأخر في الإعلان عن نفسه إذا دعت الحاجة. ومداخلة اليوسفي تناصر المحرم والإباحي والمتخيل. والسؤال الآن هل ينجح التيار الأصولي شيئًا فشيئًا في احتلال المشهد المغربي. هل يمكن أن نفقد المغرب فتكون الجزائر ونستمع إلى «محمد الأشعري» الشاعر المغربي ورئيس اتحاد الكتاب في بلد آخر يلقي بكلمة موجعة بليغة عن الحال التي وصلت إليها أوطاننا وعن مأساة الكتاب في الجزائر، أقصد المغرب !! لقد كانت كلمة الأشعري من أبلغ ما قيل في الافتتاح، بالضبط كما كانت مداخلة محمد برادة وعبد الفتاح كليطو، فضلا عن الحضور الجميل لمحمد برادة كشخص. كفنان. حضور فيه دماثه المدرك للروح الإنساني فلا يبدو أبدًا من الحديث مع برادة أنه يعرف حديث الانتقام أو الغضب. وحضور فيه عمق وصدق. لمحمد برادة في مصر مساحة كبيرة من الحب وأنا واحد من سكان هذه المساحة. أعود

لأقول ما الذي يجعل التيار الأصولي يشتعل بطول الوطن العربي. ولماذا هو أكثر في نظم الحكم الجمهورية ؟ لاحظ أن المغرب لم تصل إلى أن تكون الجزائر أو مصر أو سوريا من هذه الزاوية. يمكن أن تقول لي إن النظم الملكية تستخدم القمع من أول مواجهة. وأوافقك وأسأل وماذا تستخدم النظم الجمهورية؟ إذن لا مناص من الاعتراف باختلال ميزان العدل أكثر في معظم النظم الجمهورية أكثر مما هو في النظم الملكية العربية. إن كل ما هو مطروح من وسائل لمقاومة هذا المد الأصولي، بما فيها الحوار والنداء بإطلاق حرية تكوين الأحزاب الدينية لن يفيد في تقليص هذه الظاهرة كما يفيد العدل وإشاعة العدل أو العمل من أجل تحقيق أقصى درجاته. والعدل لا يعني المساواة أمام القضاء فقط ولكن يعني التنمية وإيجاد فرص عمل ورعاية صحية حقيقية لدافعي الضرائب ورعاية تعليمية إلخ مما يتمتع به دافعوا الضرائب في النظم الديمقراطية.

سؤال القراء / الكتابة

لعل هذا من أهم الأسئلة. في المغرب حركة قراءة. لا تسألني هل يقرأ الرجل العادي لأن الإجابة هي أن الرجل العادي لا يقرأ في الوطن العربي كله. المواطن العادي إما أمي وإما جالس أمام التليفزيون. أنا أتحدث عن فئات المتعلمين.

وما دام في المغرب حركة قراءة فهناك أيضا حركة كتابة. حالة كتابة خصبة ومتطورة ونحن منذ وقت طويل نعرف أسماء مغربية مهمة في سماء الفكر العربي. محمد عابد الجابري وعبد الله العروي مثلا وفي سماء النقد العربي،

محمد برادة وعبد الفتاح كليطو مثلا ومنذ الستينيات وصلتنا كتابات قصصية لمحمد زفزاف وإدريس الصغير. وتتوالي الأسماء في المغرب، وعلينا، منها أسماء لنقاد ذكرتهم فيما مضى من حديث وأسماء لنقاد لم أذكرهم مثل عبد الحميد عقار الذي كان له حضور شخصي تنظيمي جميل في المؤتمر ومبدعين لم أذكرهم مثل ميلودي شغموم وسالم حميش. للأول رواية جميلة ليست معروفة لدينا هي «عين فرس» وللثاني رواية جميلة ومعروفة لدينا هي «مجنون الحكم» وللاثنين أعمال أخرى بديعة تنضم لأعمال زفزاف وبرادة. والحقيقة أن قائمة المبدعين في المغرب كبيرة ولا بد أن أسماء ستسقط مني، واكتفي أن أضيف أسماء شعيب حليفي ومحمد الشرقي في القصة والرواية أما قائمة الشعراء فهي أيضا طويلة. ابتداء من محمد بنيس حتى عبد الدين حمروش والسؤال هو هل يمكن أن تتصدر المغرب المشهد الفكري والأدبي في حياتنا العربية؟ الملاحظ أن هناك أيضا حركة ترجمة نشطة، وأننا هنا في مصر نقرأ بشكل جيد ما تفرزه المطابع المغربية – يعرف ذلك أصحاب دور النشر المغربية في معرض الكتاب السنوي بالقاهرة. لا بد – والذي يلاحظ مجلاتنا المصرية يجد هذا الحضور الكثيف، نقديا وفكريا بالذات في مجلة كبيرة، قيادية، مثل فصول. وفي حياتنا النقدية المصرية كثيرًا ما نسمع حديثا من نوع «كتابته متأثرة بالكتابات المغربية». عندما يدور الكلام حول مقالة نقدية صعبة لأحد النقاد الشباب. والمهم هنا هذا التأثر ولا تقف كثيرا عند الصعوبة أو السهولة والحقيقة أن تأثير الحركة المغربية الفكرية والنقدية أو على الأقل تداخلها، في ثقافتنا المعاصرة أمر ظاهر ولا يمكن إنكاره. يختلف الأمر كثيرا في تأثير الإبداع. الإبداع المغربي محل تقدير كبير في مصر، وهو

مقروء، لكنه لا يؤثر نفس تأثير الفكر والنقد المغربي. ليس لأنه أقل من الإبداع المصري، ولكن لأن الإبداع المصري أكثر اتساعا. وهذه المسألة لا تخص المغرب فقط، بل تخص كل الدول العربية فأنت تستطيع أن تجد كاتبا أو اثنين أو ثلاثة أو خمسة من الطراز الأول في كتابة القصة مثلا في بلد ما لكنك في مصر تجد عشرة أو أكثر. طبعا التعداد وكم المتعلمين يلعب دورًا أساسيا هنا، لكن النتيجة التي تصلك بقوة أن الهوامش، تلعب دورا جاذبا للمركز في كثير من الأحيان، أو على الأقل هناك نوع من الاكتساب الثقافي بين الاثنين. والحقيقة أن الإنتاج الإبداعي العربي الآن، أقول العرب على العموم، صار يشكل تحديا للإنتاج الإبداعي المصري. المشكلة هي أن كل دولة عربية على حدة لا تستطيع أن تقدم ما تقدم مصر. والسؤال هنا هو أنه قد حان الوقت، وغالبًا منذ سنوات لا نتحدث عن دور ريادي واحد لدولة واحدة. وإذا تذكرنا حجم اهتمام الطلاب في جامعات المغرب بالثقافة بوجه عام، وكثافة اتصالهم بجديد ما تنتجه أوربا، وفرنسا خاصة، ونفس الأمر يحدث ولو بدرجة أقل في تونس، وسيأتي يوم تعود فيه العراق إلى الساحة الثقافية بقوة، إذا تذكرنا ذلك كله ونظرنا إلى كثافة الحركة الإبداعية في بيروت، وفلسطين، وسوريا، وبحثنا عن كتاب أصلاء وهم كثيرون في ليبيا، يكفي أن أذكر لك الكوني والفقيه من المبدعين وعلي فهمي خشيم من المفكرين وعدد كبير من شباب الكتاب وإذا أيضا تذكرنا أنه في السعودية حركة شعرية وقصصية فتية رغم كل القيود المعروفة وأن الأردن لها إسهامها وإن بحالات قليلة، أمجد ناصر مثلا بلور لنفسه طريقا في الشعر مميزا، ويلقي بظله شيئا فشيئا على شباب الشعراء، والأصوات

في القصة عديدة من إلياس فركوح وإبراهيم نصر الله إلى بسمة النسور، ويمنعني عجزي عن التمييز بين الأردنيين والفلسطينيين من ذكر أسماء أخري فقد تكون فلسطينية وأنا لا أعرف أو العكس. . على أي حال العالم العربي صار يغلي بالإبداع وإن كان لا بد من مناطق متميزة بعد القاهرة فهي بيروت ودمشق والمغرب والعراق المؤجل. لا نستطيع أبدا أن نضع المغرب الآن في غير المقدمة.

سؤال مراكش؟

الطريق إلى مراكش من الدار البيضاء يستغرق وقتا طويلا. حوالي خمس ساعات. وهو طريق لا تفارقك فيه الخضرة. وعندما بدأت تظهر البيوت الحمراء عرفنا أننا اقتربنا من المدينة العريقة. مراكش تعني المغرب، والمغرب تعني مراكش. هكذا في وجداننا نحن أبناء الشرق. مراكش ليست مثل الدار البيضاء إذن. مراكش لها في القلوب حضور التاريخ. قيامة الماضي. مراكش لا تثير أسئلة في العقل. تثير اضطرابا في الروح. حالة من جيشان الشعور تنذر ببكاء صامت أو تبشر ببكاء صامت. بكاء يأتي من الانتشاء العميق بالمكان والناس. مراكش تجربة روحية حسية صوفية فوق حدود العقل. مراكش تجربة كتابة فنية. السؤال هو لماذا كل هذه المشاعر التي تهدر فجأة في قنوات الروح على أبواب مراكش؟والإجابة لا يمكن أن يقدمها العقل. تقدمها الروح نفسها في استسلامها لأنفاس المدينة القديمة. لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بعمل فني. قصة في حالتي، ومن ثم أحتاج إلى وقت أكثر. إذن أكتفي الآن بما تقدم من أسئلة وأختزن لنفسي «مراكش» بعض الوقت.

بواتييه ـ بوردو

عن القراءِ والرقص أيضًا

في بواتييه..

ماذا يقرأ الكتّاب؟ عنوان طريف لمؤتمر جاد ينعقد في جامعة بواتييه بفرنسا منذ عشر سنوات الآن ويحضره في كل مرة عدد ممتاز من كتاب العالم. ولقد حضرته أنا عام ١٩٩٩م وجرت وقائعه في الفترة من ١٦إلي ٢٩ نوفمبر مع عشرين كاتبًا هم «جلبرت آدير» من إنجلترا «وميشيل ديجوي» من فرنسا و«ألفريد كوللبريتش» من ألمانيا و «روبير لافون» من فرنسا و «بير نارد شلنك من ألمانيا» و «فرانك فينالي» من فرنسا و «هيلين زاهافي» من إنجلترا و «إريك كورمبير» و «جيرالد ليبلانك « من كندا وغيرهم، ولقد سبق لهذا المؤتمر الجاد أن استضاف في سنواته السابقة من الكتاب العرب أدونيس والطيب صالح وصنع الله إبراهيم ومحمد شكري وإلياس خوري وهدي بركات وعبد الوهاب البياتي، ولقد كان من أبرز ضيوفه هذا العام الروائي وكاتب المسرح الفرنسي الذي يكتب بالفرنسية والأوكسيدانية.. لغة منطقة في جنوب فرنسا، «روبير لافون» الصديق المحب للعرب والمناصر للقضايا العربية وبالذات القضية الفلسطينية، وكذلك كان من أبرز ضيوفه الشاعر الفرنسي «فرانك فينالي» الذي افتتح المؤتمر بلقاء معه ألقى فيه بعضا من قصائده، ومن دواوينه المشهورة في فرنسا «لماذا تبكي، قل، لماذا تبكي؟ لأن السماء زرقاء. لأن السماء زرقاء». ومن كتبه «الحرب الجزائرية» كتابة ضد الأب والإنسان في حرب وهو كاتب وشاعر معروف باحتجاجه ضد العنف والقهر. وهو من مواليد ١٩٣٦م في أحد أحياء باريس الشعبية وكثيرا ما تتردد في شعره ذكريات باريسية وللأسف قد أصيب بالفترة الأخيرة بسرطان في الدم مما لون شعره وكتاباته

ولقد تحدث عن هذا العالم الذي يتعذب فيه الإنسان مما يدهشه أو يخيفه أو يواجهه وتحدث عن تجربة قراءته للصحف في المصحة، صحيفة مثل «الإيكيب» أو «الموند» أما «روبير لافون» فهو كما قلت كاتب مسرحي وروائي وشاعر أيضا ومحب للعرب وتمثل أعماله مكانة ممتازة في الأدب المعاصر وكذلك كتاباته النقدية ومقالاته، وهو شخص يتمتع بحس فكاهي جميل في ردوده ووجه بشوش ودود تشعر أنه صديق قديم لك، وهو كما قلت من أقليه تتحدث الأوكسيدانية في فرنسا، وهي لغة قريبة من القطالونية في أسبانيا وهو يكتب بها كما يكتب بالفرنسية، ولقد كان أكبر الموجودين سنًا، فهو من مواليد ١٩٢٣م إلا أنه كان يبدو متمتعا بحيوية وافرة لمثل من هم في سنه، ولقد حفلت ندوته بجو بديع من الاحتفاء حيث تناوب عدد من تلاميذ وتلميذات الجامعة على قراءة مشاهد من مسرحياته، ومسرحياته المؤلفة بالأوكسيدانية تصل إلى أكثر من عشر مسرحيات كما تتجاوز رواياته العشرين رواية منها رواية «العيد» لافيستا التي تتجاوز الألف صفحة. ولقد تحدث عن أهمية القراءة له وحتى وهو في هذا السن، وكيف أن قراءاته متنوعة باعتباره مؤرخًا أيضا للأدب وللغة وللجغرافيا الاقتصادية فهو لا يهمل أبدا ما هو جديد في هذه الموضوعات ومن أهم ما يقرأ وفي مقدمة قراءاته الكلاسيكيات اليونانية واللاتينية دائما وبالطبع شعراء التروبادور الذين لولا أصواتهم القديمة لم يكن ليصبح هو أبدًا.

أما «جلبرت آدير» فلعله كان أهم الضيوف من القارة الأوربية، وهو كاتب إنجليزي مرموق له أربع روايات هي «حب وموت في جزيرة بعيدة» و «الأبرياء المقدسون» و «موت المؤلف» و «مفتاح البرج» آخر ما

صدر له عام ١٩٩٧م. وهو يعيش في لندن ويكتب في صحيفة «الصنداي تايمز» و «الإسكوايز» ويحول قصصا عالمية للأطفال وله دراسات سينمائية وترجم عن الفرنسية أشعارا لسان جون بيرس كما ترجمت له عدة أعمال إلى الفرنسية، وبشكل عام يعد جلبرت آدير كاتب الكتاب كما يقال في الإنجليزية. ولقد تحدث عن رواج الأعمال العاطفية وسهلة القراءة وهي الأعمال التي تفوز بجوائز الصحافة في بلاده وتحدث عن اقتراح بجائزة للروايات الصعبة ذات الحبكة كثيرة التعقيد، وتحدث عن تاريخ الحبكات الروائية المعقدة منذ سر ألمونت كريستو حتى اسم الوردة لأمبرتو إيكو الذي استفاد من ذلك. وهكذا كان حديث جلبرت عن الكتابة أكثر منه عن القراءة، وتحدثت أنا عن القراءة كفعل نجاة لكاتب مثلي في بلد معين من العالم الثالث أو ما اصطلح على تسميته كذلك. فكما أن الكتابة فعل نجاة، في كثير من فوائدها شفاء من التوتر والقلق الذي قد يعصف، بل يعصف بالكاتب في مجتمعاتنا، فكذلك القراءة لأنها تتيح للكاتب فرصة الوحدة، والعزلة، لكن وشأني في ذلك مثل كثيرين، لم أستطع أن أقرأ أدبا خالصا فقط، بل امتزجت قراءاتي بالفلسفة والتاريخ والعلوم الإنسانية التي درستها عن قرب، والأهم من ذلك أن القراءة في السياسة والاقتصاد نالت جانبا من الحظ خاصة في مقتبل العمر. الآن أقرأ أكثر السير والتراجم والشعر والرواية وبعض الكتب التي لا تنفد متعتها مثل ألف ليلة وليلة وكتاب لا أحاول أبدا أن أفهمه لأبي العلاء المعري وأقرأه كثيرا لأستمتع بإيقاعاته الموسيقية في لغته الصعبة ألا وهو كتاب الفصول والغايات. من الممكن جدا أن أفهمه لكني لا أحاول، وأكتفي بالصوتيات فيه. وتحدثت

عن القراءة في بلادنا وكيف أن القراء عندنا يقرأون الآداب العالمية التي تصل إليهم، وليس لدينا إحساس بالامتلاء الذي هو عند الأوربي الذي قد لا يهتم كثيرا بآداب الأمم الأخرى. نحن نقرأ أدب الغرب والشرق، بل إن أدب الشرق وأميركا اللاتينية وأفريقيا صار يأخذ مساحة كبيرة الآن في قراءات الكتاب..

أما ميشيل ديجوي فهو شاعر ومترجم وباحث فرنسي من مواليد ١٩٣٠ وقد ترجم أعمالا فلسفية لهيدجر وبول سيلان وترجم من الأدب الأميريكي وأسس مع «جي.بي. جومي» مجلة للشعر وترجم فيها لدانتي وهولدرلين وكتب مع جي. بي. ديبي «كتاب رينيه جيرار ومشكلة الشر» وهو عضو في أكثر من هيئة ثقافية فرنسية وترأس أكثر من مؤتمر للشعر الفرنسي وهو رئيس اتحاد الكتاب منذ عام ١٩٩٢م. وله دواوين كثيرة نشرت أغلبها في جاليمار وحازت على جوائز عديدة فرنسية مثل جائزة فينيون عام ١٩٦٠م وجائزة ماكس جاكوب ١٩٦٢م وجائزة مالارميه عام ١٩٨٥م ومن دواوينه «أفعال» و«تشكيل» وقصائد الستينيات، وتحدث عن اختفاء الكتاب. هذه العلبة الصغيرة بين يدينا أو مركونة في مواجهة الحوائط. لقد صارت المكتبة عجوزا. هو يتحدث عن مكتبته العجوز. وتحدث عن أصدقائه القدامي في الكتب، إرجون، وفاليري وكلوديل وألكسيس ليجيه وتراكل. لقد مر وقت طويل عليه وتغير كل شيء فيه إلا الضمير الذي هو يتفاعل مع الزمن ليظل موجودا وتظل هناك إمكانية دائمة لاكتشافه بالقراءة. إن زمن القراءة يبحث عن الحقيقة. وزمن بروست هو زمن كاتب يبحث عن سنوات الأسلوب الجميل أليست المعرفة هي معرفة

القراءة؟ يتساءل والإبداع إبداع كتاب؟ والقراءة قراءة المعرفة والأعمال المبدعة من قبل الكتاب «إنها حقا لدائرة جميلة. أن معرفتي هي من خلال الكتب، وأنا لا أعرف أبدا الفعل أو العمل، وإذا قدر لي أني بقيت وحدي في عالم دمرته الكارثة كما يحدث في الأفلام فلن أستطيع أن أعيد فعل ما تم فعله. لقد انتهى الإنسان الصانع..» أما هيلين زهافي ((المولودة في لندن لأبوين يهوديين جاءت فيها الأم من أوديسا بروسيا وجاء الأب من بولونيا ووصل كلاهما إلى إنجلترا أثناء الحرب العالمية حين هاجمت ألمانيا بولندا، لقد درست هيلين الروسية في إنجلترا وعملت بالترجمة وأصدرت روايتها الأولي «عطلة نهاية الأسبوع القذرة» عام ١٩٩١م. التي ترجمت إلى عدة لغات ثم حولت إلى فيلم سينمائي أخرجه ميشيل واينر عام ١٩٩٣م ثم أصدرت روايتها الثانية «قصة حقيقية» عام ١٩٩٤م ثم رواية «دونا والرجل السمين» عام ١٩٩٨م. وفي هذه الروايات تتجلي العلاقات بين الجنس والإرادة. تحطيم التابوهات والأنماط المستقرة والعنف الموجه إلى المرأة. . ولقد قدمت هيلين قراءتها بوصفها قراءة للمدينة كما هي قراءة للكتب. مدينة لندن بالتحديد. فالمدينة مثل النص يمكن قراءتها تماما. قراءة أبنيتها واستعارتها وجملها اللغوية الحضرية حين يعبرها المرء بالسيارة ويتجول في أحيائها أو يغوص في عجائب المترو تحت الأرض. إنها قراءة مليئة بالخوف والبارانويا. لكن هذا هو ما تعود عليه الشخص ويعرفه ومن ثم فهو ينساه لكنها تحافظ على هذه القراءة بقدر الإمكان كما يحافظ الإنجليزي على قراءة باريس حين يأتي لزيارتها أو للتعلم فيها فهو يرى شوارعها جيدا ومتاحفها وتنسيق أشجارها وطعم الحرية فيها وهكذا..

من كندا، من المنطقة الناطقة بالفرنسية كان هناك كاتبان. إريك كوريه وكان أصغر الشعراء سنا فهو من مواليد ١٩٧٩م، وجيرالد ليبلانك الذي نشر أول مجموعاته الشعرية عام ١٩٨١م وله حتى الآن ست مجموعات شعرية والاثنان من منطقة «برونزفيك الجديدة»

لكن الأول من مدينة روبرت فيل والثاني من مدينة بوكتوش ومنطقة برونزفيك تقع في إقليم أكاديا بكندا. يقول جيرالد ليبلانك أن تقريره عن القراءة سيكون متوحشا فهو من مواليد أميركا الشمالية في قرية بوكتوش في قلب قرية أكادية وهي طبعا غير أكاديا القديمة بالعراق – وهي قرية صارت مشهورة بعد رواية للكاتب «أنتونين ميليه» عنها لكنه ولد في منزل فقير كان خاليا تماما من الكتب وعندما بدأ يقرأ وسقطت الكتب بين يديه بدا كمن امتلك عالما جديدا. وهكذا أخذ القراءة حيث كان يجدها ومن أي نوع، علمية، خيالية، روايات، روايات شعبية، ثم الشعر الذي وجده أكثر تصميما، وهكذا قرأ رامبو، بودلير، أبوللونير، وصار لدي الإحساس بأني أمتلك لغة أخرى داخل لغتي الأصلية في عام ١٩٩٨م كنت أقرأ كما أتنفس أوكسيجينا نفسيا من أجل الفهم وأيضا لتأكيد الحدوس والانبعاثات النفسية، قرأت «ريلكة» دون أن أفهم كلمة واحدة من الألمانية. ولقد قرأت كل نص بأذن أكادية.

قل لي من تقرأ؟ سألني أحد المعجبين مرة. إن قراءاتنا هي التي تحددنا.

في بوردو

لم يكن الوقت كله الذي قضيته هناك في بواتييه.

خطفت ليلة إلى بوردو لحضور ندوة ولقاء مع الجمهور في جمعية صغيرة

للفنون التقليدية تركت بواتييه الصغيرة الهادئة، أخر مكان وصل إليه العرب في أوربا بعد أن استولوا على الأندلس. ومن المؤكد أنهم لو انتصروا في بواتييه لما استطاع أحد أن يوقفهم في أوربا كلها. لقد عادوا من فرنسا إلى الأندلس، لكن بعد سقوط الأندلس أخذ الكثير من المسلمين عبيدا إلى فرنسا، إلى بواتييه وما حولها من ريف من أجل أن يعملوا بالزراعة التي أجادوها في أسبانيا لذلك تجد بعض السحنات السمراء في ريف بواتييه. وبواتييه دخلت إلى حياتنا في العصر الحديث لأول مرة مع الزعيم الوطني مصطفي كامل الذي حصل من جامعتها على ليسانس الحقوق ولا يزال هناك تقليد قديم في بواتييه أن تستضيف بعض طلاب العلم من القانونيين العاملين في وزارة العدل، ولقد قابلت أحدهم هناك.

«بوردو» مدينة مختلفة، إنها أكبر مدن الجنوب الفرنسي وأغناها فهي عاصمة مزارع العنب ومدينة النبيذ في العالم وسكانها برجوازيون أثرياء، الفرنسيون طبعا وليس الأجانب وهي تقع على نهر الجارون أكبر أنهار فرنسا من ناحية العرض على الأقل، الذي يصب في المحيط الأطلنطي. هذا المحيط اللعين الذي يقذف بحمم البرد على بوردو فكاد يقتلني لأني تصورت أن بوردو بما هي في الجنوب ستكون أكثر حرارة من بواتييه وباريس فإذا بالحرارة فيها تنخفض عن الصفر وندمت لأني تركت البالطو في بواتييه وكدت أتجمد في شارع فيكتور هوجو فلم أمش كثيرا وانتظرت الندوة في جمعية الفنون التقليدية.

كان معي الشاعر العراقي والقاص الجميل بحق صاحب المجموعة القصصية الإنسانية البديعة «وداعًا أيها الطفل» أعني به «جبار ياسين»

الذي خرج من العراق عام ١٩٧٦م وهو بعد في الثانية والعشرين من عمره ولم يعد للعراق ولم ينس العراق.

ولقد كان جبار هو مقدمي في بواتييه في الندوة ومترجمي هناك ومعه كلود مورسيه أستاذة الأدب المقارن التي قرأت النص الفرنسي، وكان جبار رقيقا جميلا في كل الرحلة وهو أحد المسؤولين عن النشاط الثقافي في جامعة بواتييه.

كانت الليلة في بوردو له ولي في هذه الجمعية الصغيرة التي تشرف عليها فتاة لامعة نشطة هي «إيمانويل بابينو» ولقد كان برنامج الندوة بسيطا ومدهشا. يبدأ بلقاء لي مع الجمهور أقرأ فيه شيئا من روايتي البلدة الأخري بالعربية ثم تقرأ إيمانويل بالفرنسية من الرواية المترجمة. وبعد ذلك أتحدث عن روايتي التي ستصدر قريبا بالفرنسية. رواية لا أحد ينام في الإسكندرية ثم أجيب عن أسئلة الجمهور. بعد ذلك بدأ جبار يلقي شعره الجديد عن أطفال العراق وإنسان العراق المحاصر.

ولقد شهدت الليلة مناقشات جميلة حول الرواية في مصر والشعر في العراق ثم قدمت راقصة جزائرية شابة فاصلا من الرقص الشرقي المعجون برقص الجبال. ولقد كانت الفرقة الموسيقية المصاحبة لها كلها من المغاربة والجزائريين، وهي الفرقة التي صاحبت جبار في قراءاته الشعرية. لقد قرأ الشعر على دقات الدفوف والطبول فكانت تجربة مثيرة بحق وشجية. ولقد قامت إيمانويل التي بدا أنها تحيد كل شيء بمصاحبة جبار بالطبل هذه المرة، ولقد عرفت أنها فضلا عن إدارتها للعمل وتمثيلها وعزفها رسامة ماهرة للكتب والجمعية الصغيرة هذه التابعة لنشاط الإقليم كانت تتسع لعدد

لا يقل عن ثمانين من الحضور، والعجيب أنه بعد الليلة الفنية الروائية الشعرية الموسيقية هذه قامت إيمانويل بدعوة الجمهور إلى العشاء على شرف الكاتبين العربيين في مطعم تركي كبير مفروش على الطريقة العثمانية به الشيشة الضخمة ذات المباسم المتعددة واللحم الحلال وكان اسم النادل ميميد فذكرني بروايات ياشار كمال عنه ميميد الناحل وميميد الصقر ولقد أدهشني تلك الليلة حديثي مع الفتيات المغربيات والجزائريات فهن أقرب إلى المحجبات، لا يأكلن إلا اللحم الحلال، في محاولة لمقاومة هذا المجتمع الغربي المفتوح، وبدون لي قادرات على المقاومة والحقيقة أن المجتمع الفرنسي في النهاية مجتمع مخيف بانفتاحه اللانهائي وهذه الطريقة تبدو مهمة للمغتربين على الأقل للتماسك أمام طوفان الحضارة المادية، لكن دهشتي البالغة كانت من الراقصة الجزائرية التي اسمها ليلى. كانت شابة صغيرة وجميلة وسألتني عن رغبتها للحضور إلى مصر وهل من الممكن أن تجد عملا. قلت لها طبعا، الراقصات بالذات يجدن عملا بسهولة، وضحكت وقلت لها أن رقصك مميز بالسرعة وعدم الخلاعة وقد يكون هذا جديدا في السوق فبدت سعيدة ثم قالت لي إنها تريد أن تعمل في مكان نظيف يعطيها الفرصة لدراسة علوم القرآن في الوقت نفسه. كانت تحدثني بالفرنسية وتحاول أن تقربها من قدرتي على الفهم فلقد أخبرتهم أن فرنسيتي ضعيفة، والعجيب أن كل المغاربة والجزائريين الذين قابلتهم تلك الليلة من طلبة جامعة بوردو أو الفرقة الفنية لا يعرفون من العربية كلمة واحدة! وإن كانوا يفهمونها في بعض الأحيان. قلت لليلى أن تعيد ما تقول فقالته.

سكت قليلا وقلت لها إذا رقصت في مصر فلا أظن أن أحدا ممن ستقابلينهم سيعطيك الفرصة لدراسة علوم القرآن. عليك إذن أن تأتي إلى مصر وتعملين أي عمل آخر. فسكتت ولم تتكلم بقية الليل.

في باريس

كان لدي الوقت أن أمضي يومين في باريس أقابل فيها بعض الأصدقاء. التقيت بالكاتبة والشاعرة والمخرجة المصرية «صفاء فتحي» التي تعيش منذ زمن في باريس وتقوم الآن بإخراج فيلم تسجيلي عن «جاك ديريدا» المفكر المعروف ومؤسس التفكيكية في النقد الأدبي. والتقيت بفرانسوا زبال رئيس تحرير مجلة قنطرة التي تصدر بالفرنسية في معهد العالم العربي وهي مجلة فصلية لكنها ناقدة ممتازة للفرنسيين على الثقافة العربية ويديرها بموضوعية ونبل حقيقي ويكاد يقسمها بالقسط بين الدول والكتاب العرب ويالها من مشقة!.. والتقيت طبعا بفاروق مردم بك مستشار المعهد ومسئول نشر الأدب العربي بدار آكت سود أكبر دور النشر الفرنسية المهتمة بالأدب العربي وترجمته وتحدثنا كالمعتاد عن قله الدعم العربي لهذا النشاط الهام وعن ضرورة دعم أحد من هذا العالم العربي لدور نشر أخري تساعد على نشر وترجمة الأدب العربي لأن آكت سود وحدها لا تستطيع أن تستجيب لهذا الإنتاج العربي الغزير وخاصة في الرواية. وكعادتي حين أذهب إلى باريس أمضي الوقت بعد الظهر في مشاهدة الأفلام في «السيني سيتيه» بالهال، وهي أكبر مركز للسينما في باريس حيث توجد أكثر من عشرين قاعة عرض منها اثنتي عشر قاعة في طابق واحد. وحولها المطاعم والمشارب التي تقدم لك مشاهد من الأفلام المعروضة وقت انتظارك

للدخول، والهال هو سوبر ماركت عصري، أشبه بمدينة كاملة مكون من عدة طوابق تحت الأرض وفوق الأرض ويشغل مساحة جبارة ويمر به شريط للمترو فهو معرض لكل فنون وبضاعة فرنسا في كل شيء ومن كل صنف وبكل الأسعار المتاحة وقريبا منه مركز بومبيدو للثقافة والفنون فهي منطقة مشغولة بالحركة والجمال لاينافسها إلا «السان ميشيل» أو الحي اللاتيني الذي هو أقرب لحي الحسين عندنا في رأي صديقنا عاصم حنفي والسان ميشيل أو الحي اللاتيني هو المكان الذي أتسكع فيه دائما حين لا يكون هناك سينما أو مواعيد مع أحد، أشتري منه بعض الكتب والصور القديمة وأعرج على السان جيرمان لشراء ما يلزم من هدايا هي عادة فاخرة ومتوسطة السعر قياسا على أسعار فرنسا. هذه المرة لم يكن لدي وقت لمشاهدة غير فيلم واحد هو عين الثعبان لبريان دي بالما مخرجا ونيكولاس كيج ممثلا وهو فيلم إثارة أمريكي فيه يتورط حارس وزير الدفاع الأميركي في مؤامرة لقتله مع مافيا شركات تصنيع وتوريد الصواريخ. إنه فيلم أميركي نموذجي للإثارة كان يمكن أن يقوم به أي مخرج آخر وليس بالضرورة مخرجا كبيرا كدي بالما !!. . لقد كان ضيق الوقت وراء امتناعي عن الاتصال بعدد من الكتاب العرب الذين أحبهم ويعيشون في باريس، وبسبب أن هذا العام هو عام لبنان في المعهد التقيت مصادفة مع الشاعر «عباس بيضون» في معهد العالم العربي وعرفت أن عددا لا بأس به من كتاب لبنان يتقاطرون على باريس، حسن داوود وإلياس خوري وعبده وازن وغيرهم واكتفيت بلقاء جميل مع الكاتب التونسي الذي يعيش ويعمل في باريس، الحبيب السالمي الذي لا نعرفه

في مصر كثيرا وهو جدير بأن نعرفه كثيرا جدا فهو صاحب روايات جميلة منها «جبل العنـز» و«صورة بدوي ميت» و «متاهة الرمل» أمضينا أكثر من ساعة بمقهي قريب من ميدان الجمهورية وفي اليوم التالي أخذت طريقي إلى القاهرة متعجلا كالعادة حين ابتعد عنها رغم كل ما نعانيه فيها. وفي المطار وجدت موظفة «الإير فرانس» تبتسم لي وتعتذر عن عدم ركوبي الطائرة في الموعد المحدد أنا وعدد أخر من الركاب وذلك بسبب زيادة طارئة في الأوزان التي صعدت إلى الطائرة. طيب وماذا سنفعل؟ قالت إننا سنأخذ طائرة أخري إلى روما ثم من روما نركب الطائرة إلى القاهرة وهذا يعني أننا سنصل متأخرين ثلاث ساعات بعد الموعد الأصلي الذي كنا سنصل فيه لو ركبنا طائرة الإيرفرانس مباشرة إلى مصر، ثم قالت لي لكننا سنعوضك بمبلغ ألفين وخمسمائة فرنك عن هذا التأخير. . أصابني الذهول للحظات، أولا لأني كنت أنفقت كل ما معي في فرنسا واحتفظت فقط بمائتي فرنك لزوم التاكسي في القاهرة وأي شيء ممكن أن أشربه أو آكله في مطار شارل ديجول، وثانيا لأني لم أتعود على هذا التعويض حين تتأخر الطائرات العربية، ولما وجدتني صامتا قالت هل يضايقك أن تعود إلى البيت متأخرا اليوم عن الموعد؟ ابتسمت وقلت لها هل تعرفين ماذا أعمل؟ قالت لا، قلت كاتبا ومؤلفا للقصة والرواية؟ وهذا يعني أنني لم أعد أبدا في حياتي إلى البيت في الموعد ولا مبكرا. دائما ومنذ أكثر من ربع قرن أعود متأخرا فلن يضيرني أن أضيف إلى ذلك الزمن يوما آخر. فأخذتني من يدي إلى المكتب وسلمتني الألفين وخمسمائة فرنك وهي في غاية السعادة بهذا الكاتب الذي لا يعود في موعده، فأخذت طريقي إلى محلات السوق الحرة الفرنسية وخلفي المصريون الذين سيتأخرون معي.

ساحل مريوط..

مرايا المدن الصحراوية

هل أستطيع الإمساك حقا بالحكايات القديمة؟ لكل الأطفال حكايات الجن والعفاريت واللصوص والثعالب في ليالي الغضب. وحكايات البلبل والأميرة والشاطر حسن وعقلة الإصبع في ليالي الرضا العائلي. نسيت حكايات جدتي عن الريف. نسيت حكايات أمي في ليالي الرضا أو الغضب. حكايات أبي نفذت في الروح واستقرت. ولا بد أيضا أنها أحاطتني بسياج من عجائبها. إنها حكايات الحرب العالمية الثانية، بصفة عامة، وحكايات العلمين بوجه خاص.

العلمين؟!.. من منا لم يسمع بهذا الاسم؟. إنه معركة مصر وإسهامها العظيم في الحرب العالمية الثانية. الأرض حاربت مع الحلفاء، ذلك عرفته فيما بعد، فهي ليست معركة مصر باعتبار وقوعها فيها كما قصد تشرشل.

رأيت العلمين. لم تكن أكثر مما قال أبي. محطة سكة حديد صغيرة لم يكن القطار يقف عندها طويلا، جاءت جيوش الدنيا لتقف حولها وتقتتل. ما تبقي من القتال الآن هو المقابر الشهيرة لجنود الكومونولث وجنود المحور أيضا وجنود فرنسا الحرة والفيلق اليوناني، تلك التي يأتيها الأبناء والأحفاد والأقارب طوال العام من كل الدنيا لزيارة مفقوديهم. وقامت حول المحطة بضعة بيوت صغيرة من حجر يعيش فيها قليل من البدو والذين تركوا خيام الوبر.

«قال لي أبي إنه انتقل للعمل في محطة سكة حديد العلمين في نفس الأسبوع الذي نشرت فيه الصحف نبأ تسلم «روميل» قيادة الفيلق الأفريقي من جرازياني الإيطالي الذي تعرض لهزائم متتابعة من البريطانيين. وأنه، أبي، فكر من إمكان مقابلة روميل وجها لوجه. لقد أحس أن روميل سيأتي إلى العلمين».

قلت.

- لماذا لا تذهب إلى الطبيب يستأصل لك هذه الندبة في إصبعك؟

تأملني مليا وقال.

- ولماذا الطبيب. يمكن أن تفعلها أنت.

كنت في الثانية عشرة من عمري. وقال.

- إنها ميتة. هات الموس.

أحضرت له الموس وأنا أفكر لماذا ترك هذه الشظية التي سكنت أعلى السبابة بعد انفجار أحد الألغام الصغيرة فيه بعد الحرب كل هذا الوقت، ولماذا وافق على استئصالها اليوم ؟

مد لي أصبعه وطلب مني استئصال اللحم الزائد بالموس فجفلت. أمسك بالموس وشق اللحم المتجمع فوق الإصبع بلا أي ألم وأخرج منه شظية سوداء في حجم خرزة صغيرة قدمها لي فأمسكت بها وشعرت بصلابتها وخشونتها بينما استأصل هو اللحم الزائد ثم لف أصبعه بقطعة شاش.

«كان قد حدثني كثيرا عن ذلك اللغم الذي انفجر فيه فأصاب فخذيه وبطنه بثقوب عديدة وكيف داواه البدو بطريقة عجيبة حيث كان طبيبهم يأتي بدهن الغنم ثم يذيبه على النار ثم يسكبه في الثقوب التي ملأت ساق وبطن أبي حتى التأمت».

لم يتركني ألقي بالشظية، ولم يتخلص هو منها. وضعها في كوب نظيف وضعه على رف بالحمام ومع الوقت اختفت ولم يسأل أحد عنها.

امتلأت منذ الخامسة من عمري بالحكايات الغريبة عن الحرب التي لم أرها وكبرت أبحث عن «العلمين». وجدتها أكبر من حكايات أبي عن

السائق الهندي والفرقة الأسكتلندية ومشاهد القتلى والهروب في الصحراء ومشاهد البدو والحيوانات التي تفر على غير هدى تحت الطائرات وأمام القذائف ولغات أبناء المستعمرات التي لم يكن يفهم منها شيئا وجروحه هو وإصاباته. أحسست أني منذور لرؤية العلمين ومعرفتها لكني وأنا أفعل ذلك تذكرت أني قطعت مع أبي رحلات كثيرة على طول ساحل مريوط، والعلمين مدينة صغيرة على هذا الساحل تكبر الآن بسرعة مدهشة، الساحل كله يتغير معها، ليس مجرد مكان تغتاله القرى السياحية لكنه تاريخ أيضا وإن لم يدرك ذلك المستثمرون.

جريان في التاريخ

ساحل مريوط، أو ساحل ليبيا كما أسماه القرطاجنيون قديما، هو مدخل مصر الوحيد من ناحية الغرب – بالطبع قبل ظهور الطائرات والصواريخ – منه جاء الحاكم الليبي «شيشنق الأول» لغزو مصر عام ٩٤٥ ق.م، وأسس الأسرة الثانية والعشرين. وعلى نفس الساحل خرج «إبريس الأول» رابع ملوك الأسرة السادسة والعشرين المصرية عام ٥٨٨ ق.م قاصدا «قورينا» في برقة بليبيا لتخليصها من حكم الإغريق لكن غزوته لم تنجح.

وعلى هذا الساحل نفسه مشى الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م مخلفا الإسكندرية التي لم تتم، لزيارة معبد آمون في سيوة، وأكمل بطليموس الأول الإسكندرية، ثم قطع الساحل أيضا إلى قورينا في ليبيا، وخلصها من حكم الإغريق وضمها إلى مصر.

حركة الذهاب والإياب لم تنقطع على الساحل، وبعد هزيمة كليوباترا وابتداء العصر الروماني، صار الساحل أكبر مكان لزراعة الغلال بعد وادي

النيل، ثم تدهور وانقطعت الحركة عليه أو كادت حتى فتح العرب مصر، وخرجت عليه الجيوش غازية أفريقيا والمغرب. لقد كان ذلك الوقت، رغم التدهور، حدائق متصلة من الإسكندرية إلى برقة. ذلك مذكور في كتب المؤرخين القدامى.

على أن من أشهر من مروا على الساحل، القبائل العربية المهاجرة من نجد والحجاز، قبائل بني سليم وبني هلال الشهيرة، ثم الجيوش الفاطمية التي جاءت إلى مصر من أقصى المغرب العربي. هو إذن طريق ذهاب وإياب تاريخي، وإن ترهل الوقت بين كل خروج ودخول، وسيكون طريق ذهاب وإياب للجيوش أثناء الحرب الثانية، لكنه ذهاب وإياب سريع دائما. لقد تقدمت الحروب ولم يعد الجنود يتحركون على الخيل والأقدام لكن من هم أولئك الذين سكنوا الساحل كل هذا الوقت؟

في البداية سكنه اليونانيون والبطالمة وقليل من المصريين العاملين في الزارعة أو الخمور أو صناعات الزجاج والفخار، ثم ازداد المصريون بعد أن دخلت المسيحية مصر وازداد اضطهاد الرومان للشعب فراح يفر إلى الصحراء الغربية. كتب التاريخ تذكر دائما الفرار إلى الجنوب وقليلا ما ذكرت الفرار إلى الساحل الشمالي.

بعد الفتح العربي تحركت عليه القبائل ذاهبة آيبة في الحرب والسلم. يمكن طبعا تتبع حركة القبائل في مصر في كتب مثل «كتاب العبر – لابن خلدون أو نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب «للقلقشندي، أو «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم أو كتب عصرية مثل «قبائل العرب في مصر» لأحمد لطفي السيد أو غيرها، لكنا نصل بسرعة إلى ما انتهى إليه الأمر من استقرار مجموعتين من القبائل هي الموجودة الآن على طول هذا الساحل،

وداخله أيضا في ولاية برقة الليبية. المجموعة الأولي هي عرب السعادي المنسوبون إلى أمهم «سعدي» من قبيلة «زناتة» بل هي بنت شيخ القبيلة. وتضم عرب السعادي قبائل «علي الأبيض» و «علي الأحمر» و«السننة»، لكن يطلق عليها جميعا أولاد علي. أما المجموعة الثانية من القبائل فهي قبائل «عرب المرابطين» التي تشمل قبائل «الجميعات» و«القوابيص» و «السمالوس» ولقد سموا بالمرابطين بسبب عملهم حيث كانوا يرابطون على نقط الحراسة بينما يترك القتال لعرب السعادي. الآن قويت بعض قبائل المرابطين لكنهم، جميعا بوجه عام، مندمجون من ناحية النسب في قبائل السعادي، حتى إنهم ينسبون أنفسهم أحيانا إلى أولاد على أيضا.

مدن صحراوية

للمدن على هذا الساحل لون وطعم ورائحة. العلمين أصغر المدن. محطة سكة حديد فقيرة، وبضع خيام للبدو، قسمت زمن حرب كونية إلى نصفين.. في النصف الأول انتصرت قوات المحور في كل معركة، وفي النصف الثاني لم تنهزم قوات الحلفاء. ولخصت البلدة الصغيرة حرب الصحراء في معركة، وصار من يذكر العلمين في العالم يعني ضمنا، مصر، أما اللون فهو لون التراب. لماذا حقا ليس لون الرمال؟ دائما أرى الناس والبيوت في لون التراب.

«فضلا عن حكاياته كان أبي يأخذني كثيرا في سفراته عبر الصحراء ورأيت تقريبا كل المدن حتى مرسى مطروح».

وجوه البدو مكشوفة. أولاد علي قبائل غير ملثمة، ليسوا كالطوارق مثلا في الصحراء العربية الكبرى. وطعم المدن هو طعم الحر المعجون

بالوبر، وبر الجمال والأغنام والماعز والفراش وندرة الماء. تعرف الطعم من الرائحة ولا تجفل ولا تتململ. لكن هل هي مدن حقا تلك المطروحة على الساحل الطويل؟

بمقياس الصحراء هي مدن، بدأت قديما كمراكز للأسواق، أو الانتجاع. كانت البضائع دائما الزيتون والتمر وزيت الزيتون واللحم والأغنام والتين السلطاني والصبار والحنظل والشيح والشعير والأرانب والقنافذ والصقور والثعابين والحكايات.

أول المدن مدينة «العامرية» على بعد عشرين كيلو مترا غرب الإسكندرية، وإلي الجنوب الغربي من بحيرة مريوط الممتدة وراء ظهر الإسكندرية، ويمر أمامها الخط الحديدي الصاعد غربا إلى السلوم.

«كان أهم قطار يقطع الصحراء هو قطار المياه، وكان يمر على البلاد مرة كل أسبوع ومن لم يستطع الحصول على حاجته من الماء تلك المرة كان يمكن أن يموت. لكن البدو الذين يسكنون عادة بعيدا عن محطات القطارات، كانوا لا ينتظرونه. لا يشربون إلا من مياه الآبار».

والعامرية عرفت أيام محمد على باسم «كنج عثمان» و«كنج عثمان» نفسه كان أمير الضيافة عند الوالي. وفي عهد سعيد حملت اسم «برنجي مريوط» أي أول مريوط. هذا يفسر اسم البلدة الصغيرة «كنجي مريوط» أي الثانية في مريوط، وهي ضاحية تشتهر بطواحين الهواء، هواؤها جاف طوال العام، فهي مشتى ومصيف معا ومنتجعا صحيا. إنها تقع في نفس زمام العامرية، وإداريا خاضعة لها، لكنها تبدو كأنما اختصها الله بهواء ساحر عجيب يتجمع في سقف الدنيا وينزل إليها طريا منعشا فتدور الطواحين

تصعد بالماء النقي المحبوس منذ ملايين السنين تحت الصخور ليروي مزارع التين واللوز والرمان والعنب وذكريات الزائرين. زرت كنجي مريوط أول مرة في صباي الباكر مع أبي، الذي دفعه عمله بالسكة الحديد إلى كل هذا السفر بالصحراء. لا زلت أشعر بالارتواء الذي شملني به الفضاء الندي ذو الريح الحنون الجافة. هناك مدن تدخلها فتنسى المدن الأخرى. تتلخص حياتك في إحساس بالراحة والأمان. تتشبع بالرضا والسكينة فلا يكون هناك مكان في المكان ولازمان في الزمن لكن العامرية على العكس من ضاحيتها الجميلة، مدينة طاردة. هي سوق كبير يلتقي فيه أبناء الصحراء بأبناء الدلتا القادمين عبر الإسكندرية ومحافظة البحيرة، لكنها في كل وقت تبدو مدينة «بزرميط» بلا هوية يتكاثر عليها التراب من كل جانب. ولا علاقة لاسمها بقرية «ماريا» اليونانية القديمة التي اكتشفت بقاياها منذ أعوام قرب الساحل. ربما حملت العامرية اسمها من مرور قبائل «ربيعة بن عامر» و «هلال بن عامر» عليها في طريقها إلى المغرب، ثم أهمل الاسم حتى قفز إلى الأذهان في عهد الخديوي عباس حلمي. وربما يكون اسمها من تدخل الدولة في حركة العمران، وهذا هو الأرجح، المهم أنه لا علاقة بين الاسم وقرية ماريا التي ارتبط اسمها بالإسكندرية. لقد كان أهم ما اكتشف بقرية ماريا هو معاصر النبيذ ومخازن الخمور. ربما لهذا غنى السكندريون أغنيتهم القديمة، «إسكندرية ماريا وترابها زعفران» نبتعد عن العامرية وندخل في الصحراء أكثر. الزراعة الكثيفة على الطرق الصحراوية بدأت تغير من طبيعة العامرية، تزيدها اختلاطا. نحتاج إذن إلى وقت حتى تنجلي مدينة ذات هوية.

ثاني المدن، التي بدأت صغيرة جدا، وتتسع الآن، مدينة « برج العرب» على بعد خمسين كيلو مترا من الإسكندرية اختار «الميجور براملي» مفتش البوليس بمحافظة الصحراء الغربية سنة ١٩١٨م، ربوة عالية وأقام فوقها قصرا فخما جمع فيه ألوانا من التحف وأحاطه بحديقة جميلة قطفت أنا بعض زهور اللوز منها، واللوز نفسه في صباي مخالفا تعليمات أبي أن لا أقترب من الحديقة التي يحرسها الحرس الجمهوري.

- لماذا أنت هنا ؟

قال لي جندي الحرس الذي رأيته واقفا أمامي فجأة.

- أنا لا أسرق اللوز.

ابتسم. كان اللوز في يدي. قلت.

- أحببت أن أري جمال عبد الناصر.

- الرئيس في القاهرة. يأتي إلى هنا قليلا.

وسكت وراح يتطلع إلىَّ مليا. لا بد أنه كان مندهشا من شجاعتي. سألته.

- هل يمكن أن تأخذني معك أتفرج على القصر؟

ولم يوافق. قال لي أن أكون حريصا في المرات القادمة وأن لا أقترب من الحديقة. في عودتي رأيت شابا بدويا يغني بصوت عال وحده ويمشي مسرعا بين شريطي السكة الحديد. لا بد أنه على دراية بموعد القطارات حتى يمشي مطمئنا هكذا. الوقت صيف والحرارة باهظة لكننا نقترب من المغرب. نسمة تتأرجح في الفضاء تنذر بالطراوة!

لقد انتهي «الميجور براملي» من إقامة القصر والبلدة الصغيرة تحت الربوة عام ١٩٢٤م وأقام حولها سورا عاليا جعل له بابين يمر بينهما الطريق المعبد الذي يربط الإسكندرية بالصحراء – لم يعد لهذا الطريق القديم وجود الآن بعد إنشاء شبكة هائلة من الطرق – وزين براملي قصره بالأعمدة والتحف المرمرية التي نقلها من منطقة أبي مينا، حيث تقع كنيسة «بومنا» أو «أبو مينا» التي أقامها عام ٤٠٠م الإمبراطور أركاديوس على قبر القديس «سانت ميناس» الذي قتله اتباع دقلديانوس عام ٢٦٦م عندما لاذ بالصحراء من الاضطهاد..

لماذا أطيل هكذا الحديث عن برج العرب؟ ربما لتكرار زيارتها في صباي مع أبي. تمنيت مرة أن يأتي شهر رمضان في الشتاء. كنت أري أبي متعبا من الصيام. كان يعيش معه زميل اسمه إبراهيم، وكان مسيحيا. لكنه كان يصوم مع أبي طول النهار ثم يشاركه طعام الإفطار.

-«لماذا تصوم مع أبي يا عم دميان؟

-«لأنك في الصحراء لا تستطيع أن تأكل وحدك. تحتاج إلى صاحب دائما فكيف يكون معي صاحب وآكل أنا وحدي بالنهار ويأكل هو وحده في المساء؟

ولم يكن الرجل اسمه دميان. لكني أعطيته هذا الاسم حيث كتبت عنهما بعد أكثر من ربع قرن، قصة قصير ة بعنوان « كان يعرف أسماء البلاد» ثم رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية».

في مساء أحد أيام رمضان ذلك العام، كان أواخر الخمسينيات أو أوائل الستينيات وكان متعذرا اصطحاب الزوجات في ذلك الخلاء. في ذلك المساء هبط علينا شخص ثالث عابر سبيل طلب الطعام فأكل وشرب وزوده أبي وزميله بالطعام والماء والمال أيضا.

قال العابر ذاك أنه قادم من المحلة الكبرى ذاهب إلى ليبيا مشيا على الأقدام هاربا من الفقر والحاجة. .

منذ ذلك الوقت لم أقابل أحدا من المحلة الكبرى إلا وتخيلته هاربا من الفقر والحاجة «طفشان من البلاد».

في برج العرب هذه رأيت القنافذ بالليل ملتصقة بقضبان السكة الحديد، واصطدتها وتعلمت أن أمسكها من الأمام وأعود بكفي إلى الخلف فلا تستطيع أن تشرع أشواكها وسألت أبي لماذا يغني ذلك البدوي بصوت مرتفع وهو يمشي مسرعا في الخلاء؟

أجابني أنه يفعل ذلك من أثر الجوع، وكلما ازداد جوعه ازداد صوت الغناء إذن هو يتبلغ بالغناء. ما أجمله من طعام. قلت لنفسي ذلك بعد أكثر من ثلاثين سنة. أي وأنا اكتب إليك الآن. تغيرت برج العرب، وصارت بلدتين القديمة والجديدة، وأحاطتها الزراعة وامتلأت طرقاتها بالمركبات الزراعية وقاطعات الأحجار من الجبال. ولا بد للوصول إلى العلمين التي لم نصل إليها بعد من المرور على مدينة «الحمام» ثالث المدن أهمية في الصحراء الغربية بعد العامرية ومرسي مطروح أنها تقع على بعد خمسة وستين كيلو مترا من الإسكندرية، ولقد قامت على أنقاض مدينة «مانو كامينوس» اليونانية القديمة. تقوم هذه المدينة كالعامرية قديما، حول سوق شهير يأتي إليه أبناء ليبيا من الغرب، ويقابلهم أبناء الدلتا من الشرق. فيها مسجد قديم يقال إن الذي بناه هو «زياد بن الأغلب» في طريقه لفتح أفريقيا. يعيش فيها بعض المغاربة منذ زمن بعيد. في الحمام تشعر برائحة المدن الصحراوية الحقيقية. يخيل إليك دائما أن كل ما تراه سيتحول إلى سراب.

حركة الناس حولك سريعة في المشي والكلام. في البيع والشراء. من الصعب الاحتفاظ بوجه في الذاكرة. إنها مدينة لا تستطيع أن تقف بها إلا متحفزا إلى المسير. خلقت لتكون لتبادل المنفعة ثم العودة بسرعة إلى الديار. والخروج منها يعني الدخول بسرعة إلى العلمين. في العلمين كنت أتلقى هدايا كثيرة من الجنود الإنجليز والهنود والأفريكان كان لدي دائما كميات كبيرة من الشاي والعدس والسكر والدخان وجوز الهند والشيكولاته والولاعات – القداحات – وعلب الدخان المعدنية المذهبة وأقلام الحبر والكوبيا والجوارب وكنت أرفض الخمور وأعود إلى القرية كل شهر مرة محملا بهذا كله فتنتظرني القرية كلها لأوزعه عليها بالمجان. كانت أمك قد تركت الإسكندرية مع الذين هاجروا منها إلى قريتنا جوار كفر الزيات، وذات ليلة طاردتنا الغارات الألمانية والإيطالية ونحن في القطار، ورغم ابتعادنا عن الإسكندرية لم ينـزاح عني الإحساس بالرعب، وعند محطة كفر الزيات خيل لي أن القطار يقف بالرصيف، والحقيقة أنه كان يتجاوز المحطة بسرعة مجنونة. ما كدت أضع قدمي خارج الباب حتى طرت في الفضاء لأسقط بعد الرصيف فوق سقف خشبي لحجرة محفورة بالأرض مما ساعد على بقائي حيا.. فقط ضاع ما كنت أحمله، وحملني عمال المحطة إلى مستشفي طنطا لأمضي شهرين في الجبس، ثم عدت إلى العلمين غير مصدق أني نجوت. لكني سأترك العلمين لأعود إليها على مهل وبتفصيل. ساقفز إلى بلدة « سيدي عبد الرحمن» المصيف الجميل ذي الرمال البيضاء الذي حمل اسمه من مزار لهذا الولي البدوي الذي يحمل اسم عبد الرحمن أبو بطيخة. والبطيخة هي التي تكلمت وهي التي أشارت ببناء الضريح

والمسجد والمدينة فيما بعد. لقد كان عبد الرحمن يمشي مع صديق له يعمل حلاقا باغته بالقول بإنه يمكن أن يذبحه بسكينة في ذاك الخلاء ولا يعرف أحد. وبالفعل قام بذبحه وتركه ومضى. بعد عام عاد الحلاق من نفس الطريق ليقف مكان القتل فيرى شجرة بطيخ في الصحراء؟ إن الحكاية الشعبية الفاتنة تكمل عناصرها بإتقان. يحمل الشرير البطيخة ويجدها كبيرة فيهديها إلى شيخ القبيلة الذي ما أن يشقها بالسكين حتى تقطر الدم. يحاول أن يشقها مرة أخري فتقطر الدم. يضع السكين جانبا ويسأله. يطلب الشرير الأمان قبل أن يحكي له القصة. يعطيه شيخ القبيلة الأمان ويعرف القصة يشق البطيخة نصفين ليجد رأس عبد الرحمن بينهما ذبيحا يقطر الدم ويتكلم طالبا بناء ضريح فيبنون له ضريحا ومسجدا يزوره البدو طوال العام. لكن بلدة سيدي عبد الرحمن هذه كانت منذ زمن بعيد مصيفا جميلا، بل من أجمل مصايف ساحل مريوط ومن أشهرها، ولم تكن في حاجة إلى غزو القري السياحية الذي يحدث الآن ليعرفها الناس. إنها مصيف قديم لا ينافسه إلا مدينة « برتينيوم» القديمة، أو مرسى مطروح الحالية.

الحب والموت

بعد العلمين عدة مدن مهملة. أشهرها «الضبعة» بلدة الشمس والفراغ. يصل إليها الناس متعبين دائما فيجلسون بلا حركة ويبيعون ويشترون بلا هرج. بالكاد يتكلم الناس إذا سألتهم. . وبعد الضبعة مدينة «فوكة» التي حازت بعض الشهرة في الحرب العالمية الثانية قبل معركة العلمين. إنها منطقة منخفض، تسمى أحيانا ببئر فوكة لا يمكن إلحاقها بالمدن الصحراوية لقلة أعداد سكانها إلى حد الندرة..

«لا أحد يصدق أننا جرينا من فوكة إلى العلمين بالليل وسط الظلام فوصلنا مع الصباح كانت ليلة مرعبة جاءت فيها الأخبار بانطلاق قوات روميل طاردة القوات الإنجليزية أمامها، وسبقت الطائرات الألمانية والإيطالية القوات، وكان في فوكة احتياطي الجيش البريطاني من المدرعات والجنود فظلت الطائرات تضرب المنطقة طوال الليل. لقد جريت على قدمي، وسبقت الجنود بمركباتهم التي كانت تحترق ويموتون، ولم أتوقف عن الجري إلا في العلمين. جعلنا الرعب نجري أكثر من خمسين كيلو مترا !».

كلما مررت على فوكة في طريقي إلى مرسى مطروح لا أصدق أنه يمكن لأحد أن يجري من فوكة إلى العلمين. لكن لا أحد يعترف بهذا الضعف بسهولة أي رعب كان.

ومرسى مطروح هي ميناء مصر القديم الذي كانت السفن تخرج منه إلى اليونان وتعود إليه ومنها أدارت كليوباترا معاركها مع روما، ومن الميناء أقلعت السفن لتلتقي بأكتافيوس في «أكتيوم» لتنهزم وتعود سابقة انطونيوس زوجها وحبيبها. وفي مرسى مطروح شاطئ صغير يحمل اسم كليوباترا، كما يوجد شاطئ نصف دائري صغير يحمل اسم روميل، وفي الشاطئ حمام كليوباترا الشهير الذي كانت تقضي فيها أوقات متعتها مع أنطونيوس. في قورينا أيضا بليبيا يوجد بأحد الشواطئ حمام، أي حوض محاط بالصخور الطبيعية، يقال له حمام كليوباترا أيضا، لكنه يختلف عن الحمام المصري بأنه مكشوف وليس مسقوفا بالصخور الطبيعية، كما أنه ينسب إلى كليوباترا الثامنة ابنه كليوباترا السابعة المصرية الشهيرة – على أي حال في مطروح أيضا وفي شاطئ روميل سرادب تحت صخور الشاطئ

يعد بمثابة متحف للقائد العجيب روميل به بالطو وحذاء وأشياء لا قيمة كبيرة لها وبعض صور لكنه دائما مثير للرغبة والاستطلاع.

مرسى مطروح في التاريخ إذن هي بلدة الحب والموت. لقد شهدت قصة غرام كليوباترا ونهايتها. والحب في بلادنا، مصر، عادة يقترن بالموت، منذ إيزيس وأوزوريس، حتى حسن ونعيمة. والماء يحمل العاشق القتيل دائما، حمل أوزوريس إلى ببلوس بلبنان، ثم عاد وحمل النيل أعضاءه المقطعة. وحمل النيل جثة «حسن» بين القرى. والذين عاشوا في القرى المصرية يعرفون كم يحمل إليهم النيل كل عام من جثث العشاق. وفي مرسى مطروح كدت أقتل. لم أكن عاشقا لامرأة من هناك ولا فتاة. كان صديقًا لي محبًّا دائما فوق العادة قد وقع في غرام فتاة قاهرية تعمل مدرسة هناك. كان هو محبا فوق العادة وكنت أنا مجنونا فوق العادة وحين طلب مني أن أسافر إلى مرسى مطروح معه لنقابلها وافقت. كنا نعرف أنها تعمل في المدينة لكن لا نعرف اسم المدرسة التي تعمل بها، وكنا نعرف أنها من القاهرة لكن لا نعرف هل لها أقارب تعيش بينهم هناك أم في بيت للمغتربات. اندهشت جدا لعدم توفر هذه المعلومات لدي صديقي العاشق، وفكرنا أن أفضل طريقة للعثور عليها أن يعرف الناس في المدينة بوصولنا. من نحن حتى يعرفنا الناس؟ كان العام عام ١٩٧٥م وكان الطريق بين مصر وليبيا قد أغلق بسبب الخلافات السياسية، وتعرضت التجارة في مرسى مطروح إلى كساد وبوار. إذن نحن صحفيان جئنا نتقصى أحوال المدينة قابلنا محافظ المدينة ذلك الوقت، الفريق سعد مأمون، أحد قيادات حرب أكتوبر. وقابلنا سكرتير عام المحافظة، وأمين الاتحاد الاشتراكي وأمين الشباب، وأمين تنظيم المرأة،

ومسؤول التعليم، والتقينا بالناس في الشوارع، وبالمدرسين والمدرسات في المدارس، وبمديري الأمن، وكتبنا مئات من الصفحات التي لن ننشرها أبدا، واكتشفنا حياة سرية فيها تهريب ومخدرات ودعارة ورقيق أبيض، ونجحنا أن نلتقي بالمحبوبة. كانت ضمن هواة التمثيل الذين قابلناهم في قصر الثقافة هناك. رتب صديقي معها موعدا يقابلها فيه في الغد. وفي الليل جاءنا في الفندق أحد الشباب يطلب منا مغادرة المدينة مع أول ضوء.

▪ لماذا؟

▪ لأن البلدة كلها تعرف أنكما ليسا صحفيين، وهناك من يريد قتلكما باعتباركما جاسوسين ليبيين.

▪ وما الذي جعلك تتطوع وتقول لنا ذلك؟

نظر إليَّ وقال:

▪ أنا أعرفك جيدا. وأعرف إنك كاتب قصة من الإسكندرية.

لم أكن نشرت أكثر من ثلاث أو أربع قصص. هو يعرفني حقا وهو صادق. وتركنا المدينة مع أول ضوء، وتركنا بالفندق أوراقنا المكتوبة وغير المكتوبة. ولما ابتعدنا بسيارة الأجرة عن مرسى مطروح انطلقنا نضحك بشراسة. لقد نجونا من موت أكيد ولم يعد صديقي إلى محبوبته. عرف أنها تزوجت.

في طريق عودتنا قال لي.

▪ ما رأيك لو توقفنا قليلا عند العلمين؟

أيقظ فـيَّ الماضي الجميل. كان أبي قد مات. وعلي تعدد رحلاته التي أخذني فيها معه إلى الصحراء لم يعد مرة واحدة إلى العلمين. كانت تلك

إذن أول مرة أزور فيها هذا البلد الغامض. وعندما وقفت أمام القبور، ودرست طبيعة المكان، أدركت أن هذه المنطقة أعدتها الطبيعة، وأعدها الله، لتكون يوما، في القرن العشرين، أرض قتل.

«في العلمين الآن حركة عمران سياحي هائلة، وفي إحدى القرى السياحية الرائعة فيلا للدكتور يوسف إدريس لم يمض بها وقتا طويلا. يحمل الشارع الصغير بتلك القرية الجميلة اسم يوسف إدريس. لكن الشارع بلا يوسف إدريس نفسه يختلف. بل تختلف الحياة الآن بدون يوسف إدريس عنها به. ماء آسن. يرحمه الله كان هو يحرك الماء. كان طويلا مهيبا مثل حراس الحقول. قال لي آخر مرة التقيته إن العلمين هي أجمل مكان في العالم. هل كان يقصد البحر الممتد أمام القرية السياحية، أم كان يقصد العظمة التاريخية للمكان خلف البحر وإلى الجنوب؟».

العلمين فاصلة زمن الحرب

«كنت أعمل على محطة سكة حديد بالعلمين. لم تكن هناك حركة يعتد بها للركاب. قليلا ما كان يغادر البدو نجوعهم المتفرقة بعيدا عن المحطة إلى سوق الحمام أو العامرية كانت القطارات تقذف بالجنود، وقطارات البضائع تقذف بالدبابات والمدافع. انتقلت من العلمين إلى فوكة والضبعة مرتين كل منهما لعدة أيام. عندما بدأ روميل هجومه الكبير سبقت الجيوش المرتدة جيوش الجمال والأغنام والماعز، والغزلان أحيانا الهاربة من جحيم الصحراء إلى موت محقق. فقط تأجل قليلا».

في المتحف الحربي بالعلمين، بقايا أسلحة قديمة، من الذخائر حتى المدافع والدبابات، وملابس الجنود وصور للقادة ونموذج لخطة المعركة وصور

للخونة الذين كانوا على اتصال بالألمان، بينها صورة للراقصة حكمت فهمي صاحبة العلاقة الشهيرة بالجاسوس الألماني هانز أبلر، والتي عرفها أنور السادات وكان يعرف علاقتها بالألمان. تقول حكمت فهمي أنها في السجن رأت فتاة بدوية مذعورة كانت قد تم إنقاذها من الموت في الصحراء بعد أن ضلت الطريق أثناء الفرار مع قبيلتها وصعدت مع قردها الصغير وجلست فوق أغصان إحدي الأشجار. لماذا حقا وضعوا تلك الفتاة في السجن ؟ سؤال كثيرا ما يقفز إلى ذهني اكتشف البدو بالصحراء الغربية أنهم يمكن أن يثروا ثراء فاحشا إذا باعوا أراضيهم التي تطل على ساحل مريوط للمستثمرين والمصطافين. ابتدأوا بمنطقة «العجمي» الشهيرة مع أوائل السبعينيات. الآن تركوا الساحل الشمالي كله، ساحل مريوط، من الإسكندرية حتى مرسى مطروح، لكنهم لم يتراجعوا إلى الجنوب فقط. صاروا أثرياء يركبون سيارات البيجو والمرسيدس، وبنو الفيلات بدلا من خيام الوبر، وأكثرهم افتتح له محلات على الطريق، لكنهم لا يزالون لا يقبلون على العيش في القرى السياحية الجديدة أو على الشواطئ بوجه عام فلا طاقة لهم على النظر إلى كل هذا العُري للنساء والرجال.

أرض قتل إلهية

العلمين أرض منذورة لحرب لم تتوقعها البشرية، حدثت والآن صارت جزءا من الماضي عندما وقفت فيها مع صديقي المحب الوامق لفتاة مرسى مطروح أدركت ذلك، وأدركته أكثر حين قرأت عن المعركة. مشيت إلى محطة السكة الحديد فوجدتها كما وصفها لي أبي لم تتغير. رصيف منخفض إلى الأرض، وحجرة لناظر المحطة، ومزلقان بدائي يجلس على طرفه رجل

ضئيل يمسك بحبل ينتهي إلى عمود خشبي يجذبه فيسد به الطريق على المارة والسيارات وقت عبور القطار، يتركه فيرتفع العمود عن الطريق ويسمح بالمرور بطريقة بدائية انتهت من زمان حيث صار بالمزلقانات آلات إنذار معروفة ورخيصة، لكن هذا هو واقع الحال. ما الذي اختلف في العلمين إذن؟ المقابر بدلا من القتال! وحول المحطة بعض بيوت من حجر اتخذها البدو سكنا لهم بدلا من «الوبر»، وقيام القرى السياحية على الشاطئ. الشاطئ نفسه اقتلعت منه أشجار التين كما اقتلعت من الساحل كله من الإسكندرية حتى مرسى مطروح. في العادة لا تستطيع أن تدرس أمرا ومعك صديق يشاركك الرؤية أو الكلام. لذلك لم يبق في زيارتي الأولي للعلمين عام ١٩٧٥م مع صديقي في طريق عودتنا – هروبنا، من مرسى مطروح غير نظم وجمال الزهور والمقابر، ولم نفكر أن بالمنطقة مقابر أيضا لألمانيا وإيطاليا. أدركت ذلك في زيارتي التالية للمكان. العلمين تقع على بعد مائة كيلو متر من الإسكندرية تقريبا ،لم تكن يوما بلدا كبيرا حتى بمعايير الصحراء. هي منطقة قاسية الطبيعية تقع بين البحر المتوسط ومنخفض القطارة يتوزع فوقها سكان قليلون ينتمون لقبائل علي الأحمر وعلي الأبيض والجميعات. الأوليين من السعادي والأخيرة من المرابطين. ومنخفض القطارة هو تقريبا أشهر منخفضات الصحراء الغربية في أفريقيا، ولا تزال الأجيال المتعاقبة في مصر تحلم بتنفيذ مشروع منخفض القطارة لإنتاج الكهرباء عن طريق شق قناة من البحر المتوسط تنقل المياه إلى المنخفض إلى عمق ٢٠٠متر تحت سطح البحر يتيح الفرصة لإدارة توربينات ضخمة تولد الكهرباء. إنه مشروع أسطوري لا يزال في دنيا الأساطير.

العلمين، صحراويا مشابهة لغيرها، وعسكريا تختلف. فالبحر في الشمال، وفي الجنوب على بعد ثمانية وثلاثين ميلا يبدأ المنخفض الشهير ومنطقة الرمال الناعمة والمستنقعات الملحية التي يستحيل عبورها. بالضبط كما يستحيل العبور من الشمال بسبب البحر والعلمين أيضا هضبة ترتفع ستمائة قدم عن بقية الصحراء.

كل مكان في الصحراء يسمح بحركة الالتفاف إلا هنا. وهذا ما وقف روميل عاجزا أمامه. إن أحد تكتيكات روميل المعروفة هو الالتفاف السريع حول الخصم وتطويقه وقطع خطوط إمداداته والإيحاء له بأنه محاصر فيسود الهرج صفوفه وتتم بسهولة عملية تمزيقه وإبادته. كان البريطانيون يعرفون العلمين جيدا فتوقفوا عندها في تقهقرهم أمام القائد العبقري، لقد كانت هزيمة بريطانيا في الشرق الأوسط كافيه لإخراجها من الحرب بسرعة بسبب البترول الذي يدير دباباتها وطائراتها، لذلك لم يكن الإنجليز مستعدين للتخلي عن العلمين بسهولة..

العلمين إذن كانت ولا زالت موقع دفاعي نموذجي لكنها لم تختلف عن بقية الصحراء في خصائصها، في طقسها وأرضها. فكثبانها تتفاوت ألوانها من البني إلى الأبيض الجيري على الشاطئ، تسقط عليه أشعة الشمس فتجعله أبيض ناصعا في الظهيرة. وبعيدا عن المناطق المزروعة بالتين تجد الحشائش الليفية والنباتات الشيطانية الشائكة، وبها دائما خطر العقارب والحيات المقرنة الصغيرة والقوارض والزواحف الكبيرة والذباب. وهذا كله كان موضع عذاب للجنود، لكن قرب العلمين من الإسكندرية وفر للجنود المياه ووسائل النظافة. وفر للجيش عموما الإمداد التمويني والغطاء الجوي.

الأرض في هضبة العلمين متماسكة تحت طبقة الرمال الضحلة لكن هناك مساحات من الرمال الناعمة. كما أن الأرض الصخرية المفيدة بالتأكيد لحركة الدبابات، ليست مفيدة لحركة الجنود الذين عليهم حفر خنادق لهم وسط هذه الصخور. وأي مقاتل يعرف أن جندي المشاة المحروم من الحفر لإخفاء نفسه وأسلحته إنما هو حيوان عار ضعيف عاجز عن الدفاع عن نفسه.

إن فراغ الأرض الصحراوية يستوعب مليون دبابة وسيارة ومدفع وأكثر إذا وجدت من يملكها. وفي هذا الفضاء يمكن فتح جميع أنواع النيران التي تهلك الجماد والحيوان. كما أن هذا الفراغ من الأرض يتيح حرية المناورة ويغري بها، وهذا ما حدث مع روميل في هجومه على الجيش الثامن وطرده من برقة ومطاردته حتى العلمين. إن حرية المناورة، وهي في علم الحروب عمل تكتيكي، تؤدي في الصحراء إذا تمادى القائد فيها، إلى عيب إستراتيجي خطر هو بعد القوات عن قواعد إمدادها. وهذا ما حدث مع روميل أيضا وصل إلى العلمين، وترك قواعد إمداده في برقة.

«بعد الحرب لم أقابل جنديا واحد من الفرقة الإسكتلندية. هل تعرف ماذا كان يفعل جنود الفرقة الإسكتلندية. كانوا يعزفون موسيقي القرب. لا أنسى يوم وصولهم إلى المحطة. لقد ملأوا الدنيا صخبا بعزفهم، وراح الجنود السود الأفريكان يرقصون حولهم والجنود الهنود يضحكون في دهشة، قال لي جاويش هندي إنهم جاءوا ليعزفوا لهم ساعة الحرب على القرب ليشجعونهم على اقتحام الموت. كان هو يعرف قليلا من العربية إذ عمل من قبل ملاحا على سفن تنقل التوابل إلى البصرة، وكنت أنا أعرف بعض الإنجليزية من المعايشة للإنجليز في الإسكندرية وفي العلمين.

ذهاب سريع وإياب

قلت إن ساحل مريوط كان مسرحا لدخول وخروج الجيوش والقبائل من مصر وإليها على فترات طويلة مترهلة من التاريخ. وقلت في الجزء السابق من المقال، إن هذا الذهاب والإياب حدث مرة أخري لكن بإيقاع أسرع إبان الحرب العالمية الثانية. لقد دخلت إيطاليا الحرب عام ١٩٤٠م، وكان معنى ذلك فتح ميدان جديد في أفريقيا للقتال. بدأ المارشال جرازياني الزحف إلى الحدود المصرية. احتل السلوم ثم بقبق وتوقف عند سيدي براني. دخل إذن حوالي تسعين كيلو مترا في الأراضي المصرية. عند نهاية العام انطلق الجنرال «ويفل» من مصر فاستولى على سيدي براني وأسر آلاف الإيطاليين الذين شحنهم إلى الإسكندرية في القطارات، واستعاد بقبق والسلوم ودخل الأراضي الليبية فاستولى على «البردية» عام ١٩٤١م وأسر نحو عشرة آلاف جندي إيطالي أرسلهم بالسفن والطائرات إلى الإسكندرية، ثم احتل طبرق بعد حصار لسبعة عشر يوما، ثم احتل « درنة» ثم « بنغازي» عاصمة إقليم برقة وفي شهر مارس استولت قواته على واحة جغبوب وظهر للعالم انكسار العسكرية الإيطالية فتمت إقالة «جرازياني» وتولي «إروين روميل» الألماني – طبعا – قيادة قوات المحور وطارد القوات البريطانية في حركة معاكسة فاستعاد بنغازي ثم بئر حكيم التي كان يدافع عنها الفرنسيون الأحرار، وترك طبرق خلفه محاصرة وانطلق إلى مصر. في يونيو من عام ١٩٤٢م سقطت طبرق بطريقة مخذية صارت حديث العالم حيث تم أسر ثلاثين ألفًا من جنود الإمبراطورية البريطانية. منح هتلر روميل رتبة فيلد مارشال، وأرسل إلى موسيليني يقول :

«إن آلهة المعارك تزور المحاربين مرة واحدة، غير أن من يقعد عن التمسك بها حين تزوره لن يستطيع أن يمسك بها مرة أخري» كان يقنع موسيليني بضرورة استمرار روميل في الانطلاق داخل مصر. واندفع روميل بجنوده طاردين أمامهم الإنجليز والنيوزيلاند والأستراليين والفرنسيين والهنود واليونانيين وقليل من المصريين من حرس الحدود والبدو والجمال والماعز والأغنام والوحش والهوام وساد الزعر البلاد..

أبناء الله الصغار. أبناء الكومنولث

عندما وقفت مرة ثانية أمام مقابر الكومنولث بالعلمين أتأمل جمال زهورها وأرضها وتنسيق أشجارها كنت قد أدركت أنني أبلغ من العمر ما كان أبي قد بلغه بالضبط وهو يقف في نفس المكان الذي كان يعج بحركة المركبات والجنود، لا الصمت وجلال الموت كما هو الآن. كنت مشيت إلى محطة السكة الحديد وعدت. صعدت فوق رصيفها ومشيت ونزلت وعدت. كنت أحاول أن تطأ قدمي كل مكان ممكن حتى أفوز بالوقوف فوق كل مكان وقف عليه أبي. تخيلته في حيرته على رصيف المحطة يتأمل هذه القوات الغريبة من كل العالم، وهو الفلاح الأصيل الذي لم يكن يتصور أن خلف قريته بلادا. كم مرة فكر في أمي، وكم مرة اشتاق لرؤية أختي الكبري التي كانت على قيد الحياة، بينما مات أول أبناءه من الذكور. ترى هل كان يفكر في أمه وأخوته ؟ ذلك كله زمن لم أعشه. لقد أتيت إلى الدنيا بعد انتهاء الحرب. لا بد أن أبي كان حزينا وهو يقف بعيدا عن أهله على محطة كل من ينزل بها غريب من بلاد بعيدة مفرطة في البعاد. لقد تركت الدموع تنزل من عيني على مهل، وتركت نفسي أمشي بين المقابر أقرأ

أسماء الجنود. أسماء مألوفة بالنسبة لي، أسماء بريطانية. لكني حين انحرفت إلى يسار المقبرة، ناحية الشرق منها، ووقفت أمام أسماء الجنود الهنود راعني تشابه أسماؤهم من ناحية، وما راعني أكثر هو أعمارهم.

مقابر الهنود، أو ما تبقى من الموتى!، جزءين. جزء به رفات عدد ضخم من الجثث تم حرقها جميعا. أكثر من ستمائة جثة. لاحظ أن المقابر ليست لكل الشهداء فهناك شهداء لم يتم التعرف عليهم، وشهداء أكلتهم السباع والطير، وما هو موجود بالمقابر أعداد رمزية لضحايا تلك المعركة – وإلى جانب الجثث المحروقة والموضوع رمادها في مكان واحد تمتد قبور مميزة الشاهد كتب عليها باللغة العربية «الله غفور» ثم أسماء لغلام وسردار ومحمد وهاج الدين وضياء الدين وغيرها من أسماء المسلمين الهنود – لم تكن هناك باكستان بعد وأغلب هؤلاء المسلمين من بيشاور أفقر مناطق الهند ذلك الوقت، وباكستان حاليا، وأعمارهم جميعا أقل من عشرين سنة. كذلك وجدت أعمار الهنود الهندوس الذين تم حرق جثثهم. كان بينهم عدد كبير لم يتجاوز السابعة عشر من العمر. كان أبناء المستعمرات إذن وقود الحرب وكان موتهم بأعداد هائلة.

بين القبور مقبرتان لجنديين يهوديين كتب على موطنهما اسم «إسرائيل» لم تكن هناك إسرائيل وقت الحرب لكن المقابر التي أقيمت في فترة لاحقة، وبالأحرى الذين أقاموا المقابر من المسئولين الإنجليز، لم يجدوا معنى لذكر اسم فلسطين موطنا ليهوديين تم التعرف عليهما ضمن كثيرين قد ماتوا دفاعا عن الإمبراطورية البريطانية. ربما، لكن المؤكد أنهما كان يتدربان مع غيرهما على القتال الذي سيجري بعد ذلك مع العرب.

لكن مقبرتين لجنديين سودانيين أوقفتاني بشدة. . عند باب المقابر المهيب تقرأ أسماء الدول التي شاركت في المعركة، وتقرأ على الجدران قصة المعركة كاملة باللغة الإنجليزية وتقرأ أعداد القتلى والجرحى والأسرى والمفقودين لكل دولة. كان أكثر قتلى الكومنولث من الهنود، وكان أكثر الجنود بسالة الأستراليين وكان أقل عدد من الجنود شارك في المعركة من السودان. وهذان الجنديان قد قتلا وتم التعرف عليهما فأقيمت لكل منهما مقبرة. إن السؤال المضحك المبكي معا هو ما معني احتياج جيش بهذا العدد الضخم إلى جنديين من السودان. أحد هذين الجندين يحمل اسم «الصافي النعيم» اسم جميل ذو دلالة. لا بد أنه كان قطعة من الجنة ففضل الالتحاق بها بسرعة. لم يتجاوز أي منهما الخامسة والعشرين. كل جنود المستعمرات أقل سنا من جنود بريطانيا وأستراليا لكن أصغر الجميع جنود الهند صبية وأطفال أراد لهم الله، والكومنولث، الموت في صحراء العلمين. إنك لا تستطيع بسهولة أن تبرئ الحلفاء من الخطأ رغم أن الحلفاء كانوا يحاربون من أجل الديمقراطية وضد العنصرية.

للفرنسيين مقبرة صغيرة مستقلة، ولليونانين أيضا، وللألمان مقبرة صغيرة بعيدة بحوالي خمسة كيلو مترات غرب مقابر الكومنولث، وقريبة من البحر وعلى ربوة عالية، أقيمت فيما بعد، للإيطاليين مقبرة ضخمة مهيبة عالية متأخرة تبعد حوالي عشرة كيلو مترات إلى الغرب من مقابر الكومنولث وهي أيضا تقع على البحر مباشرة. جوار المقبرة الإيطالية مسجد صغير ومقابر قليلة لعدد من الجنود الليبيين الذين كانوا يحاربون في صفوف جيوش المحور. عدد قليل أخذ عنوة. المقبرة الإيطالية مستديرة

أسطوانية شاهقة كبرج مكسوة جدرانها بالمرمر وداخل الجدران رفات الجنود، وعليها كتبت أسماؤهم بعناية، والمقبرة الألمانية أصغر، بها أربع مقابر جماعية، وبينما يغلب الطابع العصري على معمار المقبرة الإيطالية الضخمة. يغلب الطابع الفرعوني، الممزوج بالطابع الكنسي على المقبرة الألمانية. حارس المقبرة الألمانية يغلقها دائما ويجلس في بيته القريب، وعلي من يريد زيارتها أن يناديه. حارس المقبرة الإيطالية موجود يقظ طول الوقت. طويل قوي رغم سني عمره السبعين. عاصر الحرب أيضا ويجلس يحكي قصصها الحقيقية ممزوجة بالخرافة.

قصة الحرب الخرافية

«لم يكن لدي روميل غير إناء صغير به ماء، وكذلك كان مونتوجمري. جلس كل منهما في مكانه وراح ينفخ في الإناء. ينفخ روميل فتخرج من الإناء الجنود والبنادق وينفخ مونتوجمري فتخرج من الإناء الجنود والبنادق التي تلتحم بجنود روميل الذي بدوره ينفخ من جديد فتخرج الدبابات تلحق بجنوده فيستعين مونتوجمري بنفسه الأقوي فتخرج الدبابات الأمريكانية لكن روميل ينفخ بكل ما أوتي من قوة فتخرج من المياه الطائرات فيقابلها مونتوجمري بنفخة طويلة عميقة وهكذا حتى انقطع نفس روميل الذي كان مريضا وظل مونتوجمري ينفخ في الإناء فيخرج الجنود ويخرج السلاح حتى انتصر الإنجليز. .شياطين !!.

هكذا حكي لنا بقال عجوز قصة الحرب ونحن أطفال. لكن أبي قال شيئا أخر..

«لم أغادر المحطة طوال فترة الحرب. كانت القطارات لا تكف عن نقل الجرحى ومن يمكن إخلاؤه من الموتى. كانت القطارات تتحرك عادة

بالليل، وكانت العلمين هي آخر محطة لها في الصحراء منذ دخول روميل الأراضي المصرية. كان صوت المدافع لا ينقطع بالليل ولا النهار وهجوم الطائرات لا ينقطع أيضا، ومن البحر كانت تأتي قذائف قوية وكنت أسمع أحيانا صوت موسيقى القرب وسط كل ذلك الصخب والموت. لعل الصوت كان في أذني منذ سمعتهم أول مرة. لقد ماتوا جميعا كما عرفت.

«بعد المعركة مشيت. تركت نفسي أمشي بين أشلاء القتلي لمسافة بعيدة. بصعوبة كنت أجد لقدمي مكانا على الأرض. القتلى يتجاورون، من كل الأمم، جنود المحور مختلطين بالحلفاء. الدم متخثر على الجثث والرمال. النمل يرعى في الأجساد الممزقة وآلاف من الأذرع المفصولة والسيقان المقطوعة والأقدام داخل الأحذية والرؤوس داخل الخوزات بعيدا عن الأجساد والجماجم المتفحمة والأجسام المحترقة لجنود كانوا منذ ساعات أو أيام أحياء. اختلطت الكوفيات الحريرية للضباط بالكوفيات العادية، واختلط أصحاب الركب البيض – وهو تعبير كان يطلق على الجنود الجدد قليلي الخبرة بحرب الصحراء – بذوي الركب الحمراء ولم تعد السترات الصوفية تقي أحدا من البرد لأنهم موتى، قبل المعركة كانت الإسكندرية شبه خالية من أهلها. هاجر السكان إلى محافظة البحيرة حيث أقامت لهم الدولة معسكرات إيواء، وهاجر من لهم أصول ريفية إلى بلادهم وكانت منهم أمك وأختك – هكذا قال أبي – وكان اليهود في ذعر فباعوا كثيرا من ممتلكاتهم بأثمان بخسة وهاجروا إلى فلسطين».

وكانت السنوات منذ دخول إيطاليا الحرب سنوات قلق وصل إلى ذروته بعد تولي روميل قيادة الفيلق الأفريقي. وكانت الغارات الألمانية

الإيطالية على الإسكندرية ثقيلة، وقصة انقسام البلاد بين مؤيد لألمانيا ومؤيد لإنجلترا معروفة في تاريخ مصر الحديث لكن من أغرب الأحداث ذلك الخطاب الذي أرسله قائد منطقة إسكندرية العسكرية إلى وزارة الحربية يسأل عما يجب عمله حال دخول قوات المحور إلى المدينة. هل يقاوم أم يستسلم؟ عُرض الخطاب على وزير الحربية حمدي سيف النصر فلم يرد عليه، لكن قائد منطقة الإسكندرية عاد وأرسل نفس السؤال فأمر وزير الحربية بنقله. لم يكن يدري قائد المنطقة المأزق الذي سببه لوزيره. فهو إن أجاب بالمقاومة قد يقتله الألمان إذا نجحوا في احتلال البلاد، وإذا أمر بالاستسلام سيحاكمه الإنجليز. وشاع بالبلاد أن السلطات البريطانية تفكر في نقل فتيات الأتسا(A.T.C) من المجندات البريطانيات وكن نحو ٥٠٠فتاة مهمتهن الترفيه عن الجنود، وتفكر جديا في تهريبهن إلى الأقصر حتى لا يستمتع بهن الألمان إذا دخلوا البلاد!

لقد تسلم مونتوجمري القيادة في الخامس من أغسطس ١٩٤٢م وكان من أكبر مشاكله كيف ينـزع من وجدان الجنود البريطانيين وحلفائهم فكرة أن روميل قائد لا يقهر. وواتته الفرصة في نهاية الشهر حين حاول روميل اختراق الدفاعات البريطانية من منطقة «علم حلفا» لقد استمرت المعركة أسبوعا بلا نتيجة ولم يستطع روميل اختراق الدفاعات البريطانية لأول مرة وكانت هذه أول هزيمة حقيقية للمحور تنذر بهزيمة على كل الجبهات وبدأ مونتوجمري يستعد للمعركة الفاصلة. «كنت في حاجة أن يهاجمني والآن أنا الذي سأهاجمه « قال ذلك بعد فشل روميل في معركة علم حلفا. وفي ليلة الثالث والعشرين من أكتوبر، وقبل الساعة الثامنة والنصف حيث اندلع القتال كان الجيشان اللذان يواجهان بعضهما يتكونان كالآتي:

مائة وأربعة وسبعين ألف جندي من دول الكومنولث والحلفاء مقابل مائة وثمانية آلاف من الإيطاليين والألمان. ألف ومائة دبابة لدى الحلفاء بينهما الدبابات الأمريكية شيرمان وجرانت قوية الدروع في مقابل ستمائة دبابة لدى المحور. مونتوجمري على رأس جيوشه، وروميل في ألمانيا للعلاج ولم يصل إلى ميدان القتال إلا بعد ثلاثة أيام من اندلاعه. تفوق في طائرات الحلفاء وقرب إمدادهم.

لقد أخذ الهجوم مراحل ثلاث. في الأولى تداعت خطوط المحور الأمامية، وفي الثانية تقدم الحلفاء ساحقين الهجمات المضادة لجيش روميل فاتحين طرقا في حقول الألغام الشيطانية التي حملت ولا زالت اسم حدائق الشيطان، وفي الثالثة مطاردة قوات المحور الهاربة بعد أن فقدت ثلثي قواتها وخمسمائة دبابة وكميات لا تحصى من العتاد.

لقد بدأت مرحلة المطاردة هذه مع أول نوفمبر، بعد ثمانية أيام من القتال الضاري، مات فيه الإسكتلنديون على كثرتهم لأنهم كانوا يعزفون، والسودانيون على قلتهم لأنهم كانوا في جيش لجب ! وفي الثامن من نوفمبر حدث الإنزال الأمريكي الأوربي على شواطئ المغرب والجزائر بقيادة أيزنهاور. بدأ الزحف من الناحيتين فاستسلمت كل القوات الباقية من جيش روميل الذي استطاع الوصول إلى ألمانيا لكن بعد أن انتهى الوجود الألماني الإيطالي من أفريقيا.

في الثامن والعشرين من أكتوبر كتب روميل إلى زوجته:

«لا زال في وسعنا الصمود. لكن قد نخفق ويكون لهذا نتائج وخيمة»

في الثاني من نوفمبر كتب إليها :

«قتال ثقيل جدا لا يدور في صالحنا. العدو بقواته المتفوقة يخرجنا ببطء من مواقعنا. إنها النهاية. يمكن أن تتصوري شعوري. غارة جوية بعد غارة جوية بعد غارة جوية».

وفي الثالث من نوفمبر كتب :

«بالليل أستلقي مفتوح العينين مُجهدا عقلي في سبيل إيجاد مخرج لجنودي المساكين من هذه المحنة. إن الموتى محظوظون فلقد انتهى كل شيء بالنسبة إليهم».

لقد شربت رمال العلمين دماء ثلاثة عشر ألف قتيل وجريح من دول الحلفاء، وخمسة وعشرين ألف قتيل وجريح من دول المحور فياله من نهر من الدم جرى على الأرض المهيأة من سالف الأزمان للقتل. إن الموتى المحظوظين، جنبا إلى جنب مع الأحياء، هم الذين أعطوا العلمين أهميتها كمعركة لم ينهزم بعدها الحلفاء ولم ينتصر المحور والآن لا بد أن العدد الأغلب من الأحياء قد لحق بالموتى، وهؤلاء جميعا أعطوا المكان أهميته التاريخية. إن الموتى من الهنود والنيوزيلاند والأفريكان هم فقط الذين لا يزورهم أحد حتى الآن. كانت بلادهم فقيرة أيام الإمبراطورية، وظلت فقيرة بعد أن غابت الشمس عن الأسد البريطاني! مساكين أبناء آسيا وأفريقيا يقاسون الوحدة في الحياة والموت. ومن فضائل الله أنه أزادهم من نعمة النسيان فظل من عاش منهم باقيا في الحياة!!

الإسكندرية / صورة شخصية

أصوات خفية حبيبة، أصوات أولئك الذين ماتوا، أو أولئك الذين هم بالنسبة إلينا ضائعون مثل الموتى، تتكلم في أحلامنا أحيانا، وأحيانا في الفكر يسمعها العقل، ومع أصدائها تعود برهة، أصوات من قصائد حياتنا الأولي مثل موسيقى بعيدة في الليل تخبو.

«كفافيس ...»

عروس دائمة للبحر

هل كان ذلك الفتى النبيل، الإسكندر، تلميذ أرسطو النابه، يعلم أنه لا يقيم فقط مدينة تحمل اسمه خالدا على الزمان، وإنما يقيم عالما بأسره وتاريخا كاملا. أغلب الظن أنه كان يعرف. . هو لم يكن معنيا بالخلود فقط، بل بتغيير الدنيا. .

المسافة من جزيرة فاروس – الأنفوشي حاليا – إلى راقودة – كرموز الآن – يقطعها السائر على قدميه في أقل من ساعة، ولا بد أنه كان يفعل ذلك قبل الميلاد في وقت أقل أيضا، ذلك أنه لم تكن هناك بنايات يدور حولها ولا طرق محددة، كانت الأرض مسطحا من رمال وماء. لقد وقف الإسكندر بفرسه في راقودة فرأى آخر نقطة عند البحر –فاروس – فقرر أن يصل بينهما. لكنه مات قبل أن يتم ذلك.

لقد كان بطلميوس الأول، وخلفه الثاني، هما اللذان أتما بناء الإسكندرية. لذلك أنا لا أصدق أن الإسكندر الأكبر مدفون في الإسكندرية. أعلم أن هناك دراسات كثيرة جادة تؤكد دفنه في مدينته، وأحترم كل هذه الدراسات، وكل المحاولات التي تمت لاكتشاف مقبرته، والتي اشترك فيها علماء كبار وجرسونات أيضا! أعلم كل ذلك ولا أصدق أن الإسكندر

مدفون بالإسكندرية. لقد وضع الإسكندر حجر أساس المدينة العالمية عام ٣٣١ ق. م وأوكل مهمة تخطيطها إلى دنيوكراتيس البارع في الهندسة وانتهى الأمر عند ذلك.

قام دنيوكراتيس البارع في الهندسة بتخطيط المدينة مثل رقعة من الشطرنج. شوارع مستقيمة من الشمال إلى الجنوب تقطعها شوارع مستقيمة من الشرق إلى الغرب. والعكس صحيح طبعا وبين هذه الشوارع شارعان كبيران أحدهما من الشمال إلى الجنوب أغلب الدراسات تؤكد أنه شارع النبي دانيال الحالي، والثاني من الشرق إلى الغرب هو طريق كانوب القديمة أو طريق أبو قير حديثا أو طريق الحرية ثم طريق جمال عبد الناصر الذي نسي السادات أن يغير اسمه. الشارع الأول الذي يحمل اسم النبي دانيال الآن شارع صغير مريح للأعصاب تكسر مبانيه العتيقة المتوسطة الارتفاع غالبا حدة ضوء الشمس فتجعله ظليلا طول النهار أو على الأقل محتمل الحرارة، وهو شارع به مجموعة من الآثار الرومانية مثل حمامات كوم الدكة القريبة أو صهريج مسجد النبي دانيال أو آثار البرديسي الواقعة بشارع البرديسي المجاور لسيدي عبد الرازق الوفائي المقابل للنبي دانيال. إذن نعود للنبي دانيال كلما ابتعدنا، ووجب أن نقول إنه ليس بالنبي دانيال المذكور في التوراه لكنه الشيخ محمد بن دانيال الموصلي أحد شيوخ المذهب الشافعي الذي قدم إلى الإسكندرية في نهاية القرن الثامن الهجري واتخذ مسجد الإسكندر – هكذا كان اسم المسجد – مكانا له يلقي فيه دروسه حتى توفي عام ٨١٠هـ فحمل المسجد اسمه ونسى الناس اسم الإسكندر. هذه أعجوبة كاملة لأن الدراسات التي قالت بوجود قبر الإسكندر تحت

الجامع ثبت عدم صحتها، وأولاد البلد قبل الدراسات بقرون أزالوا اسم الإسكندر غير الموجود من فوق الجامع ووضعوا اسم ابن دانيال الموجود. أما تحور الاسم إلى النبي دانيال فربما لقرب المكان من حي العطارين حيث تجارة اليهود والجاليات الأجنبية والأغلب أن الحس الشعبي لا يفرق مع الوقت بين ولي ونبي.

هذا الشارع شبع حفرا في سنوات الستينيات والخمسينيات بسبب جرسون مجنون كان اسمه «استيليوس» كان يونانيا يزعم أنه عثر على مخطوطات تحدد وجود قبر الإسكندر. وفي أوائل السبعينيات أظن عام ١٩٧٢م، أشيع أن شابا كان يمشي مع خطيبته بالشارع وعند التقاء الشارع بطريق الحرية غارت الأرض وسقطت خطيبته فيها وضاعت. لقد رأيت أنا هذه الحادثة، ورأيت فرق الإنقاذ وهي تحفر الأرض بحثا عن الفتاة التي ابتلعتها الأرض، كان أهل الإسكندرية يخرجون جماعات يحيطون بعمال الإنقاذ في انتظار العثور على الفتاة وأعلن عمال الإنقاذ أن الأرض تحت الشارع مليئة بالآثار والغرف والطرق السحرية لقد ضاعت «مرفت» إلى الأبد. هكذا كان اسم الفتاة.

لقد أحيطت الإسكندرية القديمة بسور كبير زال واندثر مع الأيام. سور وقف أمامه أنطيوخوس الرابع ملك سوريا حين أراد غزو مصر عام ١٧٠-١٦٨ق.م ولم يدخل الإسكندرية لكن الذي دخلها كان دقلديانوس. الإمبراطور الروماني الشهير الذي تفنن في تعذيب المسيحيين والذي سمي عصره بعصر الشهداء وبإحدى مذابحه بدأ التقويم القبطي لقد استطاع دقلديانوس دخول الإسكندرية التي كانت قد أعلنت الثورة عليه وخلعته

من حكم روما، وأعلنت قائد ثورتها لوكيوس دويمتيوس إمبراطورا ووقف دقلديانوس ثمانية أشهر أمام السور بين عامي ٢٦٥-٢٦٦ميلادية ثم نجح في دخول المدينة وحوّلها إلى حمامات دم.

[يقال إن أهل الإسكندرية على طول التاريخ كانت لهم حرفة واحدة رئيسية هي السخرية من حكامهم بقول الشعر والانشغال بمصارعة الديكة لذلك لم يكن هناك صفاء أبدا بين أهل الإسكندرية وأي من الحكام الذين لم يتوقفوا عن اضطهادهم حتى كاد الشعب يباد].

أنا أصدق هذه المقولة حينما أتذكر أن محمد علي باشا تولى أمر البلاد المصرية عام١٨٠٥م وكان تعداد أهل الإسكندرية ثمانية آلاف، هي التي بلغ تعداد سكانها في العصر الروماني إلى ثلاثمائة ألف حر، ونستطيع أن نضيف مثلهم من العبيد.

نعود إلى دقلديانوس هذا لنعرف أن أهل الإسكندرية هم أنفسهم فيما بعد، بعد أن استقرت الأوضاع، ورفع عنهم جزية القمح، التي كانوا مضطرين لدفعها إلى روما، قاموا بتخليد ذكرى دقلديانوس الرهيب بإقامة نصب تذكاري من أجمل ما حفظته لنا المدينة من آثار ألاوهو عمود السواري الذي يقف شامخا على ربوة السرابيوم بكوم الشقافة برقودة القديمة، أو كرموز الحالية. سكان حي كرموز يتصفون بالجسارة والقوة حتى الآن رغم أن الحي الشعبي العريق عشش فيه الفقر والمخدرات. في هذا الحي عشت طفولتي وصباي. في صباي كنت أنظر إلى عمود السواري الشامخ مندهشا لا أعرف عنه أكثر من كونه أثرا جميلا. فيما بعد عرفت أن الموقع الذي أقيم فوقه من أهم الآثار وكان فوق نفس الهضبة معبد

السيرابيوم الذي أسماه العرب قصر الإسكندرية، وكان عمود السواري يتوسط أربعمائه عمود ترفع القصر الذي تهدم. الأعمدة نفسها حملها الجنود أيام صلاح الدين الأيوبي وألقوا بها في البحر لتحصين الإسكندرية الأن.

من يغطس في الميناء الشرقية بالإسكندرية يرى هذه الأعمدة الغارقة.

أسفل هضبة كوم الشقافة هذه توجد جبانات أثرية خالية الآن كنا ندخلها في صبانا باعتبارها مغارات. نحمل في أيدينا شعلا من نار على طريقة المستكشفين ونطارد الخفافيش. كان يسكن الهضبة جماعات فقيرة من النوبيين يبيعون الفول السوداني واللب في القراطيس يجوبون بها شوارع الإسكندرية، وبعض الغجر الذين كنت أحب رقصهم وغناءهم والحلقان في أنوفهم والوشم الأخضر على كل جزء عارى من أجسادهم. عمود السواري حقيقة لكن مثل كل حقيقة كبيرة دارت حوله الأساطير. ومن أبرز ما قيل من خرافات أن أكثر من عشرين شخصا تناولوا غداءهم مرة فوق تاج العمود، أو أن رأس «بومبي» موجودة في جرة فوق تاج العمود، لكن المؤكد أنه جرت محاولة لإقناع كلا من لويس الرابع عشر، ومن بعده الخامس عشر، بنقل العمود إلى فرنسا ليكون قاعدة لتمثال كل منهما على التوالي. والحمد لله أن أحدهما لم يقتنع بالفكرة.

عمود السواري قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر طولها ٢٠,٧٥مترا وقطرها عند القاعدة ٢,٧٠ مترا وعند التاج ٢,٣٠ مترا قطعت من جبال أسوان ونقلت سليمة إلى الإسكندرية لينقش عليها بالهيروغليفية واليونانية ما يؤكد أنه أقيم تخليدا لذكرى الإمبراطور المتوحش. . أنا لا أصدق. لا بد أن أتباع هذا الإمبراطور هم الذين فعلوا ذلك وألصقوه

بأهل الإسكندرية. لم تكن الإسكندرية تعتبر جزءا من مصر. كان اليونانيون ومن بعدهم الرومان يقولون عنها الإسكندرية المجاورة لمصر. ولدت من يومها تاريخا مستقلا. صارت سيدة العصر الهليني. كان طولها في بدايتها خمسة كيلو مترات وعرضها حوالي الكيلو متر ونصف الكيلو متر، طولها ازداد مع الزمن. عرضها لم يزد كثيرا بسبب بحيرة مريوط التي تضغط على جنوبها، وبحيرة إدكو والصحراء. لذلك مكتوب على الإسكندرية أن تستطيل مع البحر. أن تنام حتى القيامة في حضن الموج. هي عروس دائم للبحر المتوسط. هكذا أرادتها الطبيعة برغم ما يقذفه بها بنو الإنسان من تلوث وتخبط واستبداد.

حكاية الفنار

من أهم أسباب ازدهار الإسكندرية قديما وجود الفنار الشهير، أحد عجائب الدنيا السبع القديمة، الذي شيده المهندس سوسترا توس ابن ديكسيانس في عهد بطليموس الأول لينتهي منه في عهد بطليموس فيلادلفوس حوالي عام ٢٨٠ق.م. لقد كان الفنار يرتفع إلى ١٣٥ مترا يهدي السفن إلى الميناء. وكان أيضا يستخدم في حرق سفن الأعداء بالمرايا الضخمة تعكس حزما من أشعة الشمس مركزة عند اللزوم. لقد أباد الزلزال الفنار العجيب.

حكاية الترعة

السبب الثاني الهام لازدهار الإسكندرية قديما كان وجود ترعة من المياه العذبة هي ترعة «شيديا» مكانها الآن سوق شيديا لابد، أو على الأقل مكان

جزء منها. كانت الترعة تربط بين النيل والميناء. أي بين الإسكندرية وأعماق القارة الأفريقية.

اندثرت الترعة واضمحل شأن الإسكندرية واحتاجت إلى ترعة أخرى في العصر الحديث شيدها الباني من الأناضول، هو محمد علي باشا. هذه الترعة حملت اسم السلطان العثماني هذه المرة. أقصد بها ترعة المحمودية. أجل. ترعة المحمودية هي سبب ازدهار الإسكندرية في العصر الحديث. لقد مضى زمن طويل على الإسكندرية وهي مقطوعة الصلة بالقاهرة وإبان العصر التركي والمملوكي كانت قلعة قايتباي التي أقيمت مكان الفنار القديمة تستخدم كسجن ومنفى للخصوم.

لقد صدرت أوامر محمد علي باشا السنية ببدء حفر الترعة عام ١٢٣٣هـ - ١٨١٩ م وأن تعمق حتى تجري فيها المياه صيفا وشتاء، وأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل والكلام هنا للجبرتي - فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم في المراكب ومات الكثيرون منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه روح ... يا ساتر يا رب.

لقد انتهت الترعة، وانتهى حفرها عام ١٨٤٠م، وبلغ سكان الإسكندرية ستون ألفا وفي عام ١٨٤٨م بلغو مائة وثلاثة وأربعين ألفا. من هذا الإحصاء تعرف ما الذي أضافته الترعة إلى المدينة التي تسلمها محمد على وسكانها لا يزيدون على الثمانية آلاف.

لقد شاهدت في صباي ترعة المحمودية هذه وهي عروس جميلة نظيفة تمشي فيها السفن الكبيرة على مهل حاملة بضائع الصعيد والدلتا إلى الميناء وإلي الإسكندرية عمومًا، وكان أكثر ما تحمله القطن والقصب والقمح.

واستمعت إلى غناء النوتية المعذب، وشاهدت جماعات السمار من الشباب والفتيات في الأماسي وقبل المغيب وهم ينطلقون فوق الماء في الفلائك الصغيرة الملونة يمرحون ويتحابون. كانت متنـزها للفقراء والمحبين الفقراء. كتبت رواية قصيرة هي «ليلة العشق والدم» تجري مجمل أحداثها على هذه الترعة. كتبتها فيما بعد. لقد صارت الترعة مكانا كريها لما ألقي فيها من فضلات المصانع، صارت بؤرة للتلوث جنوب الإسكندرية، يقولون إنهم يعيدون تنظيفها الآن. لعل ذلك يكون صحيحا. أنا لم أجد في البلاد أمة تتخلص مما لديها من مسطحات مائية مثل أمتي التي برع أهل عصرها الحديث في ردم أجزاء كبيرة من البحيرات بدءا من بحيرة مريوط بالإسكندرية حتى بحيرة البردويل في سيناء. على أي حال، أبناء جيلي من الأحياء الشعبية الجنوبية يحتفظون لهذه الترعة التي أعلت من شأن المدينة بذكريات جميلة. قفزت هذه الذكريات لتستحوذ بأسطورتها على جانب كبير من روايتي، لا أحد ينام في الإسكندرية، وأكثر منها في رواية طيور العنبر. الأبرياء واللصوص التي كانت تطارد بحارة السفن وتسرق بعض بضائعها. لازلت أذكر براعة أولئك اللصوص في السباحة والغطس لوقت طويل تحت الماء حين يداهمهم البوليس بالرصاص. أجل كانت تحدث معارك حقيقية لم تكن بالنسبة لي وأصحابي في صبانا تختلف عن المعارك السينمائية فكنا نجري بين الفريقين بلا خوف من رصاص. كنا نطلق على اللصوص أسماء الأبطال السينمائيين حميدو وطرزان وغيرهما. كانت السينما هي العالم الساحر الذي أدين له بالكثير من المعارف إلى جانب مكتبة الإسكندرية العريقة، مكتبة البلدية، ومكتبات قصور

الثقافة التي أنشأتها الثورة ومكتبات المدارس أيام كانت هناك مدارس ومكتبات. . أحب أن أقف قليلا عند السينما لكني أؤجل ذلك حتى أنتهي من الحديث عن الشمال والجنوب في الإسكندرية ما دمت تحدثت عن المحمودية فلا بأس أن أتحدث عن البحر. الأولى ملمح الجنوب الرئيسي والثاني وجه الشمال الثابت إلى يوم الدين وقبل أن أخرج من هنا أحب أن أقول إن الترعة سلبتني العقل والقلب وإنني أقمتها من جديد في أعمالي. لقد منحتني أسرارا للوجود فمنحتها وجودا أبديا وأقمت عليها حارسا للزمان والمكان في رواية طيور العنبر.

الشمال والجنوب

شمال الإسكندرية منذ نشأتها هو الحي الملكي. تغيرت المسميات والوجوه لكنه ظل حي الصفوة، الملوك والغرباء !

قديما كانت المساحة المطلة على الميناء الكبير هي حي القصور الملكية الممتدة حتى «السلسلة».

في هذا الحي الملكي شيدت أروع معالم العاصمة، عاصمة العصر الهليني، الإسكندرية. فإلى جانب القصور شيدت الحدائق والنافورات والمتاحف ودار الحكمة ومعبد بوسايدون إله البحار ومعبد قيصرون ابن كليوباترا ويوليوس قيصر التعيس الذي قتله أوكتافيوس مكتفيا بوجود قيصر واحد، هو نفسه. مسكين قيصرون هذا ولد بسبب الفتنة، فتنة أمه ليوليوس قيصر، ومات بسبب الفتنة، فتنة أمه لانطونيوس وفشلهما في الحرب مع روما.

في هذا الحي الملكي شيدت أيضا مكتبة الإسكندرية الشهيرة ودار القضاء، والجيمانزيوم والبانيون ذلك التل الكبير الذي أقامه أهل الإسكندرية تكريما للإله «بان» بحيث يطل من يقف فوقه على المدينة كلها. إن بقايا هذا التل هي ما يعرف بكوم الدكة الآن. تلك التي نصب عليها نابليون مدافعه. والتي كان على سطحها معسكرات قوات « بلوك النظام» قبل الثورة ينطلقون منها لمقاومة المظاهرات. كان من بين هذه القوات عام ١٩٥١ م ضابط اسمه سعد الدين وهبة سيأخذ قواته من الجنود لإنهاء إضراب عمال مصنع «سباهي» للنسيج القائم شرق المدينة عند كوبري صغير على ترعة المحمودية اسمه كوبري الناموس. سيمضي هذا الضابط الشاب وقته فوق الكوبري منتظرًا أحداثًا لا تقع سيكتبها فيما بعد في واحدة من أجمل المسرحيات العربية، مسرحية «كوبري الناموس» وعلى هذا التل الصناعي، ومع تقدم الأيام سينمو حي شعبي كتب عليه النسيان دائما هو حي «كوم الدكة» الذي لا يذكر إلا إذا ذكر سيد درويش سيد الموسيقى وشهيدها غريب أمر حي كوم الدكة هذا، فالذي يمشي في طريق الحرية قادما من باب شرق سيكون الحي على يساره دائما ينفذ إليه من أي زقاق جانبي لكن نادرا ما يلتفت شخص إلى وجود هذا الحي على اليسار، ليس من المعقول أن يكون خلف هذه العمارات الجميلة تل كبير عليه بيوت متزاحمة فقيرة. والذي يمشي مجاورا للسكة الحديد لا يدرك أن خلف المشرحة العامة والأبنية الحكومية المختلفة يوجد تل فوقه بيوت مزدحمة هو كوم الدكة. لقد ولدت وعشت في الإسكندرية حتى الخامسة والعشرين من عمري بشكل متصل ولم أدخل هذا الحي غير مرتين أو ثلاثة لزيارة بعض زملاء الدراسة الذين نسيتهم أيضا الآن.

حي كوم الدكة هو الحد الفاصل بين الشمال والجنوب. بعده يترامى الجنوب بأحياءه الفقيرة كلها الممتدة حتى المحمودية كرموز – راغب –غربال – وتمتد بالطول، تماما كالإسكندرية، تشمل مينا البصل وباب الكراستة والقباري حتى المكس الآن. بعد أن طالت المدينة واتصلت بالصحراء في الغرب حتى منطقة العامرية، وبالزراعة في الشرق حتى منطقة أبو قير.

وكما امتد الجنوب بأثر زحف أبناء الريف امتد الشمال بأثر ازدياد الأجانب في الإسكندرية منذ تولي محمد على باشا ومع ازدهار المدينة المستمر. يقول على مبارك في الخطط. « ولما كثرت الإفرنج والأغراب في مدينة الإسكندرية واستوطنوها واستحوذوا على كثير من الفضاء الذي كان بداخل المدينة وضواحيها رغبوا في سكنى الرمل وهي قرية شرق المدينة، وأكثروا من شراء الأملاك لقلة ثمن الأرض إذ ذاك».

وفي موضع آخر يقول « في آخر زمن المرحوم سعيد باشا ابتدأ الناس في سكنى جهة الرمل خارج المناطق العسكرية، فاتسعت المدينة وكثر سكانها حتى بلغ عددهم سنة ١٨٧٢ ميلادية «٢١٢ ٤٣٠ نفسا من ضمنها ١٦٤٧م أغراب من ملل مختلفة».

إن أسماء المحطات والشوارع في الشمال والجنوب تريك إلى أي حد كانت الإسكندرية مدينة كوزموبوليتية مدينة العالم الحقيقية ابتداء من «باكوس» إلى «سوتر وشوتس» و«جيليمونونوبلو» و «ستانلي» و«فيكتوريا» وكامب شيزار وغيرها وغيرها من أسماء الشوارع أيضا، في المناطق الشمالية أو في الجنوبية القديمة وبصفة خاصة منطقة كرموز – رقودة أصل الإسكندرية حيث كنت تجد على رأس كل شارع لافتة تحمل اسمه اليوناني القديم ثم اسمه العربي الحديث..

في جنوب الإسكندرية يتكدس الفقراء وتتكدس المصانع أيضا. الشمال والجنوب قسمة ضيزي في كل الدنيا، الشمال يعيش دائما على حساب الجنوب في كل العالم.

***

الثانية عشرة والنصف. مضى الوقت سريعا منذ أن أوقدت المصباح في التاسعة وجلست هنا. منذ أن أوقدت المصباح في التاسعة جاءني طيف جسدي في شبابه وذكرني بغرف مغلقة تلوح فيها العطور، وبمتع عابرة، وكم كانت متعا جسورة، كم مثلت أمام عيني شوارع لم تعد معروفة، ودور للهو اندثرت وكانت ضاحكة بالحركة ومسارح ومقار كانت لها وجود ذات يوم. جاءني طيف جسدي في شبابه وذكرني بالأحزان أيضا. . الثانية عشرة والنصف. كيف مضى الوقت سريعًا هكذا. كيف مضت السنوات وولت؟

كفافيس

السينما.. السينما

لم ألحق بالأجانب. لحقت بالقليلين منهم وبالكثير من الذكريات يحكيها الكبار عنهم. كان أول اتصال كبير بيني وبينهم من خلال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م طائرات تلقي بالقنابل على المدينة وغارات ليلية، أقل طبعًا مما جرى في الحرب العالمية الثانية لكن بالنسبة لطفل صغير مثلي ذلك الوقت كانت تلك هي الحرب. ورأيت الأيام الأخيرة لشوارع نصف البلد وهي مملوءة بالأجانب وبميدان المنشية وهو مركز لتجارة المال وتبديل العملة. كان كل شيء أبيض ونظيف في عيني الصبي القادم من حي كرموز الشعبي حيث كل شيء رمادي. طيور العنبر روايتي الكبيرة تحاول الإمساك بتلك الفترة كما حاولت من قبلها الإمساك بالمدينة تحت الحرب العالمية الثانية في رواية لا أحد ينام في الإسكندرية. المدينة في وجهين مختلفين، وجه الوجود القوي للأجانب ووجه الخروج الدرامي المثير. هما روايتي المذكورتين على ترتيبهما في الكتابة والنشر، لا أحد ينام ثم طيور العنبر.

السينما كانت هي المصعد السماوي الذي حملني إلى عالم الآخر، الأجانب، أكثر من أي شيء آخر.

إن أول عرض سينمائي في العالم كان عام ١٨٩٥م للأخوين لوميير في باريس، في العام نفسه كان أول عرض سينمائي في مصر في مدينة الإسكندرية بمقهى الكوزمو – طبعا لم يعد له وجود، لا المقهى ولا سينما الكوزمو فيما بعد. من يومها صارت الإسكندرية مدينة السينما الأولى، وفيها كانت أول أستوديوهات ومنها خرج أول مخرج مصري هو محمد بيومي الذي أنشأ أستوديو بيومي في الإسكندرية في العشرينيات وأخرج عددا من الأفلام القصيرة. للدكتور محمد القليوبي كتاب مهم عن هذا الموضوع.

وكانت سينمات الأحياء الشعبية هي باب الثقافة الكبير لي ولغيري من أبناء الشعب الفقراء. كنت أدخل السينما كل يوم، وأحيانا مرتين في اليوم الواحد، ولم يؤلمني شيء قدر هدم هذه السينمات واحدة بعد الأخرى منذ السبعينيات في القرن الماضي، وكانت أول مرة أشاهد فيها فيلما في سن الخامسة.. أجل. كنت في مدرسة «روضة أطفال» في حي كرموز، وكانت أمي تذهب بي وتتركني ثم تعود وتأخذني آخر اليوم. وذات صباح رأيت باب الروضة مفتوحا فخرجت، وجدت الشارع جميلا وواسعا فمشيت خطوات ووجدت زحاما أمام باب فوقه صور جميلة ملونة والناس تدخل من الباب فدخلت معهم ولم يسألني أحد شيئا، ربما لصغر حجمي ذلك الوقت مما لم يلفت انتباه الحارس. وجدت الناس تجلس فجلست أظلم المكان ولم يخف أحد فلم أخف. بدأت الصور تخرج على الشاشة. يا إلهي أي بئر مسحور هذا الذي وقعت فيه. من يومها صرت كل يوم، تذهب بي أمي إلى الروضة وتعود فأخرج أنا إلى حفلة السينما الصباحية، وتأتي أمي وأكون أنا قد عدت من الحفلة وأقف أمام باب الروضة. هكذا كنت أصغر طفل في العالم تقريبا يهرب من المدرسة، حتى جاء يوم أقبلت أمي مبكرا ولم تجدني، وكانت كارثة. كنت الطفل الوحيد بعد أطفال ماتوا، وبدا أن أمي يمكن أن تشعل النار في الروضة ولا أعرف كيف مضي الوقت عليها حتى عدت من السينما. من يومها عينت صبيا أكبر مني يحرسني حتى لا أذهب إلى السينما لكن هذا الصبي بدوره كان يأخذ مصروفي نظير أن يتركني أذهب إلى السينما!

أكثر من ثلاثين سينما شعبية تم هدمها منذ سبعينيات القرن الماضي، سينما مصر في كرموز وسينما الجمهورية في راغب وسينما ستار في محطة

الرمل وسينما كليوباترا في الفراهدة وسينما التتويج في الأنفوشي وسينما قيس وسينما ليلي في باكوس وسينما كوزمو وركس والشرق في المنشية وسينما بارك وماجيستيك والهمبرا وريتس في محطة الرمل وسينما الحضرة وسينما محرم بك وسينما الهلال بالقباري وسينما النصر بالدخيلة وسينما سبورتنج وغيرها. . كنت مثل المجنون يجري بين السينمات وكلما رأيت فيلما، ذهبت أبحث عن الرواية الأجنبية التي أخذ عنها الفيلم. من السينما عرفت هوجو وملفل ودستويفسكي وتولستوي وسارتر وتوماس مان وهيمنجواي وسومرست موم وكل كتاب العالم الكبار. ومنها فتنت بالملاحم الإغريقية والدراما الإغريقية. كنت في الحادية عشرة من عمري وأراهن زملائي أن أذكر لهم عناوين مائة وخمسين فيلما أجنبيا، وكنت أجري بين إلهات التمثيل وألهته في السينمات، صوفيا لورين وأودري هيبورن ومارلين مونرو وأفاجار دنر وبرجيبت باردو وكيم نوفاك وجينا لولو بريجيدا وغيرهن وبيرت لانكستر وكيرك دوجلاس وجون واين وروبرت تايلور وغيرهم وغيرهم وكلهم تسللوا إلى رواياتي فهم عجينة روحي لا يمكن فصلهم عنها.

ولو لم أكن روائيا وكاتبا للقصة ربما كنت مؤرخا سينمائيا. أقول مؤرخا لا ناقدا. والحقيقة أنني مندهش من قدرة نقاد السينما على انتقاد أولئك العمالقة من الرجال والنساء. عمالقة التمثيل !!

في حياة كل منا مع فيلم ما قصة أو أثر ما. وأنا أتوقف كثيرا عند فيلم سبارتاكوس الذي شاهدته في سينما رويال بالإسكندرية عام ١٩٦١م.

تقع سينما رويال في مكان مسحور تدخل إليه من طريق الحرية. أمامها مباشرة مسرح سيد درويش، أو محمد على سابقا، أي أنها تقع في منطقة شديدة الهدوء لا تطل على شارع رئيسي، ولا يذهب إليها إلا رواد المسرح من الخاصة ورواد هذه السينما ذات التاريخ الخاص، كنا في صبانا نحلم بدخول هذه السينما التي شاع بيننا أنه لا يدخلها إلا من يرتدي بدلة اسموكن سوداء فاكتفينا بالحزن لكننا تجرأنا وذهبنا وكان اليوم عيدًا في ذلك العام. كانت ملابسنا نظيفة ولكنها لم تكن بدلا ولم يطردنا أحد. تركونا ندخل ولم يسأل أحد عن هويتنا. رأيت جين سيمونز ذات الوجه الملائكي النحيل الحزين وهي تحكي ضاحكة باكية لكيرك دوجلاس – سبارتاكوس كيف هربت من تاجر العبيد السمين الذي فشل في اللحاق بها، وكان هذا التاجر هو الممثل العظيم بيتر استينوف ورأيت جين سيمونز في آخر الفيلم وهي ترفع ابنا لسبارتا كوس وهو مصلوب تقول له إنه – ابنه – سيواصل الكفاح من أجل تحرير العبيد. منذ هذا الوقت لا تضيع مني صورة جين سيمونز ومأساة سبارتاكوس وقد تغالبني دموعي حين أتذكرها. لقد كان فرحنا نحن الصبية لا يقارن ونحن نرى توني كيرتس يقوم معلنا أنه سبارتاكوس، للورانس أوليفييه القائد الروماني وإمبراطور روما فيما بعد وهازم سبارتاكوس. إن هذه الصورة من الفداء والتضحية لا تنسى خاصة أنه بعد أن أعلن توني كيرتس ذلك ليفدي زعيم الثورة، قام الجنود الأسرى واحدا إثر الآخر ليلعن أنه سبارتاكوس في مشهد غير مسبوق في السينما العالمية. لقد ظللنا نحن الصبية نتفاخر بهذا المشهد حتى فرقت بيننا السنون. كنا كأننا الثوار نفدي زعيما مجهولا.

لماذا أثر فينا هذا المشهد كل هذا التأثير؟ هل جاء متسقا مع الطبيعة السكندرية، أم الطبيعة الإنسانية؟ الحقيقة أنه جاء متسقا مع الاثنين معا. أبناء الإسكندرية ليس فيهم «لوع» هم أكثر أبناء المدن وضوحا. مدينتهم مفتوحة للضوء والريح ولا شيء يخافون عليه لذلك مثلا تجد كتاب الإسكندرية الذين يعيشون في القاهرة لا يكونون أبدا شلة أو جماعة أدبية. الواحد منهم لا يرى حاجة إلى أي قوة إضافية. إنه لا يحتاج لغير الوضوح، السكندريون يكرهون الحيلة من أي نوع؛ لذلك تشتهر الإسكندرية بأنها أول من يلبي نداء الثورة دائما. لقد كانت الإسكندرية هي مدينة مصطفى كامل المفضلة ومدينة عبد الناصر المفضلة أيضا هل هذا هو سر إهمالها فيما بعد؟!

والإسكندرية منذ العصور القديمة على رأيها. لقد خالفت الكنيسة السكندرية والكنسية الرومانية وثبتت الكنيسة السكندرية على رأيها بالطبيعة الإلهية للمسيح وبانتفاء الطبيعة البشرية، وظلت حتى الآن لم تتغير وشاعت في الدنيا القوله الشهيرة : العالم ضد إثناسيوس، بابا الإسكندرية، وإثناسيوس ضد العالم. . لذلك شهدت الإسكندرية أكثر المذابح، في إحداها عام ٢٨٤ ميلادية سيق ثمانون ألف سكندري مسيحي إلى بلدة إسنا بجنوب مصر وقتلوا جميعا. هذا هو عام الشهداء ومبتدأ التقويم القبطي. ولقد شهد حي رقودة، أكثر المذابح، وهو نفس الحي الذي سيشهد في الحرب العالمية الثانية أكثر الغارات الألمانية الوحشية على المدينة، لقد شغل ذلك، بل قامت عليه في جانب هام منها رواية «لا أحد ينام في الإسكندرية» كذلك هو نفس الحي الذي به فرق العوالم والغناء. هو حي الموت والحياة معا.

إن الحديث عن تاريخ الوطنية في الإسكندرية طويل، ويكفي أن أذكر لك أنه في الرابع من مارس عام ١٩٤٦م خرجت مصر كلها في مظهر حداد على شهداء يوم ٢١فبراير السابق، ذلك اليوم الشهير الذي فتحت فيه قوات الشرطة كوبري عباس بالقاهرة وحاصرت الطلاب المتظاهرين بالرصاص فلم يجدوا أمامهم إلا الغرق في النيل.

تجد هذا المشهد المثير في فيلم في بيتنا رجل – لقد أصبح هذا اليوم، يوم الغرق، هو يوم الطالب العالمي في كل مكان بالعالم، المهم أنه في يوم الحداد ذاك اشتبك شباب الإسكندرية مع القوات الإنجليزية بميدان محطة الرمل حول تمثال سعد زغلول واستشهد من الشباب ثمانية وعشرون وجرح ثلاثمائه وخمسون رغم أن تمثال سعد زغلول يعطي وجهه إلى البحر ويشير إليه قائلا بشكل ما إن الإسكندرية لا تنفصل عن المتوسط.

لم أكبح جماح نفسي. تركتها على مطلق سجيتها ومضيت إلى المتع التي تتأرجح بين الواقع والخيال مشيت في الليل المضيء وشربت النبيذ القوي لمحبي المتع الشجعان.

«كفافيس»

الملاهي.. النساء

قريبا من الإسكندرية تم منذ سنوات اكتشاف قرية «ماريا» اليونانية التي كانت مركزا لصناعة النبيذ تورده إلى الإسكندرية. الآن تمشي من المنتزة أبعد نقطة على الشاطيء شرقا حتى قصر الملك فاروق برأس التين، أبعد نقطة على الشاطيء غربا، فلا تجد مكانا تشرب فيه النبيذ أو البيرة إلا في الفنادق الكبرى، والمسافة بين فندق رامادا مثلا بسيدي بشر ومحطة

الرمل حيث تجد ذلك في مكانين أو ثلاثة مسافة طويلة، تزيد على الثماني كيلو مترات، كانت زمان تعج بالحركة في الملاهي الليلية المنتشرة على الشاطيء. هذه الملاهي كلها، ومنذ السبعينيات، وشيئا فشيئا تحولت إلى مقاه ومطاعم ترفع لافته «الكحوليات ممنوعة». وبعيدا عن الكحوليات فإن اختفاء الملاهي نفسها استتبع اختفاء فرق الغناء والرقص الأجنبية التي كانت لها مواسم بالإسكندرية، والملاهي والمراقص والمقاهي قديما صنعت عالما باهرا وعجائبيا من اللحم الأبيض، فكانت الشوارع القريبة من البحر هي ملاذ نساء الليل في الصباح الباكر، ونادرا ما كنت تجد أسرة مصرية تسكن في هذه الشوارع، كانت شوارع الطلاب الأغراب، وبالذات شارعا تانيس وطيبة، وكان أي طالب يستطيع أن ينظر من النافذة في الصباح الباكر يشير إلى أي امرأة تمشي في الطريق فتصعد لتنام عنده بقية النهار. كانت هذه الشوارع هي التجارب الأولى للشباب الريفي الذي جاء يتعلم في جامعة الإسكندرية، وكانت مقسمة إلى مناطق نفوذ يديرها بلطجية، ولقد رأيت في تجربة مثيرة ولسنوات، ما تعانيه النساء من هذا الجو. كان أغلب النساء من الأجنبيات الفقيرات، شقر بيض أرمنيات ويونانيات وتركيات وإيطاليات ويهوديات وغيرهن، وفي الستينيات، وبالذات بعد هزيمة ١٩٦٧، وبعد أن بدأ المد الأصولي وبدأ مسلسل الإغلاق للملاهي أو تحويلها لمقاه، بدأت هذة الأجنبيات في الاختفاء. لا أعرف أين ذهبن في الحقيقة. لا بد أنهن متن !! وظهرت المصريات الضائعات، الفقيرات من الجنوب، أو الفقيرات من أهالي القناة الذين تم تهجيرهم من بلادهم تحت القصف الإسرائيلي، من بورسعيد والإسماعيلية والسويس. نساء لم

تتحملن المعسكرات التي أقامتها لهن الدولة أو البيوت الفقيرة التي حشرن فيها فهربن إلى الفضاء السكندري الرحب. كانت هذه كلها في نظر البعض شرورا، لكنها كانت أيضا متنفسًا بشريًا. الآن لم يختلف الوضع، زاد، لكن في الخفاء. وأحيانا عبر الإنترنت. فالإسكندرية مدينة مجنونة، لا ترى إلا بالمجد لكنها لا تتخلى عن الجنون في أي زمن من الأزمان.

تشهد الإسكندرية الآن حركة تجديد واسعة، بالذات في الكورنيش والمناطق الشمالية والذي يذهب إليها الآن لا بد أنه سيسعد غاية السعادة والمدينة التي لم يحبها الحكام عبر تاريخها وجدت محافظًا يحبها هو السيد المحجوب فاسموه المحبوب، والمدهش أن السكندريين يتعاونون معه غاية التعاون، لماذا حقا يكون ذلك مدهشا؟ ربما بسبب السنوات الطويلة التي مضت في خصام بين الشعب وحكامه حتى صارت المدينة إلى يوم قريب بؤرة كبرى للتلوث، حتى صرخت منظمة الصحة العالمية في أحد تقاريرها إن الإسكندرية تحتاج إلى حملة عالمية للنظافة، كل ذلك يحدث الآن بالحاكم الذي أحبه الشعب السكندري. لكن الأشياء القديمة التي ضمنت مكانها في الذاكرة من الصعب أن تعود، حتى اللهجة السكندرية المميزة، الحديث بالجمع دائما، قد كادت تختفي إلا من أعداد قليلة جدًا من المسنين. ذلك أن الهجرة الواسعة من شمال وجنوب مصر كلها إلى الإسكندرية تركت أثرها على كل شيء. لقد حدثت حركة ترييف كبرى للمدينة لذلك فإن ما يحدث من تجديد في الإسكندرية الآن له قيمة كبيرة لأنه يغلب المدينة على الريف الزاحف وستسطع من جديد شمس الإسكندرية، ولو في ثوبها الشتوي، خاصة وأن الأيام القادمة ستشهد افتتاح مكتبة الإسكندرية كما ستصبح

منطقة «أبو قير» متحفًا أثريًا وغير ذلك من المشروعات الثقافية. ليكن، فليبق الماضي في الذاكرة ولنمسك بحاضر سكندري فيه أوجه أخرى من السعادة. وسيجد الترف والجنون والمجون لهم طرقا في الوجود.

لاروشيل...

أين تذهب طيور المحيط؟

أحب محطات السكك الحديد، ولدت بينها وعشت بينها وركبت قطارات أكثر من أي شخص في العالم.

أحب السفر بالقطار بالليل والنهار، وأحب النظر في وجوه المسافرين والتكلم معهم، وأفرح باللقاء على الأرصفة ويحزنني الوداع.

هكذا وصلت إلى محطة سكة حديد لاروشيل، بعد رحلة ممتعة بالقطار من مونبارناس دي باريس، بين الريف والخضرة التي لا تنتهي. لم أشعر أبدا بوحشة في القطارات إلا مرة واحدة، كان سفري فيها بين نيويورك وشيكاجو. لم أر شيئا غير العتمة طول الطريق وكان القطار بطيئا. من قبل سافرت في رحلة طويلة أيضا بين موسكو وكييف، وبالليل. لكن الليل الروسي كان أبيض دائما، مضاءً بالجليد على الجانبين. كانت سفرة نهارية رغم أن الوقت ليل تذكرت فيها ليالي دستو فيسكي البيضاء كثيرا..

سافرت من باريس إلى لاروشيل بالنهار، صباحا، مجرد ثلاث ساعات، الوقت صيف والدنيا حول القطار مفعمة بالمرح، مرح الأضواء وهي تنسكب على الأشجار الخضراء والطيور البيضاء تملأ الحقول.

وصلت لاروشيل، وعلى رصيف المحطة غمرتني شمس أغسطس. أحب الضوء المنسكب من السماء، أترك نفسي له يغسلني من همومي أسرع من أي شيء آخر. وبسرعة نظرت إلى الاتساع الرائع للمحطة، إلى طرازها القديم، هذه المحطات الكبيرة تحملني إلى وادي الراحة.

غمرني التفاؤل. ورأيت قريبا مني، عند الباب، ثلاث ابتسامات جميلة، صديقي الكاتب جبار ياسين، وزوجته السيدة سلفيان، والسيدة سلفيان دل يوست نائبة المحافظ للشئون الثقافية. كان معي ولداي وائل وإياد، وائل في الثامنة عشرة وإياد في السادسة عشر وهما يعرفان جبار جيدا، رأياه

قبلي وهتفا فرحين بوجوده وخرجنا جميعا من المحطة سعداء وفي الطريق إلى الشقة بشارع سان جون لم تغب عيني عن جانبي القصير.

أعرف فرنسا، لقد أتيت من قبل عشر مرات، أكثرها في باريس وزرت بوردو وبواتييه وليون وبلوا وفيل نيف سيرلوت. لم يعد يدهشني النظام في الشوارع ولا النظافة ولا الرقة في التعامل ولا الروح الفنية الرفيعة في كل شيء، ابتداء من المباني حتى المقاهي والبارات الصغيرة، لكن وقعت عيني على الميناء القديم والزوارق الواقعة في المياه والمقاهي على الرصيف وحركة الزوار الكبيرة. تذكرت على الفور الإسكندرية وبالتحديد منطقة بحري والأنفوشي، وشممت رائحة هواء الإسكندرية وابتسمت. . هنا مرح أكبر في الطرقات، فالشباب في عناق دائم مع الفتيات، وفرق الرقص والموسيقى والممثلين الهواة والحواه يملأون الطرقات. إنه الصيف والأجازات، ولاروشيل كما عرفت مدينة يحبها الفرنسيون كثيرا في الصيف، لكني رأيت أضواء كثيرة تلمع في الفضاء، أضواء تنعكس من كل مكان. لم نكن في الليل فالوقت كان الثانية بعد الظهر، والنور الغامر للمدينة يأتي من الشمس التي هي في السماء، فما الذي يعكس كل هذه الأضواء أمام عيني؟ لم أكن في حاجة إلى وقت طويل لأعرف أنها أجساد الفتيات والنساء. . أدركت أن الطريق مفتوح إلى النهاية على الأقل بالنسبة لولدي ونظرت إليهما فوجدتهما يبتسمان في خجل. قلت هو اليوم والغد على الأكثر وسوف يتركانني وحدي!

***

كل يوم في الصباح أقف على حافة الميناء القديم أشرب هواء الصباح. أرى على يميني القلعة فأتذكر قلعة قايتباي بالأنفوشي بالإسكندرية، وأرى الزوارق فأتذكر زوارق الإسكندرية، هنا زوارق عصرية وآليه،

لكن الزوارق البدائية لا تزال تحتفظ بدهشتها، وأشم رائحة شباك الصيد برغم أنه لا توجد شباك للصيد، وأدور حول الميناء فأصل إلى الناحية الأخرى وأمشي كثيرا حتى أكاد أصل إلى ميناء المينيم وأعود بين الهواء النقي والخضرة في كل مكان فأجد المقاهي والمطاعم قد انتهت من فرش الأرصفة الواسعة بالمقاعد وأجد الباعة قد نصبوا أماكنهم وفردوا بضائعهم للسياح وفرق الموسيقى احتلت الميادين الصغيرة والرسامون احتلوا الرصيف العريض المجاور للميناء. أصل إلى البولا نجيري القريب أشترى قطعة خبز بالزبيب، لا أستطيع أن أقاوم الحلوى الفرنسية. أفسدت الريجيم الذي كنت قد بدأته في مصر، وفقدت بسببه ثمانية عشر كيلو جرام. ازداد وزني وعاد إليه ما فقدته في مصر.

أمر بعد ذلك من تحت الساعة الكبرى، لوجراند أورلوج وأنحرف يسارا إلى مقهى المارين. يبدأ يوم عملي في الكتابة. أخذ مكانا في الركن البعيد الهادئ بالداخل وأجلس. لم أتسرع في اكتشاف لاروشيل. إنها مدينة صغيرة مفتوحة للضوء والريح، تعلن أسرارها بسهولة. في الثانية عشر أغادر المقهى إلى البيت القريب. لا ألتفت الآن لحركة السياح، ولا فرق الموسيقى والألعاب، أريد أن أوقظ ولداي، الذين اكتشفا بسرعة أماكن السهر. أجهز لهما طعام الإفطار، أفعل ذلك دائما في الصيف في الإسكندرية، ذلك يسعدني جدا. لقد اصطحبتهما معي من القاهرة، برغم التكلفة الكبيرة لذلك، أردت أن أحدث فيهما صدمة المعرفة، فالحياة في مصر الآن تغري بالكسل، الشباب يتنفس الإحباط مع الهواء، المدارس والجامعات لا تقدم معرفة حقيقية، وفرص العمل بعد سنوات التعليم الطويلة قليلة، ولم يعد أمام الشباب غير اللهو المجاني، والضحك بلا معنى، أو السقوط في

يد الإرهاب، خاصة في الريف، حيث يجد في البداية من يقدم إليه العمل والمكان والزوجة ثم السلاح. . إنه جيل مسكين يرى كل الطرق مسدودة أمامه، لا يفلت منه إلا القليل بمساعدة العائلات أو بالسفر إلى الخارج وهو صعب، والسفر إلى الخليج لم يعد فرصة لأحد بعد حرب تحرير الكويت، لم تعد فرص العمل كثيرة في الخليج والمصريون لا يعاملون هناك بالتقدير المناسب، دائما مذلولون مهانون.. أبناء الفراعنة في الخليج !!

أردت أن يرى ولداي فرنسا، ليتعلما فيما بعد اللغة الفرنسية، أو يعرفا قيمة أن يعرف الإنسان لغة أخرى، فيتقنا الإنجليزية، وليريا الدقة والنظام وقيمة التقدم العلمي، لأبث فيهما على الإجمال حب المعرفة، وليعرفا أن هناك دائما في الحياة أمل، وبابا للسعادة برغم أن الكثيرين من أصدقائي حذروني من مغبة أن يحدث العكس حيث يقارنون بين أوضاع فرنسا وأوضاع مصر، لكني راهنت على فكرتي ولن يضيرني إذا خسرت الرهان إلا بعض المال قد ضيعته، ومنذ متى أحتفظ أنا بالمال أو أحبه ؟!

في الخامس عشرة من أغسطس، بعد وصول لاروشيل بأيام، عزمني جبار ياسين في بيته الريفي الجميل في قرية بينون.

كان الشاعر العراقي خالد المعالي وزوجته الكاتبة والمترجمة منى النجار قد لحقا بنا، وأقاما عند جبار. اجتمعنا على العشاء ومعنا سلفيان زوجة جبار وسلفيان نائبة المحافظ وإيزابيلا أخت زوجة جبار وولداي وائل وإياد. كان جبار قد تحدث كثيرا من قبل عن حيوية صديقه المصري، وعن حبه للمرح وعن طاقته الروحية، في اليوم التالي سألني جبار هل كانت الليلة على غير ما يرام. لقد رأيتك شاردا معظم الوقت. . لم أتعود منك

ذلك هل تشعر بالضيق في لاروشيل. . قلت كيف أشعر بالضيق وحولي هؤلاء الأصدقاء، ومعي ولداي وفي كل مكان بالمدينة شخص يرقص أو يغني أو يقبل حبيبته. إنه الأمس كان الخامس عشر من أغسطس، وفيه منذ عام بالتمام، رحلت فاطمة. لم أستطع أن أعلن ذلك لأحد، ولم أستطع أن أقاوم القداس الذي يشتعل في قلبي. سكت جبار وسكت، وكانت حركة السياح لا تنقطع أمامنا، والشمس في إصرارها الرائع على أن توسع في الدنيا وتبهج الجميع. أوه لاروشيل، لقد مضى عام وأنا أنتظر حضوري هنا لأغسل حزني في ضوء نهارك، لأستحم في مياه الأطلنطي ويرعشني بردها، لأتأكد أن الزمان يمضي ولا يتوقف عند حزن أحد، وأستمر في الدنيا. لقد ساعدتني صديقات كثيرات على ذلك، كانت سهير فهمي في مقدمتهن، وهالة البدري وراءها، وسلوى بكرى وراء الاثنتين، وغيرهن بدرجات أقل لكني لا أنسى فضل أحد.

***

قال لي الرجل العجوز في مصر
إنني أعيش في بيت بلا سقف
وتركني ومضى
لم أفهم ماذا يقصد العجوز
عرفت بعد ذلك إنه فقد من قبل
زوجته!!

عرفت لماذا أنا بردان في عز الصيف. لكني في الربيع، وعلى غير موعد، قابلت المرأة التي أنتظرها. كنت أزور إحدى صديقاتي في عملها لأول مرة

وكانت هي هناك. قدمتها لي قائلة : مدام «م»، صديقتي وزميلتي، تعمل في المكتب المجاور. وسكت. لم أرد. ارتدت روحي عشرين سنة وأنا أرى ماجدة تبتسم. وخرج الكلام من فمي سريعا، كلام قد حُبس طويلا جدا جدا. قلت لا يا سيدتي أنا أعرفك منذ عشرين سنة. أمضيت معك شهرا كاملا في إحدى الدورات الثقافية التي كانت تتعلق ببرنامج الأمم المتحدة لتنظيم الأسرة في مصر، ليس لي أبدا أي علاقة بتنظيم الأسرة، لكنهم في وزارة الثقافة طلبوا مني أن أشارك في الدورة لمجرد معرفتي بالإنجليزية، وطوال شهر كامل كان عملي فيه أن أجلس مستمعا للمحاضرات شاردا في أشياء أخرى، منتظرا آخر النهار حين يعطون كلًا منا عشرة جنيهات مكافأة – وعشرة جنيهات كانت شيئا كبيرا جدا ذلك الوقت، وفي كل يوم فهذا شيء رائع، ومتخيلا نفسي وأنا أذهب في الليل أبددها في فندق هيلتون، على البيرة والبيتزا وأعزم أيضا أصدقائي، فقد كانت تكلفة الشخص لا تتجاوز الجنيه ونصف الجنيه، وضحكنا، وقلت لها كان هناك عمل آخر لي هو مراقبتك طوال الوقت عيناي كانت دائما معلقتان بك، بابتسامتك التي تهتز لها الدنيا بعينك الخضراوين، بلثغة لسانك الخفيفة في حرف الراء، بتكاسلك في الكلام، إلا أني كنت أراك مخطوبة يأتي خطيبك لاصطحابك كل يوم، وأرى سعادتك به، وكنت أنا متزوجا من التي أحبها ولا أريد أن أهدم بيتي، كان واضحا لي صعوبة العلاقة معك فسكت، رأيتك بعد ذلك في الشوارع أكثر من مرة، رأيتك دائما غير سعيدة، وفي معظم الأحيان نحيلة فقدت كثيرا من فرحك وبهجتك ثم اختفيت لخمس عشرة سنة من الفضاء.

ومن البيت أكملنا الحديث بالتليفون، في البداية كنت على يقين بأني أسعدها، فامرأة تجد رجلا يتذكرها منذ عشرين سنة لا بد أن تسعد به. . وتفجرت من حولي ينابيع البهجة وحملتني الغيمة البيضاء إلى السماء، وعاد المسجل يعمل ويبث الأغاني العاطفية، وتلبستني قوة جبارة على العمل ثمانيه عشرة ساعة في اليوم، ما بين قراءة وكتابة وأحاديث معها وخرجنا إلى المطاعم والأوبرا نحضر حفلات البالية التي تحلق فيها الفراشات مع الضوء ثم انتهى كل شي إلى الصمت. سافرت إلى أميركا وعادت بعد شهر أفاقت فيه من الحلم. أن تتغير حياتها الآن أمر صعب. لقد جعلها زوجها السابق تكره كل رجال العالم، وأحبت ولديها وعاشت لهما، وهي لا تستطيع أن تهدم هذا العش. وكنت أتوقع ذلك، فالذي يذهب إلى أميركا لا يعود أبدا كما كان. لم أنتظر أن تقدم لي أي مبررات مقنعة أو غير مقنعة، كنت أعرف أن قليلات هن من يستطعن أن يكن مثل أنا كارنينا، أو مدام بوفاري في مصر، وكنت أعرف أنها من النوع شديد الترتيب والنظام، لقد أدخلتها فجأة منطقة الحلم، لكنها أفاقت في أميركا. إنها مرأة عملية لا تخشى حتى الوحدة، قلت يكفي أنها أعادت السقف إلى بيتي ولو لبعض الوقت. كانت قصة، وعادت قصة، ولاروشيل ستسغسل أحزاني. إنني على يقين من أن هناك ناديا سريا يدخله أناس منذورون لعذاب غير مبرر، ودائما كنت مستعدا لدخوله، وأتيت لاروشيل أحمل جرحين وسألت نفسي وأنا أرى طيور البحر تختفي من فوق المحيط في المساء، كيف، حقا لم أعرف الإجابة عن هذا السؤال، أين تذهب طيور البحر في المساء؟ كنت في صباي أراها فوق شاطئ المكس بيضاء عفية، ولا أراها في الليل، والبحر

المتوسط ممتد أمامنا إلى مالا نهاية، كما يمتد الآن المحيط، فأين حقا تذهب هذه الطيور، هذا السؤال القديم يقفز الآن إلى قلبي في لاروشيل..

***

على باب نيويورك يوجد تمثال الحرية
كان مقررا أن يوضع هذا التمثال
على قناة السويس المصرية
أخذته أميركا. .
قلت لنفسي ربما لهذا السبب
أرى النسخة الأخرى
وسط نهر السين في باريس
دائما حزينة. .

لم أحب شقة شارع سان جون. كانت ضد لاروشيل. لاروشيل مفتوحة على أفق من الضوء. الشقة مغلقة على كوابيس قديمة. كانت أربع أستوديوهات صغيرة. في كل واحد نزيل. وكنت أنا وولدي في أكبرها. وبين الأستوديوهات صالة كبيرة بها تليفزيون ومقاعد. والبيت كله جزء من مدرسة قديمة، والسلم المفضي إلى الدور الثاني حيث الشقة خشبها قديم يئن تحت الأقدام. وخلف الشقة فناء المدرسة يصدر هسيسا غريبا بالليل، والثلاثة الآخرون الذين يشغلون الأستديوهات الأخرى شباب حزين بائس : شاب مغربي شارد الزهن دائما يفكر في صعوبة الحياة المغربية التي تنتظره، الفقر والبطالة، وينوي السفر إلى ألمانيا يبحث عن حياة جديدة، والفتاه مثله، لكن كان فيها كثير من الملامح المصرية. يوم غادرا

الشقة بعد انتهاء إقامتهما – كانا مقيمين وفقا لبرنامج التوأمة بين لاروشيل وبلدة الصويرة المغربية لثلاثة أشهر – يوم رحيلهما سبق الشاب الفتاة إلى الرحيل بيومين، ظلت فيها الفتاة تبكي كثيرا ورأيت الشاب قبل رحيله وهو يودعني كأنما هو قادم من عاصفة ترابية، وحين رحلت الفتاة سألتها هل هي عائدة إلى المغرب قالت لا سأذهب إلى بوردو، سألتها هل تعرفين أحدا في بوردو قالت لا، لكني سأبحث عن بيت للشباب وأحاول أن أجد لنفسي حياة هناك. كانت أصغر من العذاب الذي ينتظرها، لكنه عالمنا العربي، لم يعد المكان اللائق بأبنائه.

الفتاة الفرنسية كانت أكثر مأساوية ... نحيلة جدا، تبدأ إفطارها في التاسعة صباحا وتنتهي منه في الثانية ظهرا، أجل، وبين الإفطار تهرول ما بين المطبخ والحمام لتفرغ ما أكلته ثم تعود تأكل من جديد، كانت تثير صخبا كبيرا وهي تتحرك مسرعة، وبعد الثانية تخرج إلى عملها، ممثلة في إحدى الفرق المسرحية، وتعود بالليل تبكي من المعاملة الغليظة للمخرج معها، وتأكل وتهرول بين المطبخ والحمام تفرغ ما أكلته، ثم تدخل لتنام حين ينتصف الليل، متعبة جدا وشبه ضائعة. لذلك لم يكن غريبا أن تمتلئ الشقة بالليل بالكوابيس، رأيت كوابيس أكثر مما رأيت في حياتي، وحولت الأمر إلى شيء مضحك ورحت أنتبه بالنهار إلى لاروشيل، وصرت أعود إلى الشقة في أوقات قليلة، وأحببت الكتابة في مقهى المارين، ونمت بيني وبين جون بيير ذي الوجه اللاتيني وإريك ذي الوجه الفرنسي مودة طيبة، لكن اللغة الفرنسية لم تكن تسعفني، إنهما يتكلمان بسرعة كبيرة كما يعملان بسرعة كبيرة ورحت أكتشف متاحف لاروشيل وباراتها. أحببت بار

الجينيت Guignette بار قديم كان الصيادون يرتادونه في الماضي حيث كان الصيد بسيطا جدا، غير وهو، بار يحمل رائحة التاريخ، مناضده براميل قديمة، ومقاعده خشب شديد القدم وهو دائما مفعم بالحيوية، حيوية الشباب والفتيات، والغناء والمرح والقبلات. . في متحف لاروشيل الصغير وقفت كثيرا عند لوحة فتيات لاروشيل التي تصور نساء لاروشيل وهن يدافعن عن المدينة في العصور الوسطى لكني لم أخف منهن، كن يبتسمن حولي في كل مكان. أتكلم معهن فيحتملن لغتي الفرنسية الركيكة. . وفي إحدى المرات دخلت أحد المحلات أشتري ملابس. . تحدثت بالفرنسية. ابتسمت الفتاة وقالت إنها آسفة لأنها لم تفهم ماذا أريد فابتسمت وقلت لها وأنا أيضا لم أفهم ماذا قلت، وضحكنا واشتريت وباعت !!

نساء لاروشيل مثل شمسها وهواءها.

سافر ولداي بعد شهر صنعا فيه قصصا سيحكيانها كثيرا لأصحابها، وربما يكتبانها هما يوما، وعدت إلى لاروشيل بعد وداعها في مطار أورلي لأنتقل من شقة سان جون إلى شقة أخرى بحي الميري La Murielle وكان سبتمبر قد دخل على المدينة ومضت منه عشرة أيام.

***

المظاهرات في مصر ممنوعة دائما
وكنت في الستينيات أحول الرحلة المدرسية
إلي مظاهرة صامتة مع زملائي الطلاب
كنا نمشي في الشوارع والحدائق
نرفع أذرعنا ونفتح أفواهنا على آخرها

بلا كلام

المدهش أننا كنا نعود آخر النهار متعبين

وتقع بيننا إصابات

الجو المفعم بالحرية من حولي يقلب أمامي في صفحات التاريخ والشقة الجديدة بالحي الجديد بدت لي إنسانية، ليس معي فيها غير شاب جزائري موسيقي جميل ما لبث أن غادرها إلى شقة أخرى وصرت وحدي. في البداية خفت من الهدوء الشديد للحي، لكن الليلة الأولى مضت بلا كوابيس، وكذلك الثانية وما بعدها وبدأت أسعد بالشقة. بالأشياء الصغيرة فيها مثل الغسالة، التي لم تتوفر في الشقة السابقة فكنت مضطرا للذهاب إلى مغسلة عمومية. كانت المغسلة العمومية فرصة أن أتحدث مع النساء وقت انتظارنا لانتهاء الغسيل والتجفيف، لكن أهم ما تحقق من حديث كان مع شاب هندي يتحدث الإنجليزية راح يكلمني عن الاستعمار الإنجليزي زمان في مصر والهند!

وجدت أن النهار طويل جدا الآن، أنا لا أستطيع الابتعاد عن مصر أكثر من أسبوعين، الآن صار النهار طويلا بعد سفر ولداي ولأن المواصلات تنتهي في الثامنة مساءً فكنت أعود إلى الشقة مبكرا، ليس من المعقول أن أسهر كل ليلة في المدينة وأعود في تاكسي ثم إن وجود تاكسي بعد العاشرة بالليل أمر صعب، ذهبت إلى مدرسة مجانية لتعليم اللغة الفرنسية، رحت أقضي فيها تسع ساعات بالأسبوع مع شباب مفعم بالحيوية من روسيا وإنجلترا وتايوان والمغرب والبرازيل وأستراليا وأميركا وأسبانيا. صرت تلميذا حقيقيا يشاغب المدرسة في الفصل وتندهش التلميذات والتلاميذ

من قفشاتي. كانت المدرسة طويلة جدا، أطول مني، وكان هذا شيئا مدهشا جدا لي في البداية. كنت أتخيل أنها ستقع فوقي أثناء الدرس، لكنها لم تقع، وكانت دائما مفعمة بالحيوية والطاقة، لكني لم أتقدم أبدا في اللغة الفرنسية. إنها لغة شديدة الدقة، بدائية، تسمي السبعين ستين وعشرة، والثمانية أربع عشرينات. إنها لغة تشخيصية، بعيدة عن التجريد، ثم إنها لغة مدللة، بها كثير من الضمائر، وحركة التقديم والتأخير فيها لا تنتهي، واللسان الفرنسي مولع بأكل الحروف وما أكثر الحروف التي لا تنطق في اللغة الفرنسية، فات الأوان. إنها لغة تحتاج إلى الشباب والشباب لا يعود مهما بدا أني أمتلئ بالطاقة والحيوية، ولقد ارتكبت كوارث بما يكفي أثناء الكلام، وتحول غلاف الكتاب إلى زنزانة، كوفرتير إلى كوفراج، والخوف إلى قضيب، لابير إلى لوبير وهكذا ظل باب اللغة مفتوحا على الخطأ، لكن الجميع كانوا.

***

صبورين معي ويشجعونني، لكن ماذا يفعل التشجيع في رأس متعب..

رأيت السحب السوداء تركض تحت سماء لاروشيل. إنه الخريف. قفزت الإسكندرية مع الحزن. الخريف مفتوح على الحزن معي دائما. الحزن يرتاح على المدن الساحلية، لكن المتوسط يختلف عن المحيط. في المتوسط أنت تقف على تاريخ، في المحيط أنت تقف في زمن غامض، زمن لم يخلق فيه الله الإنسان بعد. هواء المتوسط يدفعك إلى الحركة، إلى اختراق ما هو عادي، إلى النـزق، هواء المحيط يشعرك بالخوف، يبدو كمصير غامض يحملك إلى هوة، والنور الآن في لاروشيل لا ينقطع طول النهار الطويل جدا، النور الآن مثل زجاج شفاف تجري عليه مياه بلا لون. كل شيء الآن

ينذر بالفراق في لاروشيل. السياح يرحلون. الفرق الموسيقية والفنانون يرحلون، لكن المدينة لا تتسع. تصبح أضيق تدخل في الصمت، على الأقل خمسة أيام في الأسبوع حتى يعود إليها في الويك إند زوارها. شوارع لاروشيل صغيرة ضيقة، دائما على الجانبين بواكي في النباتات القديمة ذلك كله لم أره مع زحام الناس. كانت دائما تبدو أوسع. الآن أمشي.

في سراديب هادئة، نظيفة لكنها سراديب. أمشي في العصور الوسطى حتى أصل إلى الميناء أو بلاس فردان وتزداد الحركة. أحب الخلاء لكني أحب الناس أكثر. إن طيور البحر لم تعد كثيرة كما كانت في الصيف. لعلها هاجرت تبحث عن الدفء. تقلب الجو في لاروشيل ولم تعد هناك أجساد تعكس أضواء الشمس ولا زحام على محلات الجلاس وظهرت السترات الشتوية، وبدأ الناس يتحدثون عن العواصف، وعن العاصفة الجبارة التي جرت منذ عامين وأطاحت بالأشجار والأبقار والمباني والناس. لكني أحب المطر، أحب أن أخرج بعد أن ينقطع المطر. كان المطر ينقطع في الإسكندرية فأخرج مجنونا أركض ما بين محطة الرمل وسيدي جابر ينعشني الهواء الذي يخافه الناس وأمشي بين رذاذ البحر الذي يبتعد عنه الجميع وأمر على جدران البيوت بيدي أتلذذ ببرودتها، كنت أجد الدفء دائما في الهواء الطلق لذلك حافظت في لاروشيل على نفس الملابس الصيفية فقط أضفت فانلة داخلية تحت القميص نصف الكم، واظبت على الكتابة الصباحية في مقهي المارين، ارتحت إلى المكان الذي يقع على الميناء وإلى المعاملة الطيبة للجرسون جون بيير وزميله إريك، إنني أكتب حلقات

للتليفزيون المصري. لا أستطيع كتابة رواية خارج البيت. ثم ملأ ابن لادن الفضاء. . ابن لادن هو العاصفة التي يتحدث عنها الجميع.

***

عندما رأيت مركز التجارة العالمي يشتعل أمامي في التليفزيون ثم يسقط، عندما رأيت البنتاجون يحترق، تصورت أنه فيلم أميركي مثل فيلم يوم الاستقلال. هل كان هذا الفيلم نبوءة بما جرى – بعد لحظات استوعبت الكلام الفرنسي. إنها حقيقة وليست سينما. في السينما يخرج المشاهد مرتاحا لقوة أميركا وعلى الأكثر مندهشا، وإذا كان يتمتع ببعض العقل لن يصدق الفيلم الأميركي. لكن هذه الحقيقة التي جرت لا تترك الإنسان مرتاحا، وبالطبع لا يمكن تكذيبها. والدهشة سرعان ما تختفي مع تقدم الأيام. هناك دهشات أخرى من كوارث أخرى، كارثة انفجار مصنع الأسمدة في تولوز، كوارث إسرائيل في فلسطين، كارثة الرد الأميركي على ابن لادن. آسف على لا أحد. . للأسف الأميركان الآن يضربون لا أحد. لكنهم يقتلون شعبا كاملا بأطفاله ورجاله ونسائه وعجائزه، هو الشعب الأفغاني المسكين الذي صنعت أميركا كل مآسيه منذ تشجيعها للحركات الأصولية هناك ورعايتها ومدها بالسلاح والمال. أميركا صنعت الإرهاب الذي يحمل اسم الإسلام، وهي الآن تدفع الثمن، وتغسل عارها بقتل شعب كامل بعد أن أوصلته إلى أقصى حالة بدائية يمكن أن يصل إليها البشر خلال ثلاثين سنة من الدعم الأميركي للإرهاب.

اشتعل الجو الإعلامي حولي في نقاشات كثيرة عن الإسلام والحركات الإسلامية، لم أتابع جيدا بسبب اللغة، لكني تابعت حركة المشتركين في النقاش. في البداية كثير من الحركات بالأيدي وارتفاع في الأصوات. شيئا

فشيئا ظللت الحكمة الجميع. صار الكلام كأنما هو عن مشكلة نظرية. لقد بدأت أميركا في ضرب شعب متخلف. هذا لا يهم أحدا في الغرب. وهذه هي مشكلة الغرب، أن موت الشعوب الفقيرة لا يصنع مأساة عند الكثيرين هنا، في الغرب، كما يفعل ذلك موت طفل في دولة متحضرة. هذه هي المأساة الحقيقية، الغرب يتعامل مع الشعوب العربية والإسلامية من خلال الحكومات. لا يعرف الشعوب. لا يقرأ أدبها وإنتاجها الثقافي الشعبي، والحكومات العربية والإسلامية بدورها تابعة للغرب برغم ما يبدو من معاداتها له في بعض الدول. على الغرب الآن أن ينظر إلى الشرق نظرة ثقافية، لا نظرة سياسية. هنا شعوب تبني حضارتها الجديدة وإن في الكتب. إن الرد الحقيقي على الإرهاب هو أن يحول الإعلام الغربي والمؤسسات الثقافية الغربية اتجاهه إلى معرفة الإنتاج الثقافي الشرقي، وفي مساعدة الحركات الديمقراطية الصاعدة أن تصل إلى الحكم، لا في تدعيم الحكومات الديكتاتورية ثم ضرب شعوبها عند أول خلاف. لكن الغرب، بقيادة أميركا، لن يفعل ذلك، على الأقل في القريب العاجل، سيظل يدعم دكتاتوريات الشرق ثم يضرب الشعوب. إنها مأساة حقيقية. وجاءني الهاتف من مصر يسألني هل لمست تغييرا ما في المعاملة بين الفرنسيين. قلت الحقيقة إن ذلك لم يحدث أبدا. برغم أن الفرنسيين وقفوا حدادا على ضحايا الانفجار في أميركا. إنهم الآن يذيعون في التليفزيون صور الضحايا من أفغانستان وفلسطين. صور كفيلة بأن تهز العالم كله، لكن العالم لا يهتز. العالم مشغول بقصة الشربون، والحرب الكيميائية التي هي اختراع شيطاني في لحظة مناسبة لتنفيذ سياسة الانتقام من الشرق.

***

ريموند بوزيير، نويل فافرييه، جوسيان دي جيسيس، سيرج فيلينس، رينيه كلود، موسي ساخو. . أسماء رائعة لكتاب وفنانين قابلتهم. ريموند صاحب الأسلوب القوي في الرواية العصرية، قرأت بعض صفحات من روايته القصيرة «الضيعة الصغيرة» القراءة عندي أسهل من الكلام. هناك شخص آخر يتكلم، وبالطبع أسهل جدا من الكتابة فهناك شخص آخر أيضا يكتب ويتحمل مشقة اللغة. أي لغة في العالم. إن عذاب اللغة لا حدود له، إنها سجن جميل، الخروج منه بلا منطق أو معرفة يفضي إلى كارثة تبدأ بكوارثي أنا الصغيرة، إلى كارثة دولة كالجزائر، يحاربون بعضهم باسم الإسلام ولا يعرفون اللغة العربية. لم يدخلوا سجنها بعد. أسلوب ريموند قوي محمل بالشعر والعنف، عصري يجري على إيقاع عميق وعريض. في ريموند رأيت نوعا من الناس كنت أسمع عنه ولا أراه. الذي يعيش كما يكتب. في المنطقة الصادقة من الفكر والسلوك شيوعي متفائل وقوي وصريح وجارح، نويل فافرييه نموذج ثان للصرامة والجرأة والشجاعة لو لم يكتب هو مذكراته «الصحراء في السحر Le desert. A' lauBe» لكتبتها أنا عنه. لو كان نويل عربيا لتمنيت أن أكتب تجربته. تجربة خارج الزمن.

شاعر ومقاتل يترك الجيش الفرنسي في الخمسينيات ويحمل الجريح الجزائري ويصعد به إلى الجبال ويعيش مع ثوار الجزائر ويحكم عليه بالإعدام مرتين ويرفع عنه الحكم حين تتسع حركة المثقفين الفرنسيين تطالب بالخروج من الجزائر ويدور في المنافي من تونس إلى الولايات المتحدة إلى البوسنة إلى قريته الصغيرة «أجروفي» التي مشيت معه في دروبها يحكي لي ما تبقى من قصص الاحتلال النازي ومقاومة أهل القرية.

نويل الذي تجاوز السبعين الآن يذكرني دائما بالشباب عندما ينظر لي بعينيه اللامعتين يبدو لي كأنما هو الدهشة الطفولية مجسمة في ضوء لامع وسط الليل.

جوسيان دي جيسيس شاعرة تحب مصر والعرب. لديها دائما سجائر جزائرية ومصرية إنها امرأة سعيدة بالوقت والفراغ، بريئة إلى درجة أنها حين أرادت أن تروح عني أخذتني إلى نادي بنج بونج خاص بالشيوخ. كانت ساعات ممتعة وأنا أرى سيقان رفيعة تحمل سبعين سنة وأكثر فوقها وترقص.. ثم جاءتني أفريقيا مع الرسام الشاب موسي ساخو. في بيت ريموند التقيت بالممثل والرسام ريينيه كلود. رجل هادئ يبدو دائما وقد فعل ما كان يجب عليه أن يؤديه، وفي بيت ريموند التقيت بموسي ساخو الذي حمل لي أفريقيا. سنغالي مسلم لا يشرب الخمر، مولع بالأطفال ويرسم لهم، ولنا، لوحاته مفعمة بالبهجة عيون لامعة وسط وجوه سوداء محمولة على أعناق طويلة جدا كأنما تعلن عن وجودها البريء في العالم. وجوه تريد أن تري العالم من نقطة سامية. براويز لوحاته من خشب قديم. خشب الأبواب والشبابيك القديمة، ليست المعاصرة تطل من بين الأصالة، لكنها روح أفريقيا الوثابة تحمل تاريخها معها، الأفريقيون سعداء حتى بين الخرائب. اختلفت لاروشيل حين التقيت بفنانيها وكتابها. لم تعد مجرد مدينة صيفية يمرح فيها السياح ولا شوارع قديمة تحملك إلى زمن مريح، صارت بردا وسلاما على إبراهيم.

***

مصر الآن تقترب مني. دفعت إليّ بأربعة مصريين هم كل المصريين الذين في لاروشيل. أربعة فقط، ثلاثة منهم أصدقاء والرابع بعيد. كان

لقاءي الأول مع الرابع. شاب سكندري رآني في السوبر ماركت فعرفني. أنا الكاتب الذي ظهرت صورته في الصحف كان قد سبق له والتقى مع ولدي. دعاني إلى بيته لغداء خفيف. هناك ناقشني كثيرا كانت كل المناقشة تدور حول لماذا دائما لا يتحد المصريون في الغربة. لماذا يختلفون. لماذا يضيع بعضهم في رياح الحضارة الغربية السريعة. وعرفت من الثلاثة الآخرين أنه بدد ثروته. هو أيضا قال لي ذلك. أخذ رقم تليفوني في لاروشيل ولم يترك لي تليفونه كما وعد. كنت أمر على بيته فأراه مغلقا دائما، يبدو لي مهجورا. إنه شاب محمل بالقصص المربكة. نموذج فني برغم أن الثلاثة الآخرين قد اختلفوا معه. ليس مهما أن أعرف من المخطئ ومن المعيب. المهم أنه اختفى ولم يعد له أثر. كنت أريد أن أستمع إلى قصصه التي يحملها. قصص النجاح والفشل. منه هو وليس من أحد آخر. لكنه تبدد بعد أول لقاء. لم يتركني الثلاثة الآخرون، محمد سعيد ومحمد عبد الفتاح وأحمد حسن. مهم أن أكتب أسماءهم. كل منهم قصة نجاح وتعب. كل منهم حالة فنية. يشتركون في شيء واحد، مصري، جميل، هو الشهامة المصرية، وكل منهم بعد ذلك ينفرد بقصته، ليس مهما أن أروي قصصهم هنا، لكن محمد عبد الفتاح حالة أكبر من زمنها، إنه يجري على المصريين كطفل تاه سنينا عن والديه في الغابات ثم فجأة رآهم عند نهاية الغابة. إن الفرح يسبق كلامه وهو يقابل أي شخص مصري. لقد ترك مدينته، مدينة الطور، صغيرا جدا واشتغل على السفن وطاف العالم عاملا على يخت أميركي، وفي كل هذه السنين لم يفقد طفولته. شيء مدهش هذا الرجل سريع الكلام، يفرد لك عواطفه أمامك في الطرقات.

المدهش أنه كان الأكثر قربا مني لكني دائما أنسى ملامحه، إنه لن يغضب مني حين أقول ذلك، سيفهم المعنى، إنه وجه بحار يطل عليك مع الريح، يترك لك قصة ويذهب يبحث عن قصص أخرى، يعود محملا بالأساطير، وجه لا تنساه ولا تمسك به. يظل يدور حولك ومعك وتبتسم وأنت لا تعرف هل هو قريب منك أم بعيد عنك. إنه يبحث عن مصر والمصريين ،لكن سرعان ما تحمله الريح مثل كل البحارة. محمد سعيد صاحب مقهى الأهرام في لاروشيل، هادئ، ناجح في عمله وعنده دائما مشاريع مؤجلة للعودة إلى مصر. شخصية فنية أخرى، قصة قصيرة مركزة لكن محمد عبد الفتاح رواية تنتهي منها لتجد نفسك في بدايتها. عادت إلى مصر مع المصريين، ومع الشاب أحمد حسن الذي يعمل كل الوقت. ليس لديه وقت إلا للعمل، لقد جاء ليكافح وهو يكافح حتى ولو كان مرتاحا..

عادت إليَّ مصر مع النوستالجيا التي تزداد كل يوم، التي تمسكني الآن وتتسع في روحي وصوت فيروز يكاد يدمعني، وهي تقول ما في حدا، عتمة وطريق وطير طاير على الهدا أخاف الأغاني التي تربيت عليها، لا أريد أن أسمعها الآن، ستجعلني لا أرى الحدائق ولا الضوء وأنا مضطر للبقاء. لقد أتت الأحزان المصرية معي، قفزت إليّ مع اقتراب عودتي، ماتت أمي وأنا هنا بعيد وجاءني ابني الأكبر مصابا إصابة قديمة كبرت مع الوقت دون أن يخبرني ويحتاج إلى إجراء جراحة عاجلة في كتفه. إن مصر تجري ورائي وأنا أريد العودة إليها.

ماتت أمي.. عرفت نبأ موتها في الصباح الباكر. أخاف دائما دقات التليفون في الصباح الباكر. لم يكن ممكنا الرجوع بسبب حضور ابني الذي تحدد له وقت إجراء العلمية الجراحية. . أي سجن صرت فيه فجأة..

خرجت إلى الحدائق الممتدة أمامي في حي الميري، وعدت ثم خرجت إلى وسط المدينة. كل شي سيتلون الآن بالحزن، أنا أعرف، خاصة والريح هادئة، والسماء رمادية وطيور البحر لم تعد بيضاء. لا بد أن أغلق باب الحزن. وبسرعة. ثم ما ذنب القارئ.

ذهبت إلى بار الجاينيت فوجدته مغلقا، ذهبت إلى المرأة التي كنت على موعد معها فلم تأت. أجل. هذه حقيقة، ذهبت إلى البنك أسأل عن نقود أنتظرها فوجدتها لم تصل توقفت في الطرقات أفكر في ألبيركامي، في مورسو، الذي افتتحت الرواية بموت أمه.. ألبير كامي يكتبني الآن. . ذهبت إلى معرض موسي ساخو لأشرب معه الشاي السنجالي فلم أجد موسي، ووجدت زوارا لا أعرفهم، اتصلت باثنين من المصريين فوجدت الأنسر ماشين يرد عليّ، إنهما في العمل، وأنا لا أحب الأنسر ماشين. ذهبت إلى أكثر من مكان وفي كل مرة كنت أتوقع أن ألبيركامي يكتبني. بعد نصف قرن من كتابته للغريب. مر النهار خائبا لكني أبدا لم أشعر بالضيق، في المساء أطل على جبار ياسين بوجهه الطيب، ونويل فافرييه بدهشته الطفولية. كانت الدموع قد سبقتهم إلى وجهي منذ لحظات وكنت قد جففت دموعي. كنت خائفا أن لا أبكي. لم أبك كثيرا، لحظات هادئة تسللت فيها الدموع وجففتها. كان جبار قد فقد أمه منذ شهور. لم يرها منذ ربع قرن. ماتت في العراق الأسير وهو في المنفى، كنت قد رأيت أمي قبل سفري وابتسمت وقلت له الموت ليس مشكلة لكن الطريقة التي يتم بها هي التي تؤلمنا. كان وضع جبار أكبر عزاء لي وأكبر عزاء لأي أحد. ذهبنا إلى بار الجاينيت. رحنا نتكلم في كل شيء وفجأة مد لي نويل الجميل يده يصافحني يعزيني في وفاة أمي. كان واضحا لي أنه لم يعرف ماذا يفعل في

هذا الموقف وظل كذلك لوقت طويل حتى وجد الحل، الطريقة السهلة جدا، أن يشد الصديق على يد صديقه...

انضم إلينا بعد قليل شخص ثالث يحمل اسم باتريس.. رجل ضخم سمين قال لي جبار إنه كان أضخم من ذلك من قبل. وأنا أشعر دائما بالأمان مع الناس السمان. أشعر دائما أنهم أبرياء. أكثر براءة من غيرهم. إنه مثقف متعاطف مع الفلسطينيين وقضيتهم وصاحب مصنع يخوت. تعارفنا بسرعة مدهشة، وانتقلنا إلى بيته لحظات، ثم إلى مطعم صغير. في المطعم انطلقت النكت المصرية مني. قلت نكتا تلك الليلة شديدة النفاذ لاذعة جدا مصرية إلى أقصى درجة وضحكنا كثيرا جدا، وفي منتصف الليل تركوني بعد أن أوصلوني إلى الشقة. في الشقة أشعلت التليفزيون ورأيت الغارات على أفغانستان.. تنهدت وقلت هاهي أميركا قد بدأت عملها العبثي، ستشوه المشوهين وتقتل المقتولين بسبب فعلة هي التي صنعتها، ووجدت نفسي أتساءل لماذا حقا لا تموت أم أميركا؟ لماذا تموت أم فرنسا وتموت أم مصر.. وسرعان ما أدركت أن أميركا، الدولة الجبارة التي تهيمن على العالم، ليست لها أم. لم يكن لها أم في يوم من الأيام. لم تتعلم الرقة، لم تعرف كيف تأخذ الناس في صدرها..

أغلقت التليفزيون ونمت..

***

في لاروشيل، كما في غيرها من المدن الفرنسية تحمل كثير من المقاهي أسماء أدبية، لكن لأن لاروشيل صغيرة، ولأني أمضيت بها وقتا طويلا وقفت كثيرا عند أسماء مقاه ومطاعم مثل «أوندين» و «جارجانتوا» و «الزورق السكران Le Bateau Ivre».

وغيرها.. وتوقفت مرة عند اسم مقهى مدهش هو «على الرصيف Sur La Qaie».

وفكرت أن أكتب فيه كل يوم في الصباح، فهو باسمه ليس بعيدا عني وعن حياتي التي أحبها بين حرافيش الكتاب المصريين على المقاهي الهامشية في القاهرة إلا أنني فضلت الكتابة في مقهى المارين بسبب اسمه ولأنه يقع على الميناء القديم ولأنه بموقعه واسمه يذكرني بالأنفوشي بالإسكندرية. . لكني لا أنسى ليلة دخلت فيها أحد البارات قرب ميناء «المينيم» بار صغير لم أهتم أن أعرف اسمه جذبني إليه أنه خال من الناس. ليس فيه صخب الجاينيت ولا شباب الجاينيت المرح. لماذا كنت أبحث عن مكان خال تلك الليلة ؟ لا أعرف. لماذا تخليت عن استمتاعي بصخب الشباب والفتيات في الجاينيت ؟ لا أعرف. ربما لأن الجاينيت كان مغلقا تلك الليلة. مؤكد أن ذلك هو السبب المباشر. كثيرا ما كنت أجد الجاينيت مغلقا ولم أهتم أبدا أن أعرف مواعيده. في الحقيقة أمضيت الأشهر الثلاث بلاروشيل بلا خطة. لم أخطط لأي يوم. في ذلك البار الصغير كانت تجلس امرأة نحيلة تجاوزت الأربعين. كانت تجلس إلى البار مباشرة. وهناك في الركن كان يجلس رجل متوسط العمر أيضا وخلف البار كان يعمل شاب صغير وفتاة صغيرة في حيوية شديدة. أجل حيوية برغم عدم وجود رواد. جلست إلى جانب المرأة كان واضحا أننا لن نتكلم. كانت مستغرقة جدا في شرب النبيذ. بلا مقدمات أقبل علينا الرجل الآخر وجلس بيننا وقال نكتة بالإنجليزية. كان واضحا أنه سكران جدا فكانت لغته نائمة، ولأن المرأة لا تتحدث الإنجليزية ولا عاملي البار لم يضحك أحد، ولأني وجدتها نكتة بايخة؛ لم

أضحك لكني ابتسمت ابتسامة مجاملة. سألتني المرأة بالفرنسية عما قاله الرجل فقلت نكتة فهزت رأسها. ثم ابتسم الرجل وبدأ يقول نكتة أخرى فقال كان هناك ثلاثة أشخاص أحدهم يعرف ثلاث لغات هو الألماني والآخر يعرف لغتين هو الفرنسي والثالث يعرف لغة واحدة هي الإنجليزية هو الإنجليزي، ولا أعرف ماذا يضحك في نكتة كهذه، لكن الحقيقة أن الرجل كان يحمل وجها بريئا جدا وكان يحتاج أن يتكلم إلى أحد وطلبت مني المرأة أن أترجم لها أنا الذي لا أعرف الفرنسية جيدا نكتة الرجل الذي عرفت أنه بحار إنجليزي. ولم يكن هناك فرصة للاعتذار عن الترجمة. الرجل محتاج للكلام والمرأة محتاجة للسمع ونظر لي الإنجليزي نظرة رجاء أن أقوم فعلا بالترجمة فوافقت. . راح الإنجليزي يقول النكت الباردة بطريقة بطيئة لسكره البين ورحت أنا أترجمها بلغة فرنسية ركيكة فبدأت المرأة تفتح عينيها بانتباه يزداد شيئا فشيئا ثم بدأت تبتسم ثم بدأت تضحك وبدأ الإنجليزي يشعر بالرضا فبدأ يبتسم ثم بدأ يضحك ثم بدأت أنا في الدهشة فرحت أترجم وأبتسم ثم أضحك ثم رحنا نحن الثلاثة نضحك على كل نكتة وابتسم عاملا البار ثم راحا يضحكان معنا وقضينا أكثر من ساعة على هذا الوضع العجيب، لا أحد يفهم شيئا مما يحدث أو يقال لكننا جميعا نضحك بصخب رائع ومتعة حقيقية. . ثم خرجنا، منتصف الليل نجري تحت المطر الذي فاجأنا والريح التي هبت علينا من فوق الأطلنطي وكان كل منا يسمع الآخر يجري ضاحكا من بعيد.

بعد خمسة عشر عاما. لاروشيل مرة أخرى

كنت في حاجة إلى الابتعاد عن كل شيء حولي برغم أنه لاشيء حولي جديد في عبثيته، برغم أني على المستوى الشخصي أشعر بكثير من الرضا. فلقد أنجزت في عامين روايتين حازتا على إعجاب القراء والنقاد ووصلت إحداهما إلى القائمة القصيرة لجائزة الشيخ زايد عام ٢٠١٥م وهي رواية «هنا القاهرة» المنشورة في بداية عام ٢٠١٤م وفازت الثانية بجائزة قطارا في نفس العام وهي رواية «أداجيو» المنشورة في نهاية عام ٢٠١٤م كما أصدرت في أول عام ٢٠١٤م أيضا كتابي «ماوراء الكتابة – تجربتي في الإبداع» وكالعادة أكتب مقالاتي في الصحف السيارة، الأخبار مثلا، وغيرها. لم تكن آلامي الصحية سببا في ضيقي من أي شيء ولا رغبتي في الابتعاد عن أي شيء فهذا أمر أتقبله لأني أعرف معنى التقدم في العمر. لكن ودون مواربة كنت أشعر بضيق كبير من الأحوال السياسية في البلاد التي تدور ولا زالت في دائرة خارج حدود العقل والتوقع. والتي يمكن إجمالها في كلمات قليلة وهي أنه بعد ثورة عظيمة مثل ثورة يناير ماكان للسجون أن تنفتح لمن قاموا بها وماكان للفضائيات أن تدخل بها في دائرة المؤامرة، لا شيء إلا كي يعود النظام القديم في شراسة وانتقام. كنت ولا زلت مثل أي شخص عادي، لا أقول يفكر أو يتأمل، أرى أن الإرهاب معركة لا تعني أبدا أن يستمر في سيناء ويتم القبض على المسالمين داخل البلاد ! ولا يجب أن يكون الإرهاب أبدا ذريعة للقضاء على الروح الجديدة التي أشعلتها ثورة يناير.

حديث طويل ليس هنا مجاله وتفاصيله جاءت في مقالاتي التي كانت بمثابة مساعدة لروحي على الاستمرار إذ يكون المقال بمثابة نفثة غضب تزيل عن القلب أثقاله وعن العقل اضطرابه وعدم قدرته على تحمل الكذب الدائر حوله. لا تمثل لي المقالات أكثر من ذلك ولا تزال، فالرواية والإبداع هما عالمي الحقيقي الذي عشت وأعيش معه. وهي العالم الحقيقي حولي لكن الذي جرى أني خرجت منه يوما على أمل كبير تجسد في الميادين في عدل وحرية ومساواة بدأ يتراجع حتى كاد يختفي. لم يكن سهلا أن أسافر وقتا طويلا إلى أي مكان. بل تأتيني الدعوات إلى بلاد عربية وأجنبية لكنها كلها لا تزيد عن أسبوع أعود بعده إلى ما كنت فيه وما أحاول التخلص منه بالكتابة كما قلت لكنه صار من الثقل أنه لا ينتهي.

في روايتي «أداجيو» فصل صغير تسافر فيه البطلة إلى مدينة لاروشيل في فرنسا، وهي مدينة تقع في الجنوب الغربي على المحيط الأطلنطي، والأهم أنها مدينة سافرت إليها يوما عام ٢٠٠١م وأمضيت بها ثلاثة أشهر كاملة كتبت عنها مقالا كبيرا وقتها بعنون «أين تذهب طيور المحيط» صار عنوانا لكتابي عن أدب الرحلات وهو عن بعض البلاد والمدن التي زرتها. تجسدت لاروشيل أمامي من جديد. هي المدينة التي يمكن أن تفصلني عما حولي كما سبق لي فيها من تجربة قديمة. هي مدينة صغيرة مبانيها الأوربية القديمة كلها فيها عراقة التاريخ، وموانيها الصغيرة ساحرة بما فيها من قوارب بحرية وطيور سابحة في فضائها وشمسها حانية في الشتاء وفي الصيف معرض للجمال من زوارها وسائحيها ومقاهيها على المحيط. أليفة لي رغم أنها أجنبية وزوارها أجانب بالنسبة لي والحقيقة أني أنا الأجنبي

هناك. ألفت مقاهيها ومطاعمها من عناوينها التي لا أنساها التي في أكثرها عناوين أعمال أدبية مثل الزورق السكران وجارجانتوا وبانتا جريل أو أحداث سياسية مثل «كاتر سيرجانت». وهي مدينة صغيرة يمكن أن يلفها الشخص في ساعة من الزمن ماشيا تحت بواكي مبانيها محتميا بها من الشمس صيفا ومن المطر شتاء داخلا أحد متاحفها الصغيرة الهامة مثل متحف الفن الطبيعي أو متحف الفنون الجميلة أو متحف الحرب العالمية الثانية أو المتحف البحري الكبير «الأكواريوم» الذي بني حديثا ولم يكن موجودا على هذه الحالة العظيمة حين كنت هناك منذ خمس عشرة عاما. إنها مدينة أليفة سرعان ما يركن إليها القلب في دعة وترتاح لها الروح فتشعر بالحميمية في أسواقها وفي الحديث مع الباعة في أسواقها ومحلاتها وهي التي يمكن أن تخرج بي من حالة الحصار حولي لروحي. حصار سببه بلا تفاصيل كبيرة أن مايحدث في مصر كما قلت فاق قدرة العقل على الاحتمال إذ يرى الفرد نظاما سياسيا لا يتعظ من التاريخ ويعود بالبلاد إلى عهود من الظلام واستجداء الرضا بالأحاديث الكاذبة عن الأمل.

لم يكن صعبا السفر إلى لاروشيل. لقد جاءتني الدعوة من مركز ثقافي كبير هو «سنتر انترموند» وهو مركز ثقافي يستقبل الكتاب والفنانين من كل بلاد الدنيا يقيمون فيه للكتابة في حالة الأدباء أو الرسم في حالة الفنانين التشكيليين أو التمثيل في حالة ممثلي المسرح وتقديم عروض جديدة من بلادهم وهكذا. كان للصديق الكاتب الكبير جبار ياسين العراقي الذي يعيش قريبا من لاروشيل دور الاتصال بهم وحمل رغبتي في السفر إليهم. وطبعا لم يكن الأمر صعبا في حالتي فكتبي المترجمة إلى الفرنسية تسبقني هناك

كذلك سفري إلى لاروشيل من قبل وكتابتي عنها. كنت أتوقع الزيارة صيفا فأنا رأيتها من قبل صيفا وخيل لي أن الزمن ليس إلا الصيف. لكن الدعوة جاءت شتاء والمدهش أنني كنت ابتعدت كثيرا عن مشاعري بالغضب أو اللاجدوى مما هو حولي وترددت في قبول الدعوة وفكرت أن أعتذر. يبدو أن روحي تأقلمت مع السائد في البلاد والكدر أيضا والظلم. ويبدو أن الأسفار القصيرة المتعددة فعلت فعلها في تجديد الروح دون أن أدري. أو أني استسلمت لحالة اللا أمل واعتبرتها الحالة الحقيقية للحياة، أو كل ذلك مجتمعا. إلا أني بعد تردد لعدة أيام وجدت نفسي في حاجة إلى السفر لسبب آخر. لقد مضت سنة كاملة لم أكتب فيها شيئا جديدا من الإبداع. كتبت مقالات حقا، لكني لم أبدأ في رواية جديدة ولم أكتب حتى قصة قصيرة. أداجيو الرواية الأخيرة صدرت في نهاية عام ٢٠١٤م تقريبا. لا أذكر في أكتوبر أم في نوفمبر. لقد أخذت هذه الرواية كثيرا من الآلام من روحي إلا أنها أيضا تركتني في حالة كبيرة من الأسى يحتاج وقتا طويلا ليبتعد. لم تعد الموسيقى وحدها التي أعيش معها ليل عمري كله كافية، بل تقلّب الأسى أكثر لأن الرواية عن الموسيقي وبطلتها عازفة بيانو عظيمة غادرت الدنيا في الرواية ولم تغادرها في روحي والموسيقى تذكرني بها. الموسيقى التي هي في حياتي العتبة التي أعبرها كل مساء لأنسى عذابات النهار والتي كتبت عنها يوما أيام حكم الرئيس مبارك أنها، الموسيقى، عبرت بي شابا هزيمة ١٩٦٧ ثم عبرت بي عصر السادات وستعبر بي نظام مبارك أيضا ! ودعوت الناس إلى الاستماع إليها كل مساء ليبدأوا صباحهم بروح وثابة قوية متفائلة. الرواية المؤسية عن الموسيقارة «ريم» جعلت الموسيقى طريقا

للأسى أنا الذي كنت أهرب بها منه. لن يستمر الأمر كثيرا. أعرف ذلك. والإسراع فيه يعني الدخول في رواية أخرى، وأنا تراودني الرغبة في كتابة رواية جديدة عن ثورة يناير. قلت وأعرف وعلى يقين أن الكتابة السريعة عن الأحداث الكبرى تفتح الباب للعقل أكثر من الروح ومن ثم يتسرب إلى الرواية كثير من الآراء والأفكار الواضحة التي هي بدورها ثقل على العمل الفني الذي ينتسب إلى الروح أكثر مما ينتسب إلى العقل. الكتابة المبكرة قد توقع، بل وتوقع إلا في استثناءات قليلة، الكاتب في المباشرة. الآن مضت خمس سنوات على الثورة لكن لأني عشت أيامها كلها وجودا في الشوارع والميادين وليس متابعة من فوق الكنبة في البيت، لأني فعلت ذلك لم يبتعد الأمر عني بعد برغم أنه ابتعد عن البلاد كلها وكاد ينتهي. إذن الابتعاد في المكان قد يجعله حلما والكتابة عن الحلم هي الكتابة الحقيقية فلا ملامح واضحة. الابتعاد هذه المرة لن يكون أسبوعا أوعشرة أيام لكن سيكون شهرين وهو ابتعاد حقيقي. وأين ؟ في لاروشيل التي ألفتها من قبل والتي تأخذك عن الدنيا إلى شواطئها ومقاهيها وشوارعها العتيدة الكلاسيكية. وافقت بعد تردد قصير لم أعلنه لأحد. وتحدد موعد السفر في أول ديسمبر من العام الماضي ٢٠١٥م.

كانت المفاجأة غير المتوقعة هي ما جرى في باريس من أحداث إرهابية في منتصف شهر نوفمبر. إشاعات ترددت أنه سيحدث توقف عن إصدار تأشيرات السفر لكني كنت حصلت على تأشيرة السفر، إشاعات عن توقف التأشيرات التي صدرت ثم اتضح كذب هذه الإشاعات. المهم عقدت العزم على السفر في اليوم الثالث من ديسمبر على أن أبقى في باريس

حتى اليوم التاسع ثم السفر إلى لاروشيل لمدة شهر ونصف الشهر وفي العودة البقاء مرة أخرى أسبوعا في باريس التي لا تنتهي محبتي لها.

ذهبت كما قلت إلى فرنسا بدعوة من مؤسسة فنية ثقافية تسمى «Centre Intermondes» معنية بالفنون والآداب في العالم. مقر هذه المؤسسة هو مدينة لاروشيل الجميلة على المحيط الأطلنطي. كنت على يقين بما استقر في روحي وهو أنني أريد البدء جادا في رواية جديدة. مشكلتي في الكتابة هي أن أبدأ. ما أن أبدأ حتى أستمر. إذن لأنفض عن ذهني مشاكل القاهرة ومصر على الإجمال على الأقل حتى أبدأ. وأولها وأسهلها أني سأغلق التليفون المحمول فلن يكون لأحد أن يتصل بي إلا من لاروشيل وفرنسا على تليفون آخر وسأعفي روحي من الإجابة عن الأسئلة التي تنهال عليّ كل ساعة من الصحف والمواقع عن رأيي فيما يحدث حولي مما لايستحق أصلا أي رأي. ذلك الذي لا يجبرني عليه أحد في الإجابة أو الاستجابة لكني نادرا ما أرفض الإجابة ليس حبا في الظهور أبدا فلدي ما أكتبه من مقالات لكن معرفة بحال الصحفيين الشباب الذين يعملون في ظروف أقل مايقال عنها نوع من العبودية والاستعباد فرواتبهم لا قيمة لها وتعييناتهم دائما مؤجلة ومن ثم الالتحاق بنقابتهم حلم بعيد قياسا على أعدادهم الهائلة التي تقذف بها كليات الإعلام كل عام. لكن هذا لايعني أني سأبتعد تماما عن كل ما في مصر. سيكون دخولي على الفيس بوك كالعادة وتويتر لكن في وقت متأخر وقليل وسأتخلص شيئا ما من هذا الإدمان.

كانت إجراءات التفتيش في مطار القاهرة دقيقة وكثيرة لكنها مرت بسهولة ساعد عليها قلة عدد المسافرين إلى باريس على الطائرة المصرية. بلاشك كان للأحداث الإرهابية الأخيرة أثر كبير وأساسي. قابلت على الطائرة الكاتب والخبير الزراعي الدكتور محمود عمارة الذي أمضى ثلاثون عاما من حياته في باريس من قبل وصارت الزراعة أساسا والاقتصاد عموما وكتاباته السياسية في صحف مثل المصري اليوم والوطن وكانت له مقالات قبل زوال حكم الإخوان يتحدث فيها عن هذا الزوال وتنبأ بالسيناريو قبل حدوثه لكن كالعادة لم يدرك الإخوان المسلمون أو بالأصح لم يفكروا. كنت أتابع كعادتي مقالاته بعد ذلك وأفكاره عن التطوير والتطور في مجال الزراعة التي للأسف ذهبت تقريبا كلها أدراج الرياح مثل كتابات الكثيرين في الاقتصاد وغيره فلقد عاد النظام الجديد بكل ماحمله نظام مبارك وأعني بالذات فكرة نحن الذين نعرف ونفكر ونشكركم على حسن كتاباتكم لكن لن نعترف بها ! لم تكن هناك فرصة للحديث في الطائرة فلقد كنت متعبا لم أنم الأمس غير ثلاث ساعات لأكون في المطار في السادسة صباحا ومن ثم اغتنمت فرصة خلو الطائرة تقريبا من الركاب وانتقلت من مكاني إلى الخلف حيث المقاعد الخالية كثيرة ونمت على بعضها. نمت نوما عميقا من التعب. لا أكتمكم أني تخوفت لحظات من السفر ثم قلت لنفسي ضاحكا داعش أو الإرهاب الذي فعل مافعله في الطائرة الروسية ثم في فرنسا نفسها سيشفق على ركاب الطائرة المصرية وقد يدرك أن معظمهم عرب. قلت لنفسي ذلك ضاحكا وأنا أعرف أن الإرهاب لايفرق. قلت لنفسي ذلك حتى أنام.

اتفقنا أنا والدكتور محمود عمارة أن نلتقي بعد يومين في السان ميشيل. الحي القديم الذي أعشقه. لقاء ينضم للقاءاتنا السابقة في القاهرة في مقهى ريش على أزمنة متباعدة بعد ثورة يناير. التقينا وتحدثنا مرغمين فيما يحدث في مصر لكن الجو حولنا جعل حديثنا حلوا رغم أن ما نتحدث فيه ليس كذلك. وأكملنا الحديث عن الذكريات الباريسة في جلسة مع السكندري «سمير» صاحب مطعم «استيريا» الصغير في السان ميشيل والذي أعرفه منذ عشرين سنة ويعرفه الدكتور عمارة قبلي. وهو الرجل السكندري ابن مدينتي من حي «بحري» الذي ترك الإسكندرية شابا منذ ثلاثين سنة أيضا كما عرفت منه وحين افتتح مطعمه الصغير في السان ميشيل أسماه باسم الكافتيريا الشهيرة بشارع صفية زعلول بالإسكندرية «استيريا» الأمرنفسه حدث مع الشباب المصريين الذين عرفوا بقدومي إلى باريس. الباحث في السينما شريف الرملي وزوجته الفرنسية. ودواليا حسن ،هيباتيا الإسكندرية التي كان لها دور كبير في إنقاذ الشاب المصري يوم الهجوم الإرهابي على الاستاد والمسؤولة في ماراثون تولوز للثقافة. شاهيناز عبد السلام المهندسة المصرية والمدونة الشهيرة سنوات ٢٠٠٥ وما بعدها، وطبيعي جدا أن ألتقي بأصدقائي العرب من الكتاب والمفكرين. فالح مهدي وبدر الدين عرودكي وفاروق مردم وخليل النعيمي وأنعام كججي وصديقنا الفلسطيني الجميل وهيب أبو واصل وغيرهم. كانت كل لقاءاتنا في الكافيهات والمطاعم. وبينها أترك نفسي لشوارع باريس ومتاحفها التي أعشقها. تزودت براحة وقوة فنية وحب للحياة تعودت عليه كلما زرت باريس. كل أحاديثنا كانت عما جرى ويجرى في المنطقة العربية، مصر

والشام والعراق واليمن. وحدث صدفة جميلة في يوم آخر في السان ميشيل أن قابلت الكاتب اليمني الذي أحبه «على المقري» الذي عرفت رواياته الطريق إلى اللغات الأجنبية. رأيت ابتسامته وسط الطريق حين رآني. الكاتبة الشابة السورية سمر يزبك والناشطة السياسية وقفت أمامي تبتسم ونحن بالمقهى. آخر مرة رأيتها كانت منذ ثماني سنوات. الأحداث في مصر بعد ثورة يناير والعمر طبعا أضاعا كثيرا جدا من الذاكرة لكنها هنا تعود ولو صدفة مع الأصدقاء. انضمت سوريا إلى مصر واليمن على «تراس» المقهى حيث يتاح التدخين. ليت ذلك يحدث في مصر فيمنع التدخين في أي مكان مغلق. لم أعد أدخن غير خمس أو ست سجائر في اليوم. لم نتأخر كثيرا لأنهم جميعا يعملون. ساعتان تقريبا مرتا بسرعة. تفرقنا فوجدت نفسي وحدي في شوارع باريس التي أحبها. بدا لي أن ما تحدثنا فيه ينتمي إلى التاريخ. قلت لن أضيع الفرصة أبدا، وهاهي باريس كالعادة تساعدني في نسيان الآلام. بعد يومين من هذا اللقاء أخذت طريقي إلى لاروشيل. وجدت نفسي أفكر كيف حقا لم أجد أي مشقة في أي مكان باعتباري عربي الوجه. كيف كانت المعاملة في كل مكان في غاية الرقة برغم الأحداث الفظيعة التي مرت بباريس وانتهت برعب أن يفوز اليمين المتطرف في الانتخابات، لكنها فرنسا في النهاية لن تتخلى عن قيمها الإنسانية. ولم يصل اليمين المتطرف إلى الأغلبية المطلوبة.

الرحلة في القطار ال «تي جى في» كانت كالعادة رائعة وسهلة. برغم بعد المسافة عن باريس. حوالي ألف كيلو متر فالقطار يقطعها في ثلاث ساعات. حاولت فيها أن أقرأ في رواية الصديق الكاتب الكبير خليل النعيمي الطبيب

الكبير والسوري الأصل الذي يعيش في باريس وزوج الكاتبة الكبيرة سلوى النعيمي. وجدت الرواية تحتاج تركيزا أعلى مما يمنحه القطار قلت أرجئ القراءة حين أصل. كنت أخذت معي من القاهرة عدة أعمال قليلة. مذكرات زوجة دستويفسكي الذي أصدره المركز القومي للترجمة ورواية الدكتور مدحت طه الأولى «السير على الأطراف» ورواية الكاتب والشاعر التونسي الكبير كمال العيادي «نادي العباقرة الأخيار» وكتاب مترجم عن الروسية للصديق أحمد صلاح الدين عن «أبناء تالستوي» كما ترجم هو، من الكتاب بعد عصره ومن ترك أثره فيهم في روسيا. قلت هذه الكتب تكفي لأني سأكتب أكثر مما أقرأ وسأتفرج على الدنيا أكثر مما أقرأ وأكتب!

وصلت لاروشيل الساعة الثامنة مساء فوجدت على المحطة استقبالا رائعا لأنه يضم أجمل الأصدقاء. الكاتب الكبير جبار ياسين وزوجته الجميلة سيلفيان ومعهما الشاعرة الفرنسية الصديقة جوسيان دي جيسوس بيرجي ومعهم مندوب المركز الثقافي السيد إدوارد مورنو. من بهجة الاستقبال التي على وجوه جبار وزوجته وجوسيان أدركت كم كان زمن الابتعاد عن لاروشيل طويلا. خمسة عشر عاما بدت على وجوههم من لهفة الانتظار. وبسمة السيد إدوارد مورنو لاتفارق وجهه من هذا اللقاء كأنما لم نلتق حقا من زمان برغم إني التقيت جبار كثيرا في مصر وباريس والتقيت جوسيان مرة في القاهرة، والإنترنت والفيس بوك عموما يقرب بيننا. لم تكن هناك فرصة للذهاب إلى أي مكان غير المركز الثقافي فلاروشيل تغلق أبوابها بعد الثامنة. ليكن. ركبنا سيارة سيلفيان زوجة صديقي جبار ووصلنا. صحبوني

وأمامهم إدوارد مورنو إلى غرفتي في الدور الثاني. كانت المفاجأة هي المكان الذي يعد مركزا ثقافيا. فهو قصر أثري قديم بني في القرن السادس عشر. بناه الأمير هنري الثاني وكان يوما ما مقر المحافظة «أوتيل دي فيل» مبنى فخم من ثلاثة أضلاع بينها حديقة يرتفع إلى ثلاثة أدوار كلاسيكية يصل ارتفاع الدور فيها إلى حوالي أربعة أمتار. في الضلع الأيسر من المبني غرفتي، في الدور الثاني وتحتها غرفة فيها ممثل مسرح، شاب صيني بقيت له أيام قليلة ويعود إلى بلده وفي الدور الأعلى شاعر شاب أميركي اسمه سام بقيت له أيام قليلة أيضا ويرحل. للقصر باب خارجي يفصله ويفصل الحديقة عن الشارع وباب داخلي على الحديقة وللغرفة باب طبعا. وعليّ كما قال إدوارد مورنو أن أغلق كل مساء الباب الخارجي والباب الذي يطل على الحديقة أما باب غرفتي فطبعا لي الحرية في إغلاقه من عدمه. إغلاق الباب الذي يطل على الشارع هو الأهم لأن الشارع بالليل يشهد المتسولين أو من لا مكان لهم والذين يسمون بالكلوشار وعادة يحتلون الرصيف مع كلابهم وزجاجات خمورهم حتى الصباح فيختفون. هي ظاهرة أعرفها في فرنسا وغيرها من دول العالم الغربي التي زرتها. عادة لا يأتي الأذى من هؤلاء الكلوشار لكن الاحتياط واجب. أطلعنى إدوارد على بقية المبنى وبالذات غرفة المطبخ الكبيرة التي لفت انتباهي بها وجود غسالة ملابس ومجفف للملابس فابتسمت. أحب عادة في السفر أن أغسل ثيابي في مغسلة عمومية حيث يكون انتظار غسلها وجفافها وقتا ممتعا في الحديث مع النساء اللاتي ينتظرن أو الرجال والذين عادة بينهم من يقرأون رواية أو كتابا ما. كثير منهم غرباء وراءهم حكايات. لابأس هذه المرة أن

يتم غسل ثيابي وتجفيفها هنا بينما أقرا أنا أو أكتب أو أطبخ. في هذا المبنى الضخم كله ممنوع التدخين ومن يشأ التدخين فلينزل إلى المنور حيث توجد منضدة وبعض المقاعد البلاستيك أو يخرج إلى الشارع. والغرفة الواسعة بها السرير طبعا وبها أيضا مقاعد قليلة للجلوس ومكتب كبير للقراءة والكتابة وراديو وشبكة إنترنت مباشرة يمكن إيصالها باللاب توب. وفي كل دور حمام وتواليت مستقل. يعني باختصار أنت وحدك في الدور برغم وجود اثنين أعلى وأسفل. أما ماذا سأفعل فسيكون اللقاء صباحا في اليوم التالي في المكتب المخصص للقائمين على المركز في الدور الأرضي.

بقي معي جبار ياسين وزوجته أكثر من ساعة وفارقتنا جوسيان التي ستكون في الصباح أيضا معنا ونحن نتحدث فيما سأفعل. لم يكن ممكنا الخروج إلى الشوارع فلا أحد ولا كافتيريات ولا محلات والساعة تتجاوز التاسعة واليوم وغدا ليسا من أيام الإجازات لتتأخر المحلات والمقاهي قليلا. وقفت وحدي أتطلع إلى الحديقة من خلف النافذة وكان المطر قد بدأ يسقط. لم يكن المطر غزيرا لكن مشهده من خلف الزجاج من هواياتي السكندرية القديمة. الذي أدهشني أن الجو في الطريق من محطة السكة الحديد إلى هنا كان أدفأ منه في باريس وأن المطر الهابط ليس بكثافة أمطار باريس التي تركتها خلفي التي بدورها أمطرت مرة واحدة في ليلتي الأخيرة فيها وأنا في طريقي لمقابلة خليل نعيمي في مقهى بميدان بلاس دي إيتالي حيث أنزل في شقة الصديق الفلسطيني وهيب أبو واصل الذي تركها لي وهي قريبة من الميدان. أخذني الشتاء إلى لياليه التي حرمتني منها القاهرة وحياتي فيها حيث يصبح المطر لعنة على المدينة وليس الأمر كما كان

في الإسكندرية في سنوات طفولتي في الخمسينيات وشبابي في الستينيات حين كانت الإسكندرية لا تزال تحتفظ بملامحها العالمية. أعادني المشهد إلى انفرادي في غرفتي صغيرا أسمع صوت زخات المطر وأنا أقرأ روايات دوستويفسكي التي لليل فيها مساحات جبارة وللمطر والجليد. تذكرت أن معي مذكرات زوجته أنّا جريجوريفنا في ترجمة عن الروسية لابد تكون رائعة للدكتور أنور إبراهيم. تمددت فوق السرير وشرعت في قراءة المذكرات.

في الصباح التقينا في المكتب. إدوارد مورنو ومعه شابة صغيرة جميلة تعمل في المركز هي «فلافي مونييه» ومدير المركز السيد «جي مارتينييه» والسيد ميشيل من جمعية نجمة الثقافية وهي جمعية أهلية تدير أنشطة ثقافية في لاروشيل سميت باسم نجمة بطلة رواية الجزائري العظيم كاتب ياسين وفتاة فرنسية أخرى من مدرسة للأطفال. كان البرنامج غير غريب عليّ. لقد اتفقنا عليه أنا وإدوارد مورنو من قبل في مراسلاتنا على الإنترنت. ثلاث لقاءات في مدارس الليسيه ولقاء عام بالجمهور في «الميدياتيك» وهو مركز ثقافي وإعلامي كبير لكن أضيف إليها لقاءات مع الأطفال في مدرسة وافقت عليها من باب التجريب وكانت فيما بعد من أجمل اللقاءات. تم تحديد الأيام والوقت وكانت كلها تبدأ في الواحدة ظهرا بمعدل لقاء كل أسبوع أو لقائين على الأكثر. بعد اللقاء وتحديد أيام البرنامج وساعاته انطلقت أنا إلى المدينة التي أعرفها وصار حنيني إليها جارفا.

شوارع لاروشيل متشابهة لا يختلف فيها شارع عن شارع كثيرا إلا إذا خرجت إلى شواطئ الميناء الواسعة. مهما كانت ضيقة أراها واسعة لأن

العربات تقف في نظام في اتجاه واحد ويكفي ماتبقى من الشارع لأي سيارة تمر ويكون المرور عادة في اتجاه واحد والأرصفة واسعة للمارة. لم تكن المسافة من سنتر موند حيث أنزل إلى الشاطئ بعيدة. خمس دقائق مشيا تحت قباب العمارات التي تذكرك بقباب شارع الريفولي في باريس وتذكرك بالقباب الضائعة لشارعي كلوت بك ومحمد على في القاهرة اللذين صمما على غرار الريفولي لكن مديري الأحياء في مصر أضاعا كل جميل.

لم يكن الجو باردا كما توقعت. الحرارة تبلغ ثماني درجات لكنه بالنسبة لي دافئ فلا أثر للرطوبة في الجو. وصلت بسرعة إلى الشاطئ. تذكرت وأنا أمشي بعض المحلات التي كنت أشتري منها ما أريد حين كنت هنا منذ خمسة عشر عاما. كانت الشمس تبدأ في الظهور والساعة تقترب من الحادية عشرة صباحا. على الميناء جلست أستقبل أشعة الشمس وأستمتع بالاتساع الممتد أمامي. جلست على مقهى أشعر بالألفة معه لكن تغير اسمها ولم أحفظ الاسم الجديد. كنت أشعر أني جلست فيها كثيرا حين كنت هنا أول مرة وعرفت فعلا أنها هي مقهى «لا مارين» التي كنت أجلس فيها كل يوم في الصباح أكتب. كنت قبلها توقفت عند محل للكريب تناولت منه واحدا وأنا أجلس. في المقهى تناولت قهوتي بدون كافين الذي منعني الأطباء منه. كان الجالسون على المقهى والمقاهي المجاورة كالعادة يتكلمون لكن لا أسمع أصواتهم. فكرت كم سيكون اليوم طويلا هنا. وأن اللقاءات التي سأقوم بها ستشغل ساعة وبعض ساعة يوما أو يومين في الأسبوع. مهما أدور في لاروشيل وأدخل متاحفها فالوقت سيكون طويلا. إذن ستكون فرصة طيبة لأكتب. كان معي تليفون محمول تركته على الاتصال

الدولي لكني تركته في الغرفة مغلقا حتى إذا عدت أفتحه وأنظر فيه وأختار من أكلمه الذي لن يكون إلا زوجتي أو أبنائي برغم أني أعطيتهم رقم تليفوني الفرنسي الذي أحمله مع موبايل آخر. بعد ساعة نهضت أمشي متجها إلى السوق الذي سينتهي في الساعة الواحدة. أمامي ساعة والمسافة بيني وبينه لن تزيد أيضا عن بضع دقائق. لابد من شراء طعام أضعه في المطبخ أطهو منه عدة أيام. سيشغلني الطهو ساعة أو أكثر أيضا كل يوم وهذا وقت لا قيمة له. كانت الحركة في الشارع من الناس ليست كبيرة ولا صغيرة. ستزداد الحركة آخرالنهار كالعادة أو في أيام الإجازات. لاحظت أن النساء والفتيات في معظمهن يرتدين ملابس ثقيلة من أعلى ومن أسفل ميكروجيب تحته «كولون» غامق. لم أعرف كيف يمكن للكولون الشفاف أن يبعث الدفء إلى هذه الدرجة. يُسأل عن ذلك جسد النساء الدافئ بلاشك. في السوق الصغير كان عدد كبير من باعة الخضر والفاكهة وجواره سوق كبير للسمك والدواجن واللحوم ومحاط بالمقاهي من كل جهة والمطاعم والمحلات أيضا. دون أي تردد اشتريت من الفاكهة ما يكون لينا مثل الكمثرى والبلح. كمثرى من أسبانيا وأكثر من دولة وبلح من تونس وفلسطين. وراعني الحجم الكبير «للكاكا» فاشتريت بعضها وكذلك الكيوي. أعداد قليلة من كل صنف كالعادة فالسوق قريب ويكفي أن أشتري مايكفي ثلاثة أو أربعة أيام. سيكون الذهاب إلى السوق متعة كما كان لي من قبل وأنا هنا. ثم دخلت سوق السمك أعرف ماذا سأشتري. شيء من السيمون- السلمون - والتونة والبربوني «الروجيه» وشرائح من الدجاج أو البط وعدت إلى المنزل نظمت ذلك كله في الثلاجة وخارجها.

ثم أخذت طريقي مرة أخرى إلى محل كارفور القريب من السوق لأشتري مياه معدنية وشاي وسكر وأنواع مختلفة من الأجبان الفرنسية والمكرونة والكسكس المغربي والأرز وزيت الزيتون وغير ذلك مما سأحتاجه ومن كل نوع كميات بسيطة فأنا لم آت هنا للأكل كما أنني أحب المطاعم أيضا. قررت أن يكون نظام طعامي بسيطا جدا ففي الصباح كريب على الشاطئ وقهوة وفي الظهيرة وجبة في البيت أو في مطعم وفي المساء الجبن والفاكهة. أو الفاكهة فقط.

في المنزل بعد أن عدت للمرة الثانية بالطعام الذي أريد كان لدي موعد مع السيد «مارتينييه» المدير العام للمركز وسيحضر معه السيد «مكسيم برونو» محافظ لاروشيل السابق حين كنت هنا عام ٢٠٠١م. كان لقاء رائعا ونحن نجلس في أحد المطاعم على الشاطئ لتناول الغذاء. ورحنا نتحدث عن زيارتي السابقة إلى المدينة. كانت سعادتي كبيرة أن السيد مكسيم برونو المحافظ السابق لايزال يذكرني. لقد قرأ روايتي لا أحد ينام في الإسكندرية بالفرنسية ذلك الوقت. وتحدثنا عن لاروشيل قبل ذلك حيث لم تكن هناك أوتوبيسات بهذا العدد ولاسيارات بهذا العدد. لقد اتسعت لاروشيل حول المدينة القديمة وأقيمت بها دارين جديدتين للسينما بينما من قبل كانت واحدة فقط وتذكرنا بعض الأصدقاء مثل الكاتب ريموند بوزيير فأخبرني أنه كثير السفر خارج لاروشيل أو هذه الأيام وتحدثنا طبعا في الشأن المصري والعربي وحالة الأمة العربية الآن. هذا الحديث سيتكرر في كل اللقاءات ومع أي شخص كبير أو صغير. وعدت إلى المركز الثقافي لكني وجدت الرغبة في المشي في الميدان من جديد. أخذت طريقي إلى

بلاس فيردان القريب حيث موقف الأوتوبيسات. كنت أعرف اتساعه وأن الشمس لا تختفي منه إلا بالغيوم. كنت أريد الجلوس قليلا على أحد مقاعده بين حركة الناس من حولي. هنا يمكن أيضا أن أدخن سيجارة كما أفعل على المقاهي في تراسها الخارجي. لن أدخن في المركز حيث محظور التدخين. سأحاول أن أمتنع عن التدخين. أمل لم يتحقق حتى الآن وكل ماجرى هو أنني لم أعد أدخن أكثر من خمس أو ست سجائر. شيطان التدخين لايزال أقوى. في المساء عدت إلى مذكرات دوستويفسكي. قابلت الشاعر الأميركي الشاب والممثل الصيني الشاب فعرفت أنهم سيغادارن بسرعة فلقد مضى وقت طويل لهما وسيكون المكان كله لي وحدي. طبعا لن أدخل أي غرفة أخرى. حركتي محدودة في المركز بين الحجرة والمطبخ والحمام. قلت ضاحكا سأكون دراكيولا في القصر الكلاسيكي القديم الرائع. وضحكت.

كان في اللقاء الذي تم في مكتب المركز مسيو ميشيل وهو أحد أعضاء إدارة جمعية نجمة. بل ترأسها زوجته الجزائرية الأصل التي حضرت اللقاء. ولقد أخذ معي موعدا لنخرج في رحلة بحرية بعد عدة أيام إلى المحيط. وافقت برغم أني لم أركب البحر منذ أكثر من أربعين سنة ولم أضع لدوار البحر أهمية.

بدأ على الفور اللقاء الأول مع طلبة الليسيه. كان هذا في اليوم الحادي عشر. أي بعد وصولي بيومين. جاءت الشابة التي ستقلني في سيارتها إلى هناك، وعرفت أن من سيقوم بالترجمة هي نفسها. سأتحدث بالإنجليزية. اللقاء سيكون الساعة الواحدة. طبعا لن أصف لكم المدرسة واتساعها

وحدائقها ومشهد طلابها المتفرقين خارج الفصول في مودة بينهم ومحبة حيث تتناثر القبل بين الطلبة والطالبات في كثير من الأحيان.

كان حضور اللقاء عددا لا يقل عن خمسين طالبا وطالبة تتفرق أعوامهم تقريبا بين الخامسة عشر والثامنة عشر. جلست في القاعة وإلي جواري المترجمة. كان حديثي في البداية عن أعمالي الأدبية وبالذات المترجمة إلى الفرنسية والتي صارت متاحة لهم في المدرسة وسيكون هذا الحديث دائما في اللقاءات التالية ثم أترك لهم الأسئلة عما قلت وعما يريدون أن يسألوا فيه. وما كان دائما يريدون الحديث فيه هو الوضع السياسي للبلاد العربية ومصر خصوصا ومسألة الإخوان المسلمين والجماعات الجهادية داعش وطالبان وغيرها والإرهاب. طبعا فلم يمر شهر حتى الآن على تفجيرات باريس.

حدث ذلك في كل اللقاءات التالية مع مدارس الليسيه. إلا أن الصدفة الجميلة كانت مع اللقاء الثاني حيث كان يترجم لي مدرس الطبيعيات الجزائري الذي التقيت به لأول مرة وهو الدكتور أحمد ظريف. كان لقائي معه في اللقاء الثاني بطلبة الليسيه بعد أسبوع من الأول. أي بعد وصولي بتسعة أيام إلى لاروشيل. أحمد ظريف حاصل على الدكتوراة في الفيزياء. يعيش في فرنسا منذ أعوام طويلة. يقارب عمره من الستين. لديه ثلاث بنات وابن يعمل طبيبا خارج لاروشيل وإحدى بناته – ليلى – تدرس للدكتوراة في الإنثروبولوجي. أحمد شخص تسبقه ابتسامته المريحة. أخذتني إلى الليسيه في سيارتها الأستاذة «كاتيا» التي تقوم بالتدريس في الليسيه. وكالعادة كانت المحاضرة والأسئلة. أين نذهب من قدرنا مع

الإرهاب والديكتاتورية في بلادنا. خرجنا لنتغدى في مطعم لبناني ماكاد صاحبه يعرف أني مصري حتى بدأ يتحدث عن الوضع الحالي في مصر وعن الاغتيالات والسجون المفتوحة للشباب والاختفاء القسري وغير ذلك. لاشيء يخفى على أحد في الخارج. كنا نقترب من نهاية العام. ولقد بدا النصف الثاني من ديسمبر. وبدأت الإجازات والوفود السياحية إلى لاروشيل. بدأت الزينات في الشوارع وطوابير الراقصين والمغنين من الشباب والأطفال احتفالا بأعياد الميلاد وأقنعة بابا نويل على وجوه جميع المحتفلين في الطرقات وبدأت التخفيضات الكبيرة على السلع المنزلية والملابس وغيرها فصار الزحام على المحلات كبيرا. صارت البهجة في الشوارع فالبرد الشديد له ملابسه ومحتمل لأنه بلا رطوبة والمطر تقريبا لايسقط نهارا إلا دقائق ويسقط غالبا ليلا والناس في بيوتها. صارت الأسواق على الشاطئ للتحف اليدوية والمشغولات من كل بلاد فرنسا وصار أحمد ظريف يأتيني كل يوم مع أخيه نور الدين الذي يعيش ويعمل في إيطاليا لكنه سيعود قريبا إلى الجزائر. نور الدين أصغر منه وأطول منه لكنه لايزال يحتفظ بسمات الأطفال على وجهه. أخذاني في رحلات يومية لكل نواحي الميناء وصار اليوم بدونهما لا قيمة له. نجلس ونضحك ونتكلم نهارا. مشينا على جسر مانديلا الجديد الذي أقيم وسط المحيط منذ ثلاثة أعوام وهو جسر رائع يمتد إلى ثلاثة كيلو مترات وسط المياه وصحبني نورالدين مع مسيو ميشيل في يخت المسيو ميشيل في رحلة إلى المحيط كانت رائعة إلا إنه بعد ساعات بدأت أعاني من دوار البحر فعدنا نضحك. قلت لميشيل لقد كانت رحلة رائعة فقال ضاحكا لكن لعلك تقول في نفسك

لا تطلب مني ذلك مرة أخرى ياميشيل. ضحكنا. ، كانت معنا الشاعرة جوسيان دي جيسوس.

كان نورالدين في كل لقاءاتنا لايكف عن الابتسام ونحن نتحدث عن أحوال العالم العربي وحين قلت لهما بعض النكت السياسية المصرية «مات من الضحك» وقال لي إنه سيعود إلى وهران يحدثهم عن هذه النكت. وحين عاد إلى وهران بعد أيام أرسل لي مع أحمد أن الناس في وهران كلها تضحك من النكت القليلة التي حفظها.

كان مشهد الاحتفالات اليومية في الشوارع رائعا والزحام يزداد على الشاطئ من الزوار فلاروشيل مدينة جميلة وموانيها رائعة وفيها آلاف من القوراب وتعتبر أكبر مدينة أوربية بها قوارب تتفاوت أشكالها وأثمانها لتصل إلى أرقام فلكية. بالطبع صحبني أحمد ظريف إلى بيته واحتفلنا بليلة الميلاد وصحبني ميشيل إلى بيته وصحبني الصديق والكاتب الكبير جبار ياسين إلى بيته خارج لاروشيل أكثر من مرة وكان يزورني مع زوجته الجميلة سيلفيان التي صار سؤالها عني واهتمامها بي شفاء من أي تعب. عزمني الكثيرون لكني أحب أن أتحدث عن دعوة السيد مكسيم برونو للعشاء في منزله أنا وجبار ياسين وزوجته. رأيت بيتا جميلا وبسيطا وصغيرا. من المدخل تجد صالة صغيرة أمامها المطبخ المفتوح عليها وكلها تطل على حديقة لاتزيد مساحتها عن أربعة أمتار في خمسة أمتار. ومن الصالة الصغيرة الخارجية يرتفع سلم صغير إلى غرفة نوم في الدور الأعلى. المنزل صغير لكنه بتوزيع أثاثه وتحفه البسيطة التي في معظمها لوحات تشكيلية أو لوحات مصورة من إعلانات قديمة وأدوات قديمة يصبح متسعا جدا ورائعا. قلت لنفسي تعالى شوف عندنا قصور الحكام من أموال الشعب.

ولا أنسى هنا مشهدا رائعا ليلة عيد الميلاد فلقد وجدت وأنا أمشي مع أحمد ظريف زحاما رهيبا على الشاطئ أمام المقاهي والمطاعم ومناضد ومقاعد ممتدة في الشارع وعلى الأرصفة وفوقها يجلس الزوار وأبناء المدينة وعلى مسافات متباعدة مناضد عليها زجاجات النبيذ وقطع من الخبز الجاف يتناول الواحد كاسا من النبيذ وقطعة من الخبز ويجلس يأكل ويشرب، وحين كتبت ذلك على الفيس بوك ضاحكا قائلا إن المحافظة أقامت موائد الرحمن ليلة عيد الميلاد أخبرني الصديق الكاتب الشاب ياسر عبد الله أن ذلك تناول مدني فبدلا من خبز المسيح ودمه يكون الخبز والنبيذ. والحقيقة أن ياسر عبد الله شاب واسع الثقافة في السياسة والأدب والموسيقى وهو من أجمل من عرفت من الشباب.

استمرت اللقاءات في الليسيه واستمر الوقت طويلا لكنه ليس مملا أبدا ونسيت مصر بشكل كبير جدا برغم دخولي على تويتر أحيانا وعلى الفيس بوك. ثم صحبني ميشيل مع أحمد ظريف إلى الأكواريوم الذي فتنتني مساحته ومخلوقاته البحرية وكان أحمد يلتقط لي الصور في كل مكان ويرسلها لي على الإيميل لأنقلها بدوري إلى الفيس بوك. واستمرت قراءتي لمذكرات زوجة دوستويفسكي ثم بقية الكتب التي معي روايات خليل النعيمي ومدحت طه وكمال العيادي وكتاب أبناء تولستوي التي أمتعتني كلها وعلقت عليها على الفيسبوك. طلب مدرسو الليسيه حيث يعمل أحمد ظريف لقاء معي أيضا، حضره بعض الطلبة وكنت أعرف أن الأسئلة لن تختلف. فالسياسة فوقنا بأعلامها السوداء دائما. ثم كانت الندوة الكبرى مع عموم الناس في الميدياتيك وهو مبنى عصري ضخم للثقافة وعلوم

الاتصال. كانت الندوة في الساعة الرابعة وكانت التخفيضات قد وصلت إلى الذروة وصارت أحيانا سبعون بالمائة من الأسعار الأصلية. في هذه البلاد تكون التخفيضات حقيقية. ليس كما هو عندنا يرفعون السعر ثم يتحدثون عن التخفيضات. كثير من المحلات كادت تفرغ من بضاعتها الشتوية فلم تعد ترى منها في الفتارين كثيرا. الغرض من التخفيضات أن ينتهوا من بضاعة الشتاء لتحل مكانها بضاعة الربيع والصيف بعد فبراير.

أخذت طريقي إلى الندوة مع جبار ياسين. ذهبنا مشيا. كان الزحام حولنا رهيبا في الشوارع والمحلات. والندوة في وقت غريب هو الرابعة مساء. ضحكت وسألت جبار هل سنجد أحدا في مثل هذا الجو من التخفيضات؟ قال لي أخشى أن لا نجد الكثيرين. ووصلنا واستقبلتنا السيدة مديرة الثقافة. وجدت إعلانات جميلة عن الندوة في كل مكان وصور لي في ميدان التحرير من فيلم تسجيلي أجرته معي من قبل قناة «آرتيه» الألمانية الفرنسية. وكانت هناك كتب لي للتوقيعات. وصلنا قبل الندوة بربع الساعة تقريبا. قلت لجبار سأدخل إلى الصالة وحدي أنام دقيقة أو دقيقتين على أحد المقاعد لأني سهرت كثيرا ولم أنم. هذه عادتي إذا غلبني النوم. دقيقة أو اثنتين تكفي للمتابعة. دخلت. لم أر جمهورا في الخارج. وطدت نفسي على عدد قليل. بعد خمس دقائق دخل إليَّ جبار يقول ضاحكا إبراهيم الطابور طويل جدا. ابتسمت. أين كان هؤلاء؟ يأتون في الموعد تماما فالقاعة لا تنفتح إلا في موعدها. وبالفعل بعد دقائق انفتحت في الرابعة تماما فاندفع إليها الجمهور ملأ كل مقاعدها التي تزيد على المائة والخمسين مقعدا. كان حاضرا أيضا من المركز السيد «مارتينييه»

مدير المركز والسيد إدوارد مورنو والجميلة فلافي مونييه والكاتب ريموند بوزيير والشاعرة جوسيان دي جيسوس وزوجها والسيد ميشيل وعدد من الناس يعرفونني ولا ينسوني منذ كنت في لاروشيل من قبل وقرّاء لأعمالي وجمهور يحتفي بكاتب عربي معروف لديهم. وكانت قناة فرانس تروا قد أجرت معي حوارا - أداره جبار ياسين - وأذاعته. كانت ندوة رائعة في الأسئلة والحضور والتوقيعات على الكتب وصحبتنا بعدها بعدة ساعات مديرة الثقافة إلى مطعم جميل باسم «كاتر سيرجانت» وهم الجنود الشباب الأربعة الذين اتهموا عام ١٨٢١م بالفوضوية والتآمر على الملك إذ رفضوا في باريس الهتاف «عاش الملك» فقبض عليهم ووجهت إليهم هذه التهم ونقلوا إلى حصن في لاروشيل عام ١٨٢٢م سجنوا به موجود حتى الآن في الميناء وصار مزارا ثم اكتشفت براءتهم فسمي الحصن الذي سجنوا فيه باسمهم وهو بالميناء وسمي المطعم فيما بعد باسمهم.

لم يكن الحوار مع قناة «فرانس ٣» هو الوحيد. عرفت قناة الجزيرة من الصديقة والشاعرة ومخرجة الأفلام التسجيلية المصرية صفاء فتحي بوجودي في لاروشيل فجاء إليَّ الشاعر «جمال العرضاوي» مدير البرنامج وطاقم التصوير وأجرينا مقابلة في برنامج «المشّاء» كان جبار ياسين هو المحاور لي فيها سوف تذا ع هذا الشهر مارس. انشغلنا يومين كاملين في هذا البرنامج طفنا فيهما بمعالم لاروشيل لكن كل هذه اللقاءات شيء ولقائي بالأطفال شيء آخر.

عندما سألوني في اللقاء الأول بالمكتب هل يمكن أن ألتقي بأطفال إحدى المدارس قلت يمكن. بعد ذلك سألت نفسي ماذا يمكن أن أتحدث

فيه مع الأطفال. لكن لم يكن ممكنا التراجع. قلت سأجد طريقة للحديث معهم. والأهم أنهم لن يتحدثوا معي في السياسة. وهذا سيكون جميلا. كما أنني سبق لي من قبل وكتبت للأطفال عشر سنوات. أي خلال مرحلة التسعينيات. وكان الذي شجعني على ذلك صديقي محمد المنسي قنديل الذي سبقنا جميعا في ذلك. كنت أكتب سيناريو كل شهر في مجلة العربي الصغير وكتبت أكثر من مرة في مجلة علاء الدين ثم انشغلت عن ذلك بعد عشر سنوات. هناك إمكانية إذن للحديث مع الأطفال.

كانت المفاجأة حين صحبتني الفتاة «ستيفاني» التي ستترجم حديثي من الإنجليزية أنني وجدت من سأتحدث معهم ست فتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين السابعة والعاشرة. كان هناك مدرستان جزائريتان للترجمة من العربية لكن وجدت أنهما لا تستوعبان لهجتي المصرية بسهولة فآثرت الحديث بالإنجليزية ووجدتها أسهل مع قليل جدا من الفرنسية. ست فتيات يكوّنَّ فصلا واحدا في المدرسة الكبيرة ذات الحدائق والفصول العديدة. كانت دهشتي حين دخلت الفصل ووجدت عددهن. لفت انتباهي طفلة ترتدي نظارة وعرفت أن اسمها آنجيل. سألتني هل اللغة العربية تكتب من اليمين إلى اليسار فقط. أجبتها بالإيجاب. وحدثتها عن أن هناك لغات تكتب من اليمين مثل الفارسية والعبرية وهناك طبعا مايكتب من اليسار مثل الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية. وهناك مايكتب من أعلى لأسفل مثل الصينية. كتبت لها المدرسة الجزائرية كلمة بالعربية لا أذكرها الآن فانفردت بها آنجيل وكتبتها من اليمين إلى اليسار ثم من اليسار إلى اليمين بنفس الرسم كأن من كتبها كتبها من اليمين إلى اليسار ثم

من أعلى إلى أسفل. أدركت ذكاءها. وتركت لهم الأسئلة عن مصر فسألوني عن الطعام وأنواعه والمباني والشوراع والموسيقى وغيرها من سبل الحياة في مصر. سألوني عن البلاد التي زرتها في العالم. وكان بالصدفة هناك كتاب عن الحضارة الفرعوينة على إحدي المناضد فأمسكت به وفتحته وأخذت أحدثهم عن الصور وماتمثل في الحضارة الفرعونية من آلهة وأعمال وغيره. كانت ثلاثة لقاءات جميلة بل كانت أجمل اللقاءات. وكان اللقاء الثالث مخصصا لأسمعهن يتحدثن عن آمالهن في الحياة وتمنياتهن لأنفسهن وطموحهن. وعليّ أن أكتب تعليقا على كل واحدة تحتفظ به بلاشك وهي سعيدة. هنا استمعت إلى كلام رائع ويفوق الروعة. إحداهن قالت إنها تحلم أن تكون محامية تدافع عن الناس وتكافح من أجلهن فهي تثق في نفسها غاية الثقة وتعرف أنها قادرة على ذلك. وإحداهن التي انضمت إليهن مؤخرا حين عرفت أني سأفعل ذلك قالت إنها تتمنى أن تكون طاهية فوالدها طباخ كبير وهي تتمنى أن تكون طاهية لكل أنواع الطهو في العالم. وإحداهن قالت جملة رائعة وهي أنها تعيش لترى يوما شيئا صادقا في هذا العالم. توقفت عندها كثيرا وقلت لها شكسبير لم يقل هذه الجملة العظيمة وتنبأت لها بكتابة الشعر. لكل واحدة تمنيت لها تحقيق ماتريد. أضفت إلى التي تريد العمل بالمحاماة أنها ستكون سياسية قوية مدافعة عن الشعب كله. وجاء دور آنجيل التي تحدثت عن رغبتها أن تطوف العالم. كان قد سبق لها أن سالتني هل زرت نيويورك ولما أجبت بالإيجاب سألتني عنها. وقالت آنجيل الصغيرة أنها تتمنى أن تقرأ كثيرا وتتمنى أن تكون راقصة يعرفها العالم. حدثتها عن الراقصة الأمريكية المثقفة إيزادورا دنكان في

أول القرن العشرين التي تزوجت من الشاعر الروسي يسينين بعد الثورة البلشفية. وتمنيت لها أن تكن في شهرتها الفنية والثقافية. وجاء اليوم الأخير الذي سيقرأ فيه ماكتبته عنهن ومن يحضر من أسرهن وفوجئت بالقائمين على الأمر يعرضون فيلما تسجيليا قديما عن إيزادورا دنكان كان خلفية اللقاء كله، إيزادورا دنكان بنفسها كانت معنا. وكان الحضور كبارا أيضا فأضيف للحديث عن التلميذات حديث عني وعن مصر لم أشأ أن يطول كثيرا ثم حفلة توقيع للكبار. الذي لاحظته بين الأطفال هو فتاة جزائرية. هي أكبرهن سنا. في العاشرة. قالت إنها لا ترى إلا أشباحا وخيالات في حياتها وأنها تخاف الأشباح. ولم يكن لديها إجابة عن أحلامها وأمنياتها. بدا لي أن أهلها ضاغطون عليها ضغطا شديدا. عرفت الفرق بين تربية عربية وتربية فرنسية. أصابني الحزن لأجلها. تمنيت أن يعيد أهلها علاقتها بالحياة الواقعية حتى تتحول الأشباح المخيفة إلى قصص وروايات قد تكتبها يوما. للأسف الصور التي صوروني فيها معهن لم تصل إليّ لكنها معهن. معي فقط ورقة جميلة كتبت فيها آنجيل الصغيرة لي بضع جمل جميلة وأعطتها لي ولن تضيع مني.

لم يكن ممكنا لكل هذا الجمال أن يمر بلا ألم. كانت تأتيني أخبار مصر من تويتر والفيس بوك ولم تكن تدهشني، فمنذ وقت ليس بالقصير والأخبار كلها خارج حدود العقل والمنطق. الوفيات كانت تؤلمني كما حدث معي في وفاة المناضل محمد خليل الأخ الكبير للمناضل كمال خليل. هذا تاريخ من القوة والإنسانية والجمال. ثم وفاة الفنان الراقي الجميل ممدوح عبد العليم. كما غادرت القاهرة يوم العزاء في أستاذنا الكبير إدوار الخراط.

لكني حاولت أن أبعد عن الآلام من ناحية والخبل في الأخبار السياسية من ناحية أخرى بكتابة الرواية. قرأت في مذكرات زوجة دوستويفسكي أنها التقت به أول مرة حين طلب منها معلمها في مهنة «الاختزال» أن تقوم بمهمة الاختزال لدوستويفسكي الذي عليه أن ينجز رواية في عشرين يوما للناشر الذي وقع معه عقدا أن يفعل ذلك وفاء لسداد ديونه وإلا صارت كل أعماله السابقة ملكا للناشر. كان دوستويفسكي مدينًا دائما وكان ماهو شائع عنه أنه مقامر. والحقيقة أن المقامرة لم تكن إدمانا عنده لكنها كانت طريقة يخرج بها من التوتر والارتباك وليس في كل وقت. كان ما هو سبب ديون دوستويفسكي هوأسرته. إخوته وابنه من زوجته السابقة وسلوكه الطيب كمسيحي شديد التدين. لن أحكي هنا ما قالته زوجته وهو عظيم ورائع لكن المهم أنها هي التي قرأت له من قبل رواية من رواياته كانت معجبة به. ذهبت وتفانت في العمل معه وأنجز رواية «المقامر» في ثمانية عشر يوما قبل الموعد، لكن هرب الناشر لتضيع الفرصة فسلم دوستويفسكي المخطوط إلى قسم بوليس وأخذ إيصالا فنجا من ضرر العقد الظالم. أحبها دوستويفسكي وأحبته هو المريض بالصرع. تزوجته وبعد ذلك قصة عظيمة لهذه المرأة التي عاشت معه وهو دائما مديون ولا بيت يملكه ولا حتى عفش بيت فدائما العفش مرهون لديونه حتى استطاعت في آخر عامين معه هو الذي يكبرها بعشرين عاما حين تزوجها. استطاعت أن تكون ناشرة أعماله وصار لهم بيت وأثاث بيت لكنه رحل. الكتاب لا تنتهي متعة قراءته. قررت أن أفعل مثل دوستويفسكي بلا ديون عليّ. أعني أن أكتب رواية في وقت قياسي. وبالفعل بدأت في الرواية التي

تخايلني منذ وقت وانتهيت من أكثر من نصفها في عشرين يوما وتركتها كعادتي - لأعود إليها بعد فترة - بعيدا بروحي عنها لأراها رؤية نقدية بقدر الإمكان.

تركت لاروشيل إلى باريس في الأسبوع الأخير لأمضيه في باريس.

كانت خمسة أيام في الحقيقة. التقيت فيها من جديد بداليا حسن وشاهيناز عبد السلام وصفاء فتحي وشريف الرملي. سهرنا وضحكنا. وقابلت فيها الشاعر والمترجم كاظم جهاد وأكلت عند سمير في أستيريا وزرت متحف الأورسيه الذي أحبه ووقفت أمام المسلة المصرية في ميدان الكونكورد وجلست مع الصديق العزيز باتريك زوج صفاء فتحي في ميدان الجمهورية جلسة رائعة ومشيت في باريس كثيرا ولم أتذكر القاهرة ومصر إلا في المطار. عدت منذ شهر الآن ولازلت أعيش هناك في الهدوء العظيم والروح الحلوة للأصدقاء والأدب الجم لكل من أتعامل معه واندهش من كوني سافرت كثيرا لكني لم أنس مصر إلا هذه المرة. عدت لأجد كوميديا السياسة ومعارك أعضاء مجلس الشعب والألفاظ القبيحة في الفضائيات والطفل محمود محمد تنتهي مدة حبسه الاحتياطي لعامين ولا يفرج عنه ولم تحدد له قضية ومنع المحامي جمال عيد من السفر بعد منع المدون إسماعيل الإسكندراني من قبل وغيره والحكم بعامين حبس لأحمد ناجي عن روايته «استخدام الحياة». حيث رأتها النيابة ستقلب كل القيم في مصر وستضيع مصر إلى الأبد ! حكم غير دستوري لكن منذ متى كان الدستور محترما. حكم أخلاقي بسبب رواية أنت حر في قرائتها والفضائيات عامرة بالألفاظ الخارجة وفي الطريق والميكروباصات وعلى المقاهي وفي الفيس بوك وتويتر

وانستجرام والواتس أب وما تشاء من وسائل الاتصال. والتحرش قائم في الطرقات بنسبة تصل إلى ثمانية من كل عشرة رجال يتحرشون بالنساء. لا أريد أن أستطرد. كل ما أتمناه أن أنسى ما حولي قليلا وأكمل روايتي هنا في مكانها وزمانها.

الفهرس

إهداء.....٣
انطباعات كاتب عربى عن بلاد «البروسترويكا» إلى موسكو بعد طول انتظار.....٥
باريس لأول مرة.....٤١
أسئلة المغرب.....٨٣
بواتييه – بوردو عن القراءة والرقص أيضا.....٩٩
ساحل مريوط.. مرايا المدن الصحراوية.....١١٣
الإسكندرية / صورة شخصية.....١٤٥
لاروشيل.. أين تذهب طيور المحيط.....١٦٩

طبع بمطابع دار المعارف